د. محمد عمارة

# في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام

مكتبة الشروق الدولية

في فقه المواجهة
بين
الغرب والإسلام

الطبعـــة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣ م

شارع الفتح ـ أبراج عثمان ـ أمام المريلاند ـ روكسى ـ القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٥٦٥٨٣٩ ـ ٤٥٤٤٤٦٧ ـ تليفون ٤٥٢٦٢٤٨
Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com

د. محمد عمارة

# فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام

مكتبة الشروق الدولية

بسم الله الرحمن الرحيم

# تمهيد

انطلاقًا من القرآن الكريم، يرى المسلمون - ويريدون - هذا العالم «منتدى» ثقافات.. وحضارات.. وشرائع.. وملل.. ونحل.. وفلسفات.. وأمم وشعوب وقبائل.. وأجناس وألوان.. ولغات وقوميات.

ويريد المسلمون لأعضاء هذا «المنتدى الإنسانى» «التفاعل» فيما هو مشترك إنسانى عام «والتمايز» فيما هو من الخصوصيات الثقافية والعقدية والفلسفية.. وذلك لتحقيق مقاصد التعارف والتعايش والتعاون على البر والتقوى فى القيام برسالة الاستخلاف الإلهى للإنسان؛ كى يعمر هذه الحياة الدنيا، طلبًا للسعادة الأخروية فيما وراء هذه الحياة.. هكذا يرى المسلمون العالم، ويريدونه، انطلاقًا من الآيات المحكمة فى القرآن الكريم..

● فالواحدية والأحدية هى للذات الإلهية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

● والتنوع والتمايز والتعدد والاختلاف، سنة إلهية كونية لا تبديل لها ولا تحويل فى سائر عوالم المخلوقات والشرائع والثقافات والحضارات والأفكار والفلسفات ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

● وهذا التنوع والاختلاف.. وهذا التعايش والتعارف والتعاون بين المختلفين، هو فى الرؤية الإسلامية للعالم - الشرط الأول للتسابق والتدافع على طريق التقدم

والارتقاء والخيرات ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿ولكلٍّ وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾ [البقرة: ١٤٨].

● وهذا التنوع والتسابق على طريق التقدم والخيرات هو النقيض «للصراع» الذى يفضى إلى أن يصرع طرف الطرف الآخر، فينهى التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ۝٧ فهل ترى لهم من باقية﴾ [الحاقة: ٧، ٨].

● وفى هذا «المنتدى الإنسانى» للحضارات العالمية، يرى المسلمون ـ انطلاقًا من القرآن الكريم ـ أن التكريم الإلهى إنما هو لمطلق الإنسان.. لكل بنى آدم، وليس وقفا على جنس أو لون أو حضارة أو ثقافة أو أبناء دين من الأديان: ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ [الإسراء: ٧٠]، وفى التسابق والتدافع على طريق التقدم والارتقاء تكون التقوى وليست الصفات اللصيقة ـ العنصرية ـ هى معيار التفاضل بين الأفراد والجماعات ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣].

تلك هى الفلسفة القرآنية، المكونة لرؤية المسلمين للكون والعالم والإنسانية والوجود.. فهم يرون العالم ويريدونه منتدى أمم وشعوب وثقافات وحضارات وشرائع، تتوازن بينها «المصالح» لا «القوى» وتتعارف وتتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

● وبسبب من هذه الفلسفة ـ وثمرة من ثمراتها ـ لا يتحقق الإيمان الإسلامى إلا إذا آمن المسلم بكل الكتب السماوية، وبكل النبوات والرسالات والشرائع التى تتالت وتوالت على امتداد تاريخ الإنسان ﴿الم ۝١ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ۝٢ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ۝٣ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ۝٤ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ [البقرة: ١ ـ ٥]، ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون

كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولهذه الحقيقة الإيمانية، تميّزت الرؤية الإسلامية بالاعتراف بكل الآخرين، كجزء من ذات الخلق الإلهي الواحد.. والدين الإلهي الواحد.. والتكريم الإلهي الشامل لكل بني آدم.. كما تميّز هذا الإيمان الإسلامي بإيجابه على المسلمين أن يمكّنوا كل الآخرين من حرية إقامة مقوّمات تميّزهم الديني والثقافي والحضاري، حتى ولو كان هذا الذي يتميّز به الآخرون مخالفًا لمقوّمات الاعتقاد الإسلامي، بل ومنكرًا للاعتراف بالمقومات الإسلامية وحتى لو كان هذا الإنكار في دار الإسلام!

● ولم تقف هذه الرؤية الإسلامية عند حدود البلاغ القرآني، والبيان النبوي لهذا البلاغ القرآني.. وإنما - بسبب من أن الإسلام قد أقام دولة، وأبدع ثقافة ومدنية، وبنى حضارة، وكوّن أمة ووطنا، وصنع تاريخًا - بسبب من ذلك، وُضعت هذه الرؤية القرآنية في الممارسة والتطبيق، فتعايشت وتعارفت وتفاعلت في دار الإسلام كل ألوان الشرائع - السماوية منها والوضعية - والشعوب والقبائل والأمم.. فقامت الأمة والدولة، منذ فجر الإسلام وحتى الآن، على التنوع في إطار الوحدة، كما قامت النظرة الإسلامية للعالم على هذا الأساس.

* * *

ولأن الإسلام، وهو يتطلع إلى «المثال» لا يُغفل «الواقع» فلقد علّم أمته كيف تتعامل مع «الواقع» الذي يفرض عليها خلاف هذا «المثال».

فالإسلام يرفض «الصراع» ليحافظ على التنوع والتمايز والاختلاف.. وهو يقرر - ربما دون كل الفلسفات - أن القتال ليس القاعدة، وإنما هو الضرورة المفروضة والاستثناء المكروه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].. ومع ذلك، فهو يوجب على المسلمين النهوض والجهاد لصد العدوان على مقومات تميّزهم الديني، وعلى وعاء أمتهم وثقافتهم وحضارتهم - الوطن الذي يعيشون فيه - فإذا فرض الآخرون المواجهة على المسلمين، وإذا قاتلوهم في دينهم أو أخرجوهم من ديارهم وأوطانهم، أو ظاهروا على إخراجهم من الديار.. فهنا يتعامل المسلمون مع «واقع» المجابهة والمواجهة والصراع والعدوان والقتال، الذي يفرضه عليهم الآخرون، وفق التوجيه القرآني ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى

نصرهم لقدير ﴿٣٩﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴿٨﴾ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

* * *

بهذه الرؤية القرآنية، وهذه الفلسفة الإسلامية في رؤية العالم، وفي التعامل مع ما يُفرض على المسلمين من مواجهات وتحديات يجب أن يتعامل المسلمون - اليوم - مع التحديات التي يفرضها الغرب على الإسلام وأمته وثقافته وحضارته وعالمه، كما تعامل أسلافهم - تاريخيًا - مع نظائر وأشباه هذه المواجهات والتحديات.. لا طمعًا في إزالة هذا الغرب المعتدى من الوجود، أو طموحًا إلى الحلول محل حضارته وثقافته ومقومات نموذجه.. فهذا - علاوة على عدم إمكانه - هو مما يرفضه منطق الإسلام وفلسفته في التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، كسنة إلهية كونية دائمة ومطردة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وإنما الهدف هو رد العدوان عن مقومات الإسلام وعن ديار الإسلام، وصولا إلى تمكين الإسلام والمسلمين من العيش والتعايش الحر مع الآخرين، كل الآخرين ﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ [فصلت: ٣٤].

بهذا الموقف، المنطلق من هذه الفلسفة، تعامل المسلمون - تاريخيًا - مع التحديات التي فرضها الغرب على الشرق، فكسروا شوكة موجات العدوان التي قام بها الغزاة الغربيون على ديار الإسلام.

● فالغرب «الإغريقي» و«الروماني» قد فرض على الشرق احتلال الأرض ونهب الثروات وقهر الديانات والثقافات عشرة قرون ـ من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦ ـ ٣٢٣ق هـ ] في القرن الرابع قبل الميلاد، إلى «هرقل» (٦١٠ ـ ٦٤١م) في القرن السابع للميلاد ـ فكانت الفتوحات الإسلامية تحريراً لضمائر الشرقيين من هذه الفتنة في الدين، ومن القهر الثقافي والحضاري، وتحريراً للأوطان والثروات من هذا العدوان والاحتلال والنهب والاستغلال.

● ولأن هذا الغرب ـ كمشروع استعماري ـ طامع في الشرق وثرواته.. وفي احتواء ثقافات شعوبه وحضاراتها، لتأبيد الاحتلال والاستغلال.. فلقد اعتبر تحرير الإسلام للشرق من القهر «الروماني ـ البيزنطي» بداية «لمشكلة» هذا الغرب المزمنة مع الشرق الإسلامي ـ كما قال القائد والكاتب الإنجليزي الجنرال «جلوب باشا» (١٨٩٧ ـ ١٩٨٦م): «**إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد**»!! فلقد كانت عيون المطامع الاستعمارية الغربية موجهة دائماً وأبداً إلى محاولات استعادة الهيمنة الغربية على ديار الإسلام.. وإلى كسر شوكة المقاومة عند المسلمين، المتمثلة في الإسلام.

وعبر هذا التاريخ من التحديات تكسرت على أرض الشرق الإسلامي موجات وموجات من العدوان الغربي، حتى لقد تحول الشرق الإسلامي إلى مقبرة لموجات وإمبراطوريات الغزاة الغربيين.

● فالموجة الاستعمارية الصليبية ـ التي شاركت فيها كل أوروبا ـ بقيادة الكنيسة الكاثوليكية، وتمويل المدن التجارية الأوروبية، وسيوف فرسان الإقطاع الأوروبيين، والتي دامت قرنين من الزمان (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) قد انتهت بالهزيمة المنكرة، عندما اقتلعت الفروسية الشرقية ـ الأيوبية ـ المملوكية ـ قلاعها وهدمت حصونها، وأزالت كل آثارها.

● والموجة التترية، التي جاءت إلى الشرق الإسلامي، بدعوة من الصليبيين ـ الذين تحالفوا مع الوثنية التترية ضد الإسلام!ـ والتي عاثت فساداً و دماراً ضرب بهما المثل في التاريخ، وذلك عندما دمرت الثقافة وأسالت الدماء أنهاراً.. هذه الموجة التترية قد ذاقت الهزيمة في عين جالوت (٦٥٨هـ ١٢٦٠م) ثم انتهت

بدخول التتر إلى الإسلام، وتحولهم إلى سيوف للإسلام!

* * *

● ومنذ سقوط غرناطة، ونجاح الصليبية الأوروبية فى اقتلاع الإسلام وحضارته المشرقة من الأندلس (٨٩٧هـ ١٤٩٢م) بدأت مرحلة جديدة فى هذه الحرب «الاستعمارية ـ الصليبية» ضد الشرق والإسلام.

بدأت بالالتفاف حول العالم الإسلامى، واحتلال أطرافه الآسيوية.. ثم ثنت بغزو قلب العالم الإسلامى ـ الوطن العربى ـ منذ الحملة الفرنسية، التى قادها «بونابرت» (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) على مصر (١٢١٣ ـ ١٧٩٨م) وإبان هذه المرحلة، تميز التحدى الغربى الحديث عن الحقبة الصليبية الأولى بالغزو الفكرى المصاحب لاحتلال الأرض ونهب الثروة.. وهو تحد لم يكن موجوداً فى الحقبة الصليبية الأولى، التى قادتها كنيسة جاهلة، وفرسان إقطاع، صدق فيهم وصف الأمير الفارس الكاتب «أسامة بن منقذ» (٤٨٨ ـ ٥٨٤هـ ـ ١٠٩٥ ـ ١١٨٨م) عندما قال عنهم: «إنهم بهائم، ليس لديهم سوى فضيلة القتال»!!

ذلك أن الغزوة الغربية الحديثة قد جاءت مسلحة بأدوات النهضة الأوروبية الحديثة وإنجازاتها الفكرية ـ بالرأسمالية الإمبريالية.. وبالليبرالية الرأسمالية.. وبالثقافة العلمانية.. وبالفلسفة الوضعية والمادية اللادينية ـ فمثلت ـ مع احتلال الأرض ونهب الثروة ـ غواية التغريب للعقل والتبعية فى الثقافة.. بل وحتى التنصير فى الدين، ذلك الذى حاوله المنصرون.. مثلت الغزوة الغربية الحديثة كل ذلك فى ديار الإسلام!

وإبان هذه الموجة، الممتدة حتى صورتها المعاصرة: «عولمة» الإمبريالية الأمريكية المتحالفة مع العنصرية الصهيونية.. مثل الشرق الإسلامى مقبرة الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية ـ الإنجليزية.. والفرنسية ـ وأشباه الإمبراطوريات، مثل البلجيكية.. والبرتغالية.. والهولندية.. والإسبانية ـ قطوت المقاومة وحركات التحرر الوطنى الإسلامية صفحات هذا الاستعمار، وإن بقى التحدى التغريبى يقاوم اليقظة الإسلامية والمشروع الحضارى الإسلامى حتى هذه اللحظات.

● ومنذ نهاية الحرب الاستعمارية العالمية الثانية (١٣٦٤هـ ١٩٤٥م) بدأت حقبة

«الإسلام هي حربنا ضد الشيوعية. كما ستعلمت المسيحية والكنيسة في دت الحرب، بدأت مرحلة ورأت أمريكا أن الإسلام يحث الخطا في بلاد أمته، لا بتحرير الأرض والثروة فقط، كما هي حدود «الوطنية العلمانية» في بلادنا، وإنما تريد الحقيقة الإسلامية تحرير العقل المسلم من الغرب، وبعث الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية. بدأت أمريكا مرحلة «الحرب ضد الإسلام» كي يصل كما بدأته في مرحلة «استقلاله» محررا شعائر وعبادات ورسوم وطقوس ولد وشئت «شعوذات»، وذلك حتى تقف أثره مثل تصرفه في ظل العلمانية - عندما تمكنه بسماء، وخلاص روحي، وعالم غيب وما الآخرة، تارك عالم الشهادة ودنيا المسلمين وأوطانهم وثرواتهم لمهيمنة الأمريكية والصهيوني وعولمة شركات متعددة الجنسيات وعابرة القارات!

ولقد تحدث رئيس الأمريكي الأسبق «ريتشارد نيكسون» وهو يفكر استراتيجي - عن هذه النقطة الإسلامية، التي يقودنا - في عالم الإسلامي - من سماهم «الأصوليون الإسلاميون». حين كما يقول «هم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين ودولة، وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي فإنهم يتحدون منه هدية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»!

ودعا «نيكسون» إلى تحد الغرب الأمريكي والأوروبي والروسي - مواجهة هذا البعث الإسلامي، وإلى «تحديد الخيار الذي تختاره الشعوب المسلمة !! تكون «نموذج تركيا العلمانية المتحررة نحو الغرب، والساعية إلى ربط المسلمين بالغرب سياسيًا واقتصاديًا»، وذلك حفاظًا على مصالح الغرب في الشرق الأوسط «لأن أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل وإن التزامنا نحو إسرائيل عميق جدًا، فنحن ليست مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون بمعتقدات أكثر مما يعبيه الورق! نحن مرتبطون معهم ارتباطًا أخلاقيًا ولن يستطيع أي رئيس أمريكي أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل»!

وقد أفصح «نيكسون» عن موقف الأمريكي الذي تحد الإسلام والمسلمين

عدو، عندما قال «إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء. ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة - حتى بالنسبة للصين الشيوعية - في ذهن وضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي. ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والعرب منصادان. وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية مطرقة. وأنه مع التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون محاصر كبيرة. وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب. وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي!»

كل هذا الذي كتبه «نيكسون» يتطابع كل قطرة ١١ سبتمبر سنة ٢م بنحو خمسة عشر عامًا. بل وكل ما كتبه ستشرةً للمستقبل. ستقبل حرب الخليج. بعده الحرب ضد العراق - بعبة على الإسلام، بعد سقوط الشيوعية. والتي تصاعدت بعد ١١ سبتمبر سنة ٢م، واجتمعت فيها على الإسلام كل القوى العربية التي تحدث عنها «نيكسون» منذ ذلك التاريخ!

● وهذا الذي حصل به «نيكسون» قبل سقوط شيوعية، تنبأت به وعبت لأسبابه مجلة «شئون دولية» - التي تصدر في «كمبردج» بإنجلترا في يناير ٩٩ م - عقب سقوط الاتحاد السوفيتي مباشرة. عندما تحدثت عن «الأفكار الرائجة في الغرب حول الإسلام والعالم الإسلامي». وعندما عبت لإعلان الغرب أن الإسلام هو العدو الذي حل محل الصورة الشريرة لشيوعية. وتحدثت عن الاستعداد النفسي لهذا العداء وهذا الإعلان بالحرب على الإسلام. على «الخطر» الذي تشربه الغرب، ومن خلال دراسين غربيين رئيسيين، هما هنتنجتون في «الإسلام والمسيحية» كتابه الذي نشر «بدور موزنبرج»، وتأييدهما عن «الإسلام والماركسية» كتابه عنه الأشوع وهو «السد الحديدي». قلت المجلة «فقد شعر الكثيرون - في الغرب - بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل تهديد السوفييتي وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام حاضر في المتناول. فالإسلام من بين المنتجات الموجودة في الغرب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة. ليس

ليست سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توحيد فعلي وحقيقي للثقافة العربية، ذلك أن النظرية التي يعتنقها عصر الاجتماع، والتي تقول إن مجتمع تصاعي و بمعنى الحديث يتوصل الإيمان الديني - مقولة العلمنة - صراحة على عموم «تأثير السكولوجي للدين قد تناقص عمقاً في كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة لكن عالم الإسلام قد مثل شيئاً مدهشاً وتمرداً جداً من هذا، فهم تتم أي علمنة في عالم الإسلام إن سيطرة الإسلام على مواطنيه هي سيطرة قوية، وهي بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من ١٠٠ سنة مضت ان الإسلام مقاوم للعلمنة بوعي ما، والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحاً في ظل مختلف النظم السياسية وإن وجود تقليد محمي للإسلام قد مكن عالم الإسلامي من أن يفلت من معضلة تقليد العلمانية الغربية وإن عملية الإصلاح الديني استجابة لدواعي الحداثة يمكن أن تتم باسم الإيمان المحلي، وذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام لمرعوقة للعلمنة وإن أوروبيين كثيرين يتساءلون عما إذا كان يمكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني. هل فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وصعبة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض القبول بمبدأ المسيحي الغربي الذي تميز من خلاله وهو القيصر، وبما لا يسمح معتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للدولة بصورة يعول عليها في ديموقراطية علمانية؟»

هكذا حددت هذه الدراسة العلمية - لمحاولة الشؤون الدينية - أن سيطرة الإسلام على العلمنة، وعلى التحول إلى صورة من النصرانية الغربية، هي التي جعلت بما لله، وتركت ما لقيصر لقيصر - بعد سلسلة من الصراعات الدموية والمؤلمة! - حددت أن هذا الاستعصاء الإسلامي على النمطية الفكرية الغربية هو السبب في تحدي الغرب من الإسلام عدواً، بعد سقوط الشيوعية وهدفاً مباشراً للحملة الغربية الجديدة على الإسلام!

كم تمنيت كتب وأعلن وضع في تقصي على أرض الواقع ما توصلت إليه دراسة سنة ١٩٩٢م في ذكرى ٥٠٠ سنة على سقوط «غرناطة» آخر قلاع الإسلام في أوروبا سنة ١٤٩٢م.. أي قبل فزعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م بأكثر من عشر سنوات!

وهل ظهور «حركات لي بزعم بعض أنها إسلوية عن عداء بعرب «إسلام»!!

● و... كان مفكر الأمريكي «فرنسيس فوكوياما» قد كتب - قبل سبوات عديدة من قرعة ستمبر - عن النهاية لرأسمالية لاه يكنه [بتوحشه] دعت ... جهة لتربيح الإنساني»، و«نموذج الذي يجب تعميمه في كل ... حاء بعالم، ثم فيه بعالم الإسلامي، فإنه كتب بعد قرعة ستمبر عن «الحداثة التي تمثلها أمريكا والغرب، والتي ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية ... وعن مبادئ الغرب التي ستستمر في الانتشار عبر العالم»!

وكتب عن بعضهم الإسلام وحده على خضوع بهذه الحداثة الأمريكية، وتجاوز بهذه المبادئ الغربية «التي تلقى قبولاً كبيراً لدى الكثيرين من شعوب العالم غير الغربية، بل لم تقل حميعها ... سمة الإسلام هو الحضارة ... حيدة في العالم التي يمكن أن تحدى تلك لديها بعض مشاكل الأساسية مع الحداثة الغربية فالعالم الإسلامي لا يرفض فقط السياسات الغربية، وإنما يرفض المبدأ الأكثر أساسية للحداثة الغربية وهو العلمانية نفسها ... إن الصراع الحالي ليس معركة ضد الإرهاب وليكنه ضد الأصولية الإسلامية التي تقف ضد الحداثة الغربية وهذا التحدي - بالنسبة لأمريكا - هو أكثر أساسية من أي تحد لدى شكلته الشيوعية -[11]- ... إن التصور الأهم يجب أن يأتي من داخل الإسلام نفسه، وعلى المجتمع الإسلامي أن يصل إلى وضع سلمي مع الحداثة. وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي حول الدولة العلمانية»!!

فعلمنة الإسلام، وهي ... جوهر الإسلام ... الغربية، لأجل ... الإسلامي بالغرب هو الهدف الأمني ... في كتاب «فوكوياما» قبل سقوط الشيوعية ... وفي دراسة محدثة «الشرق دولة» في سقوط الشيوعية ... في كتاب «فوكوياما» قبل قرعة ستمبر وبعدها.

● و... كتاب لأستاذ يهودي أمريكي «صموئيل ... هنتجتون» قد كتب عن سقوط الشيوعية، فكشف عن ... واقع محاولة الغرب اقتحام الحضارة الإسلامية وصرع ثقافتها. وأشار على صانع القرار الأمريكي أن يبدأ فيقبل صدام الحضارات بالحرب على الإسلام، لتغيير ثقافة الإسلام من ثقافة الغرب.

ودعا بي ما دعا إليه «بكسوت» من تحدث كل مفكر غرب في هذه الحرب الحضارية، لتكريس أهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية الغربية على العالم فقد عقد وكتب «هنتجتون» بعد قراءة سبتمبر سنة ٢٠٠١م دعا بي «الحرب ضد الإسلام حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية والعلمانية الغربية والمسيحي: فصل الدين عن الدولة»[٣]!!

تلك هي حقيقته نفسه وهذا هو سبب تحدي وجوهر موقفه الذي فرضه الغرب ويفرضه على الإسلام ورفضه وعدم وثوقه وحذره ومقاومته فمنذ عصر هذه التي تتبع بعضهم من تصريح، بدي كتبه الغرب عن الإسلام وأمته. وفرضه علينا ونحن له كارهون

وكما قال المسلمون، مثلاً لأمر ربهم، عندما كتب عليهم القتال وهم يكرهون فقد وجب الدفاع عن الإسلام، الذي اتخذه الغرب عدواً، لا لشيء إلا لاستعصائه على العلمنة التي يريدون فرضها على المسلمين، تكريس لتبعية للحضارة الغربية.

لقد علمنا رسولنا ﷺ، قيمة موقف ... عش هذه التحديات التي تفرضها علينا الأعداء، الذين يرون في «الصراع» سر بقائهم بل ويرون أن الأقوى هو الأصلح، الذي يستحق وحده البقاء! علمنا رسولنا ﷺ، قيمة موقف ... هذه الوجهات، عندما قال لأمته «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، لكن إذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله» رواه البخاري.

لقد فرضت علينا التحديات والوجهات، فلا بد من ثبات في مواجهة هذه التحديات ولا بد عليه يفرضها علينا الإسلام من أكثر من ذكر الله، أي إخلاص وعبودية لله، ومن ثم فرض جميع طوعيات في فرض علينا التحديات، ونفس حرب على الإسلام، والمتمثل في تغير طبيعة الإسلام

* * *

وذلك لأنه هو الذي يقف للانتصار في هذه المواجهة، على هذه التحديات «فمهما» تفرضه لأمة لتحقيق أهدافها، وعلى اختلاف أنواع هذه المواجهة بين العرب والإسلام

فقه سن هذه مواجهة هو نوعي ـدى يسر الأمة لتمسك و ـروب، وهي تخوض هذه المواجهات التي فرضها عليها الأعداء

وتشد عنصر سنون الله ﷺ منه البحصة الأولى التي دعا فيها قومه إلى الإسلام «أن الرائد لا يكذب أهله» وبكلمة أخرى هو مفكر ـي الأمة، هي مكانة الرواد والقادة المرموقين على العبور الإسلام، سيرون الأمة ثروات احتهاد، ـفكر ـدى هو من أمضى الأسلحة في بعث الصحوة وحشد الإمكانات ـمعركة التي فرضها عليه الأعداء هي ـمعركة الأولى معركة «الإرادة» في الصمود والانتصار وهذه «الإرادة» تكون «الإدارة» في بيت البيت وتعظيم الإمكانات.

ونحن قادرون هذه الاستعداد بتصميم الإرادة نوعية والإدارة في تعظيم الإمكانات في الموقف الذي يجعل الأعداء يراجعون مواقفهم ويعيدون من الإسلام فيستحسنون في الكلمة السواء أن تكون على «المنتدى» حضارات وثقافات وأمم وشعوب ولغات وقوميات وأجناس وألوان، تتعايش وتتعارف وتتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

والله نسأل أن يجعل من فصول وصفحات هذا الكتاب سهما نافعا في هذه التحديات التي فرضها الغرب على الإسلام إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب

* * *

**● الهوامش**

(١) د. جابر قميحة «سيد قطب والإسلام الأمريكاني» صحيفة «آفاق عربية» في ٢٧ ـ ١٣ ـ ٢٠٠١م وهو ينقل عن مجلة «الرسالة» سنة ١٩٥١، سنة ١٩٥٢م التي نشر فيها سيد قطب أجزاء من مخطوطة كتابه

(٢) بيكسون (الفرصة السانحة) ص٢٨، ١٤، ٤١، ١٥٢، ١٥٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩ ترجمة أحمد صدقي مراد طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢

(٣) انظر دراسات «فوكوياما» و «هنتون» في العدد الصيفي من «السوربون» الأمريكية الصادر سنة ١٩٩٣م في نيويورك سنة ١٩٩٣م

* * *

# فى فقه الاستعمار الاستيطانى

الفقه، فى معناه الأولى والأعم والأدق، هو: الفهم والوعى.

ولأن الإسلام دين الجماعة، ولأن شريعته - التى هى مرجعية الفقه الإسلامى - هى دين ودنيا، كان الفقه الإسلامى أكثر من وعى بالأحكام، أكثر من فهم للنصوص والمأثورات [illegible]، إذ لا بد فيه، مع فقه «الأحكام»، من فقه «الواقع» الذى تنزل عليه هذه الأحكام، ومن الوعى بمصالح الجماعة والأمة، ومن عقد القران بين فقه الأحكام وفقه الواقع، أى تنزيل الحكم على الواقع، [illegible] للمصالح الشرعية المعتبرة لأمة الإسلام وجماعة المسلمين.

[illegible] الإسلامى فى النظر [illegible] الفقه الإسلامى [illegible] النصوص والمأثورات [illegible] المصالح الشرعية المعتبرة لجماعة المسلمين.

[illegible] الفقه [illegible] الأحكام» لا دراية لهم بفقه الواقع الذى يعيشون فيه، و«خبراء بالواقع» لا دراية لهم [illegible] التى أنزلها الله بتدبير وحكم حركة الواقع الذى يعيش فيه المسلمون [illegible] الخلاق بين «فقه الواقع» و«فقه الأحكام» هو السبيل إلى [illegible] الإسلامية من هذا الفصام النكد الذى يشكو منه الكثيرون.

بل لا نغالى إذا قلنا إن منهج النظر الإسلامى [illegible] يدعونا إلى البدء بفقه الواقع حتى نبحث مشكلاته عن الأحكام والحلول الملائمة فى فقه النصوص والمأثورات، فالشريعة الإسلامية، ومطلق الدين [illegible] هداية إلهية لتحقيق المصالح الشرعية [illegible] فى المعاش والمعاد [illegible] الواقع [illegible] مصالح جماعة المسلمين هو [illegible] والانطلاق [illegible] الأحكام هو [illegible]

ضبط المصالح بضابط «الاعتبار الشرعي»، وذلك تمييزاً لهذه المصالح عن «المنفعة الدنيوية الصرفة»، المنفلتة من ضوابط الدين.

* * *

وإذا نحن طبقنا هذا المنهاج في النظر الفقهي على القضية الفلسطينية وصراع الأمة العربية الإسلامية مع الصهيونية والإمبريالية حول القدس وفلسطين، [illegible] الفتاوى والاجتهادات والسياسات المتعلقة بهذه القضية [illegible] بفقه واقع القضية الفلسطينية [illegible] حتى نبحث مشكلات هذا الواقع عن [illegible] على علامات الاستفهام، وعن الأحكام الشرعية المحققة لمصالح الأمة في قضايا هذا الصراع..

وبفقه هذا الواقع، [illegible] التاريخية - الصلبة والعنيدة، والمستعصية على الخلاف والاختلاف [illegible] في فقه [illegible] على [illegible]

● [illegible] لا وجود «حق يهودي تاريخي» في أرض فلسطين على وجه القطع والإطلاق

فعرب فلسطين [illegible] هم [illegible] الشرية التي وعى التاريخ سكناهم لأرض فلسطين، [illegible] هؤلاء [illegible] عربي خالص؛ لأنهم جزء من الهجرات العربية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية إلى أرض فلسطين، التي سميت لذلك، في فجر تاريخها [illegible] كنعان»

ولقد وعت ذاكرة التاريخ هذه الحقيقة [illegible] ٤٥ عاماً من [illegible] الصراع العربي الصهيوني، ومن دعاوى الحق التاريخي لليهود في فلسطين [illegible] ذاكرة التاريخ [illegible] «اليبوسيين» [illegible] فلسطين [illegible] هم الأخرون [illegible] الوجود الهامشي لليهود العبرانيين على مقربة من القدس!

● وإذا كان اليهود هم أتباع الشريعة اليهودية، التي جاء بها موسى، عليه

لسلام، فإن موسى قد وُلد ونشأ وبعث ومات ودفن في مصر، ولم يقم بين يهودية هذه وبين فلسطين، في ذلك التاريخ، أي علاقة. فلا توجد قبور لموسى بيت المقدس و فلسطين. كما هي علاقة الإسلام و بقرن بالحجر مثلاً. وكما هي علاقة المسيحية و لإنجيل بفلسطين. وقد ربطت قبور موسى لمصر، وبعض المؤرخين الوهابية!

وقد رفض أتباع موسى اليهود دعوته بدخول الأرض المقدسة - أرض كنعان - فعاشوا ومانوا في سيناء، مصر. دون أن يكتحل عين أي منهم برؤية بيت المقدس وفلسطين.

● أما علاقة يهودية بعض أرض فلسطين، فهي علاقة طارئة وموقتة، بدأت في عصر "نبوشدنصر"، الذي غزا بعض أرض فلسطين، بعد ١٥ عاماً من تاريخ تعرّي مملكة فلسطين بغربية لكعبة، أي عام سنة ٥٨٦ ق م، ولم يدم هذا الوجود اليهودي بأرض فلسطين - والذي لم يكن وحدة متماسكة ومتشردة - سوى نحو أربعة قرون - أي نصف عمر الوجود العربي في بلاد الشام. وقد شارك في إقامة واستئصال هذا الوجود اليهودي على أرض فلسطين كل من الآشوريين و بفرس و بقراعنة و لاغريق و لرومان، بينما ظل الوجود العربي في فلسطين هو الراسخ والدائم منذ فجر التاريخ حتى هذه اللحظات.

هذا عن التاريخ القديم. وما يرتبط به حتوق مع قرص حق و بيع حرية وحدود لأرض المقدسة، فإن ذلك التاريخ القديم وهذا الواقع الحديث لأرض فلسطين بإمبراطورية رومية الأكبر (١٢٩ ـ ١٣٢٤ق م) وعاصمتها بيزنطة مملكة قسطنطين (٥٢٩ ـ ٥٢١ق م) وطالب مقدونيا بإسكندر صورته لإسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ق.م) ولتحول العالم إلى صورة عشرة من بيت بطنير

● ثم في العصر الحديث، فقد كان علاقة مشروع "يهودي" - بصهيوني بأرض فلسطين كثمرة للغزوة الاستعمارية الأوروبية الحديثة، التي بدأت بحملة نابليون بونابرت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١ م) الفرنسية على مصر (١٢١٣هـ ١٧٩٨م)، حين

الثامن عشر ميلادي. فبقا أعلن بونابرت - وهو في طريقه من "مرسى" إلى "الإسكندرية" - عزمه على غزو عشرين أمة من أمم الأقاليم الجنوبية في الشرق العربي الإسلامي، ليكون موضع أقدامه الاستعماريه، وثغرات اختراق جوف العروبة وعالم الإسلام، وفي إطار هذا المخطط، استعد بونابرت» لاستصدار «بونابرت» نداءه إلى يهود العالم - الذين يحتشد كثير من ٨ ملايين منهم في شمال أفريقيا «اليهود الخزر»، الذين تهودوا في منتصف القرن الثامن الميلادي، ولا علاقة لهم باليهود العبرانيين، ولا بني إسرائيل - أصدر «بونابرت» نداءه إلى هؤلاء اليهود - الذين نشأوا في حي اليهود - والذين لا علاقة لهم بفلسطين - ضمن مهام تقديم دور نشيط لأجهزة في مشروعه الإمبريالي. لإقامة الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، التي كان يحلم أن تعيد سيرة الإمبراطورية الإغريقية الاستعماريه التي سادت «الإسكندر الأكبر» في القرن الرابع قبل الميلاد، والتي قهرت الحضارات الشرقية عشرة قرون، حتى أزالتها الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي.

وقد ورد في "البونابرت" في هذا النداء الذي أصدره بعد احتلاله مدينة "عكا" سنة ١٧٩٩م - مخاطبا الجماعات اليهودية:

"أيها الشعب الغريب! إن فرنسا تقدم لكم يدها لأن الحكومة التي سوف يرأس جيشها الذي أرسلني بحماية لإنهاء قد حرر بعد مقر تقيدكم، وخلال بضعة أيام ستتقل إلى دمشق التي ستتبنت صولاً عديمة الوجود، فلو؟ وورثة فيصل شرعيين؟ إن الأمة الفرنسية تدعوكم إلى ركبكم، بتصميمها وتأييدها ضد كل الدخلاء"!!

وقد كانت الساحة على وجه التحديد - هي الساحة التي تقاطعت فيها الجماعات اليهودية مع المشروع الإمبريالي الغربي ضد استقلال الأمة الإسلامية وتحررها وتقدمها.

● وعندما ترجمت زيادة الاستعمار الفرنسي في هذا المشروع الإمبريالي الغربي، وتسمت الإمبراطورية البريطانية قيادة هذا المشروع، تحول ولاء الجماعات اليهودية إلى الاستعمار الإنجليزي، الذي أصبح المشروع الشركة هذه الجماعات

بجيشه، في العقد الرابع من القرن التاسع عشر الميلادي، إلى فتح بلاد الشام من الدولة العثمانية. وقد شجع اليهود المهاجرة إلى فلسطين لإقامة كيان قوي تحت حكم محمد علي باشا (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ/ ١٧٧١ ـ ١٨٤٩م) الذي سعى إلى تجديد شباب الشرق العربي الإسلامي، بتحديثه وإخضاعه في قلب الإمبراطورية العثمانية للأطماع الأوروبية، الذي كان يحرس أمراض «دولة رجل المرض» ـ الخلافة ـ حتى يحين حين اقتسام تركتها الاستعمارية على يد الدول الأوروبية المتصارعة ولأجل ذلك كتب اللورد بالمرستون (١٧٨٤ ـ ١٨٦٥م) وزير الخارجية البريطاني في رسالة له سنة ١٨٤٠م إلى السفير البريطاني في القسطنطينية يقول: «إن تكوين حجر عثرة أمام محمد علي باشا وتوريده ولأعقابه من بعده هو الذي تحتاج إليه ونحن من بعده»[1].

فالهدف الأساسي من وراء زرع هذا الكيان اليهودي الغريب في أرض فلسطين هو أن يكون بمثابة خنجر استعماري غربي في هذا الشرق، فهو كيان يهودي، يمثل قاعدة استعمارية غربية، وليس مجرد تجمع لأفراد يهود في قلب الشرق العربي والإسلامي، للحيلولة دون أمنه ودون الوحدة والحرية والنهوض.

● ولذلك فإن الذي يرفع هو شعار فلسطين في إقامة حجة على بعض مشروعية العلاقة بين اليهود ومن فلسطين في العصر الحديث، كما كان الحال هو الوضع في الوضع القديم فكلمة «شعب» في شعار «أرض لا شعب» لا تشير إلى شعب فلسطين الحالي، بل إلى اليهود في أرض فلسطين. والذي يفصح عن أن علاقة اليهود الحالية بأرض فلسطين هي علاقة استعمار استيطاني، هو أن هذا الشعار هو من إنتاج الحركة الصهيونية، بل الاستعمار الإنجليزي والاستعمار الأمريكي.

■ ففي سنة ١٨٥٢م لم يكن الوجود اليهودي بفلسطين يتعدى ١٣,٠٠٠ نسمة، أي نسبة ٤٪ من سكان فلسطين.

■ وعند قيام حرب تحريرية لأول مرة سنة ١٩٤٩م كان عدد اليهود في فلسطين قد بلغ ٦٠٠,٠٠٠ نسمة، يحمل منهم الجنسية العثمانية ٣٩,٠٠٠ نسمة فقط، والباقون إما زوار أو حجاج أو متسللون غير شرعيين، وذلك حيث هذا الوجود بفعل الهيمنة الإنجليزية على السياسة العثمانية، وبسبب ضعف وتخلف

أصبح الإدراء العثمانية، بالرغم من وعي السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٣٣٦هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨م) بخطر الهجرة اليهودية على فلسطين

وفي مقابل هذا الوجود الهامشي لليهود في فلسطين سنة ١٩١٤م كان تعداد الفلسطينيين في ذلك الوطن يومئذ ٦٨٣,٠٠٠ نسمة، منهم ٦٠٢,٠٠٠ نسمة من المسلمين و٨١,٠٠٠ نسمة من العرب المسيحيين.

■ فلما أعطت بريطانيا التي لا تملك - لليهود بتصريحها الذي لا يستطيعون - "وعد بلفور" في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م وحسب جيرانهم فلسطين سنة ١٩١٨م وسائر بلاستعمار هذا الحق سلم "لانتداب" وهو "تفويض دولي" في أبريل سنة ١٩٢٠م وأعطت "عصبة الأمم" هذا "الانتداب" "وعد بلفور" "شرعية دولية" في سنة ١٩٢٢م ففتحت بريطانيا فلسطين للاستعمار الاستيطاني الصهيوني وللهجرة اليهودية وبدأ الاستعمار "الكبير" في تعداد اليهود في فلسطين من ٥٥,٠٠٠ نسمة سنة ١٩١٨م إلى ٦٤٦,٠٠٠ نسمة في سنة ١٩٤٨م أي من ٨ من إجمالي سكان فلسطين إلى ٣ من كل ١٠ وبعد أن كانت ملكية اليهود للأرض في فلسطين لا تتجاوز ٢٪ - وحسب تقرير دولي - بلغت في سنة ١٩٤٨م ٦,٧٪ أي ١,٨٠٠,٠٠٠ دونم من أرض فلسطين

■ ومع كل هذا الذي صنعه الاستعمار الإنجليزي لليهود، سكانا وملكية الأرض، فإن ثلاثين عاما من حكم الاستعمار في فلسطين ٩٢٨ - ١٩٤٨م لم تستطع وجود يهودي في فلسطين هامشيا أقل - حتى سنة ١٩٤٨م - من ٣٠,٩٣ من سكان فلسطين عربا، ٣٠,٩٣ من [illegible]

■ كل هذا التقسيم لفلسطين، الذي صدرته جمعية الأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧م لم يعط لليهود الذين كانوا يمتلكون ٦٪ من أرض فلسطين!! وفرر تقسيم - الذين كانوا يمتلكون يومئذ ٩٣,٣٪ من أرض فلسطين - دولة لليهود على ٥٤٪ من أرض فلسطين!! وعلى هذا التقسيم أعطيت مدينة القدس - ١٪ من مساحة فلسطين - من هذا التقسيم

■ ولم تكتف الصهيونية ـ التي ضمنت لها أمريكا التفوق الحربي والحماية في المنظمات الدولية ـ لم تكتف بهذا «السخاء» الذي جاءها من «الشرعية الدولية» فقامت ـ بالحرب، وبخرق الهدنة ـ بمساحات جديدة من الأرض و بشرى والمدن فلسطينية، حتى بلغت ما تحت يديها من ٤٥ من مساحة فلسطين ٧٧ من مساحتها. وفي سبتمبر ذلك تكتب عصاباتها مساحة ٣٤ مخربة، وهدمت وأزالت ٤٧٨ قرية فلسطينية، محتها من الوجود، وسعت بالإعلام و عكر على محوها من ذاكرة التاريخ!

■ و زعم أن العرب داخل حدود الكيان الصهيوني ـ الذي قام سنة ١٩٤٨م ـ يعيشون حمس سكان ـ مليون من خمسة ملايين فقط حرفهم صهيونية من أرضهم، حتى صبح خُمس سكان هؤلاء لا يمتلكون سوى ٣ من الأرض، بينما يمتلك اليهود ٩٧٪ من الأرض التي احتلت سنة ١٩٤٨م!!

■ أما القدس، التي ظلت عربية ثم إسلامية منذ تأسيسها على يد العرب منذ أكثر من أربعة آلاف سنة ـ إلى أن ثلاثة آلاف عام من الوجود العربي العمراني و مؤكد على مشاهد ـ وإلى يوم يكون فيه من اليهود في العصر الحديث سوى عدد ضئيل من العملاء ـ ثم بعد هزيمتهم في القدس في سنة ١٩٤٨م ١٨ من مساحتها فقط بسكانها اليهود وحدها بعد سنة ١٩٦٧م ـ على ٨٦ من مساحتها، وقرروا وجود سكاني يهودي فيها إلى ٤٥ سنة ٢٠٠٠ في مقابل ٢٠٠,٠٠٠ نسمة من العرب يعيشون تحت الحصار! وامتدت مصادرات الصهيونية إلى أحياء شرقية، مثل أحياء «الشيخ جراح» و«سلوان» و بقعة تُعرف تحت اسم «حدائق الملك»، بعد وجوده. وذلك غير ما صودر من الأرض الفلسطينية حول القدس، وفي محاولة إلى حزام من المستعمرات التي صممت في «القدس الكبرى» التي عزلت القدس وبين بقية الضفة الغربية التي جعلت سنة ١٩٦٧م. وفوق ذلك، تشكلت منظمات الإرهاب الصهيونية ٢٥ منظمة ـ التي تعمل ـ بالدعم والإمكانات اليهودية والأمريكية لهدم الحرم القدسي، وإقامة «الهيكل» المزعوم على أنقاضه!!

● وعد المشهد المأساوي توقيع هذا الاستعمار الاستيطاني الصهيوني - الإمبريالي» على أرض فلسطين على نحو أدى تجسيده هذه الأرقام

● فاليهود الذين كان تعدادهم في فلسطين سنة ١٨٥٢م ١٣ نسمة أصبح تعدادهم في فلسطين يوم «ربعة ملايين» وعندما كانوا لا يملكون غير أرض فلسطين سنة ١٩١٨م سوى ٢ أصبحوا يملكون ويسيطرون الآن على كل أرض فلسطين!!

ولقد أدى هذا الاستعمار الاستيطاني، والإحلال والاحتلال اليهودي لأرض فلسطين إلى طرد وتهجير ستة ملايين فلسطيني. منهم خمسة ملايين طرد أغلبهم سنة ٩٤٨ م وملايين طردوا منها فيما بعد سنة ١٩٤٨م يعيشون حتى في مخافي ومخيمات ومستنقعات، على تصدقات ويكونون أكثر كتلة من اللاجئين وأقدم مأساة للاجئين على الطلق بعدي! وأكثر صخبة لأشنع وأحر تدمير الاستعمار الاستيطاني عبر تاريخ هذا القرن من قبل الاستعمار والاحتلال والإحلال والاحتلال ما لأربعة ملايين يهودي لديهم حتى محل هذه الملايين العربية الفلسطينية، في ٩٦ منهم قد جيء بأغلبهم وأحفادهم من مختلف بلاد العالم، ليغتصبوا الأرض والمنازل والبساتين والأمن والماء والهواء على أرض فلسطين

● إذن فكل اليهود على أرض فلسطين «مغتصبون ومغتصبون ومحاربون» حتى ولو لم يلبسوا «الكاكي» أو يدخلوا «الجيش»، أو يحملوا «سلاح» فالتعبير هنا، والقسمة في هذا المقام هي بين «المحاربين» و«المسالمين» وليست بين «عسكري» و«مدني» فالمستوطنون المغتصبون للأرض والمنازل والديار والأمن والماء والهواء هم «محاربون» رجالاً كانوا أم نساء، وبصرف النظر عن الدور الذي يرتديه هؤلاء المغتصبون، وعلى تنوع السلاح الذي «يحاربون» به طائرات أو دبابات أو مدافع كان هذا السلاح، أم حراثات ومحاريث وأفكارا فجميعها أسلحة فتاكة، يدعم بعضها البعض الآخر. وتتكامل جميعاً في الاغتصاب والاستعمار الاستيطاني لأرض فلسطين

● كما أن قدم تاريخ شرعية واعتراف في الاستعمار الاستيطاني لا تجعل شرعيته ولا مشروعيته ولا حقوقه مفروضة بالتقادم. ولا خلاف في أن للشعب حقوقاً مشروعة في أرض «السنة» و«الفيدة» بعد أن استولى المستعمرون على ساحل الأطلسي بالمغرب وهم محتلون واستعمروا بعض مدنه منذ سنة ١٤١٥م وسنة ١٤٩٧م ـ أي قبل بعثة فرو ونصف القرن من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لأرض فلسطين.

● وقد كان لزنوج جنوب أفريقيا قد رفضوا الاستعمار الاستيطاني الأوروبي بالأمس، وبدأ ذلك بإقامة «شركة الهند الشرقية الهولندية» سنة ١٦٥٢م. وظلوا يحاربون فترة بعد فترة حتى تم لهم الاستعمار الاستيطاني في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، وبالتالي دون أن يظهر هؤلاء الزنوج من «بعثي» بأن المستعمرين البيض جاءوا إلى جنوب أفريقيا، أو أن هؤلاء المستعمرين هم «العبيون البيض» و«المحررون»؛ لأنهم لا يستحقون «الكي» ولا يحتاجون إلى «حرب تحريرية»!! فغير معقول ولا مقبول أن يظهر بين أمة الإسلام، التي جعل رسولها ﷺ جهاد الدفع سناماً للإسلام، وجعل رهبانية هذه الأمة هي الجهاد، وجعل هذا الجهاد ماضياً إلى يوم القيامة؛ فرض عين على كل مسلم ومسلمة إذا حل العدو الشرير في أرض المسلمين ـ وفلسطين جزء منها تبلغ مساحتها ٢٧,٠٩ من الكيلو مترات المربعة! ـ وهي ليست مجرد «أرض»، وإنما هي «أرض مقدسة».

غير معقول ولا مقبول أن يقف في وجه الإسلام من «يسمى» بأنه مفروض لاستعمار الاستيطاني حتى في أي جزء وشبر حرام، وأرض من بلاد الله فيها عباد يعبدون الله وفق شرع رسول خاتم ﷺ ومعرضة إلى الهجوم عليها.

فالإسلام ـ الذي يستحق صحابة جيل واحد منهم بيع عن رسول الله ﷺ ـ لابد أن يتقبله الوضع الواقع لاستعمار الاستيطاني القائم على اغتصاب أرض الهند وفلسطين وبالتالي الذي خلقت له الشركة «الأمريكية الصهيونية» على اغتصاب الشرق والغرب والأرض والأمن والهواء من أصحابها الشرعيين فلا جريمة لنص معتصب

وإذا كانت «اتفاقات جنيف» التي أقرتها الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩م قد جعلت إقامة المحتل للمستوطنات على الأرض المحتلة، وتغيير طبيعة هذه الأرض المحتلة «جريمة حرب ضد الإنسانية»، فإن الكيان الصهيوني بكامله هو «جريمة حرب كبرى ضد الإنسانية»؛ لأنه ليس أكثر من استعمار استيطاني، منذ أول مستعمرة أقامها الصهاينة على أرض فلسطين إلى أحدث المستعمرات التي أقاموها هنا.

* * *

# انتفاضة أرض الإسراء والمعراج

مع ذكرى بدء سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ من المسجد الحرام - حرم مكي - إلى المسجد الأقصى - حرم قدسي - بدأ انتفاضة الأقصى عامها الثالث، ليبرهن هذا العدو على معنى عميق يجسد لأمتنا حقيقة أن تحرير الأقصى والقدس وفلسطين، واستقلالها الناجز والكامل، وتطهيرها من دنس الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الإمبريالي، هي هو عقيدة دينية إسلامية - كما هو شرط من شروط وحدة أرض الأمة العربية وتحقيق القومية العربية - وهو أيضاً الانتصار للقضية الفلسطينية.

كما تمثل هذه الذكرى، بالنسبة للعقول والقلوب والأقلام المرتبطة على شعور الإسلام وأمته وعقيدته، فرصة ومناسبة لتذكير بعض الحقائق التي تثبّت قلوب المجاهدين وأقدامهم، وتشد من عزائمهم.. والتي تفتح الباب أمام المهزومين نفسياً، الذين يخافون أمريكا أكثر مما يخافون الله، كي يرجعوا أنفسهم، في ضوء هذه الحقائق التي تقدمها هذه السطور.

● وأولى هذه الحقائق أن انتصار الشعب الفلسطيني حتى لو وقف وحده، وتخلى عنه المهزومون نفسياً - هو سنة من سنن الله في تدافع الحق والباطل، وحقيقة موضوعة بعين عناية الآية الكريمة، التي هي قانون من قوانين التدافع والصراع ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [محمد ٧]؛ فكل تاريخ هذا الشعب كان سلسلة من الانتفاضات والهبات والثورات - ولم يحدث أن انكسرت إرادة هذا الشعب أمام قوى البغي الصهيوني وبعدوان الاستعماري في يوم من الأيام.

فقد بدأ الفلسطينيون عقد المؤتمرات وتنظيم الجمعيات لتتصدى للمشروع

الصهيوني، الذي رعته الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية، والإمبريالية العربية، منذ سنة ١٩١٩م.. أي عقب الاحتلال البريطاني لأرض فلسطين.

● وفي ٢ أبريل سنة ١٩٢٠م ثار عرب القدس الشريف ضد الاستيطان اليهودي في مدينة القدس وتدخل الجيش الاستعماري البريطاني فتجمع وفي ثورات للعرب المقدسيين ثم تكررت وتجددت الانتفاضات العنيفة ضد الصهيونية في سنة ١٩٢١م

● وفي أغسطس سنة ١٩٢٩م تفجرت في القدس وفلسطين «ثورة البراق» دفاعاً عن جزء عزيز ومقدس من أجزاء الحرم القدسي، الذي أراد اليهود اغتصابه، وتجاوزه بعد أن أسموه «حائط المبكى» ولم تهدأ توابع «ثورة البراق» هذه إلا بعد أن حكمت محكمة دولية، في التقرير الذي رفعته إلى «عصبة الأمم»، بأن هذا الحائط هو جزء لا يتجزأ من الحرم القدسي الشريف، وأنه وقف من الأوقاف الإسلامية التاريخية في مدينة مقدسة وذلك في ديسمبر سنة ١٩٣٠م

● ثم كانت ثورة المسلحة التي قادها الشيخ المجاهد عز الدين القسام [١٢٩٩ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٨٢ ـ ١٩٣٥م] الذي ولد «بقصبة» اللاذقية في سوريا ودرس وتخرج في الأزهر الشريف ـ بمصر ـ واستقر في «حيفا» ـ بفلسطين ـ بعد مشاركته في الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي سنة ١٩٢٥م وهناك ـ في حيفا ـ شغل بالتعليم في المدارس الإسلامية، وأسس «جمعية الشبان المسلمين» الذي يدعو إلى الجهاد ضد الصهيونية والاستعمار.

ولقد مهد الشيخ عز الدين القسام لثورته هذه، بإقامة تنظيم سري، ضم دوائر خمسة للدعوة والتدريب العسكري والتموين والاستخبارات والعلاقات الخارجية ثم فجر القسام ثورته المسلحة هذه في ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٥م بمنطقة «جنين»، فكانت أولى خطوات الجهاد المسلح، كطريق وحيد لتحرير فلسطين من الصهيونية والاستعمار وظل هذا الشيخ المجاهد الذي رفع لهذا الطريق منذ ذلك التاريخ وحتى هذه اللحظات

● وعقب استشهاد الشيخ عز الدين القسام، وعدد من رفاقه، بدأ الجيش الاحتلال البريطاني، يدب لمقاومة فلسطينية سنة ١٩٣٦م تأخذ شكل تمرد

و لاضطراب على مدى ثلاث سنوات ... و قد فلسطين ... مقاومة مسلحة صهيونية و لاستعمارية ... وستمر ذلك الإضراب شهراً حتى حيفه ... و بؤسه ... عرب سنة ١٩٣٩م حسب تحليل ... التي قامت بها منظمة سرية، كي تفرج بحرب عصابات ... التي شنت في ذلك العام كما تسعى أمريكا اليوم في قمع مقاومة الأقصى التي تشرع هي وسائل بطولية ... المقاومة في وطن العروبة وعالم الإسلام!.

● ثم كانت مقاومة فلسطينية مسلحة ... التي سادتها كذلك الفدائية العربية من مصر وسوريا ... عندما قرر تقسيم فلسطين في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٤٧م ... وهي المقاومة التي بدأت قبل دخول جيوش الدول العربية إلى فلسطين في مايو سنة ١٩٤٨م، والتي استمرت حتى أجهضتها الخيانات التي حدثت والهدنات التي فرضت منذ سنة ١٩٤٩م

● وقد استمر الرفض والمقاومة والمقاطعة سلاحاً بيد الشعب الفلسطيني، على الرغم من جهاده ضد الصهيونية والاستعمار ... وعلى الرغم من لاءاته التي شاءوها عرباً فلسطينيين قد يدعو رضاهم لليهود ... فقد خلال الانجليز فلسطين سنة ١٩٤٨م لم تكن ملكية اليهود في أرضها تتعدى ٢ ... وقد ارتفعت هذه النسبة سنة ١٩٤٨ إلى ٦,٧ ... حيث استولى الفلسطينيون أرضهم لليهود، وهي الأرض الأميرية التي تمكن الإنجليز منها بوكالة لليهودية والاستيطان الصهيوني ... ثم جاء قرار التقسيم ليرفع الـ ٦٪ إلى ٥٤٪ من أرض فلسطين... وسيرتفع بعد ذلك بنقض الهدنة... وبعدوان الصهيوني ـ حتى ابتلاع كل فلسطين!

● وهي الأولى من يناير سنة ١٩٦٧م بدأت حركة "فتح" خطها جديداً في سلسلة المقاومة المسلحة ضد الصهيونية على أرض فلسطين... واتسعت هذه الكفاح المسلح فشملت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية ... فيما حدث ويحدث لأجزاء قطاع من هؤلاء الثوار ... ست أراضي فلسطينية بعد، من احتلال عام ١٩٦٧م، حيل "أطفال الحجارة" بدل أدوات السلاح لانتفاضة" قد تسوق في تاريخ حركات التحرر العربي ... فكانت انتفاضة الحجارة في ديسمبر سنة ١٩٨٧م طوق نجاة لحكومة العربية، التي ستطيح أمريكا وابنتها قضية "التسوية"

في مستقع حرب عطلة ... قدرات وطاقات العرب والمسلمين!

... الانتفاضة الأولى، ... تحت هذه الصورة ... فكانت ... تكون «المعصرة» في معدة ... شل فاعلية ... الأسلحة ... غير ... . ووقعت المعركة إلى قلب المعدو لأول مرة في تاريخ هذا الصراع

● وعلى ... خلال ... خاص ... الانتفاضة "الحجارة الأولى" سنة ٩٩٣ م ... أي أن ... مع ... الانتفاضة ... تحول ... ... ...

مسورة» فقرة «شهدت الأعداء على مذبحة حنين» فقالت بعض الصهيونية «في كوخاني» تقول عن المذبوحين الاستشهاديين في حنين «إنهم يقتلون بشكل لم يحلم به أحد من صناع القرار في إسرائيل» وتضيف صهيونية «حنين شاليف» تقول «سيذكر الفلسطينيون مذبحة حنين كمذبحة المقاومة الفلسطينية، إن نتيجة لن تكون هذه المذبحة كذلك» وتشير الصهيونية «إيال شلاين»، فيما يقول «لقد جوبهنا بمقاومة لم نعرف مثيلاً لها في كل حروب إسرائيل»!

وترقب صهيونية أخرى، كانت تقول «لقد أصيب بصدمة، ولن أنسى ذلك في حياتي، وشعرت برعشة في البكاء بسبب الرعب الذي مررت به في حياتي شيء كهذا» وحتى صهيونية أخرى كبرى سن المقاومة بأسئلة في حنين، كانت هي الأخرى تقول «لقد كانوا يحاربون بالحجم والحمد لله أنني بقيت على قيد الحياة لقد وجدوا الفلسطينيون كل شيء وضعوا متفجرات في كل مكان، على عصا المجرى، وفي حاويات وسيارات، وعلى الجسور، وعلى أعمدة الإشارة»

ويكفي أن نعرف ونتعرف على بعض من هذه الوحيدة من قلب فيها الصهيونية وقف إطلاق النار كذب في حنين!! ويشهد «وكالة الصحافة الفرنسية» أن قتلى الجيش الإسرائيلي وقف المئات من عشرات المقاتلين الفلسطينيين في مخيم حنين، بعد مقتل ثلاثة عشر جنديا إسرائيليا في كمين متفجرات وقد دفع هذا الصمود الأسطوري رئيس أركان الجيش الإسرائيلي «شاؤول موفاز» إلى الإشراف بنفسه على إدارة المعركة!!

هذه قطرة من بحر ثقافة الشهادة والاستشهاد، التي فجرتها انتفاضة أرض الإسراء والمعراج وكفى شاهداً وشهيداً على فعالية هذا الطريق إلى «الشهيد» في العقيدة الإسلامية أسلم من أسماء الله سبحانه وتعالى أن هذا الطريق هو السنة التي سلكتها كل الشعوب التي أرادت التحرر من الاستعمار

* * *

# والحق ما شهدت به الأعداء

كثيرة هي التحديات التي تواجه المقاومة الفلسطينية على أرض فلسطين، وفي مقدمة هذه التحديات:

١- الفرعونية والقارونية الأمريكية، التي تدرجت في تاريخها معنا عبر القرن العشرين من «سياسة القوة» إلى «غطرسة القوة» إلى أن وصلت الآن إلى مرحلة «جنون القوة»!

٢- واليهودية العنصرية والصهيونية العالمية، وكيانها الاستعماري الاستيطاني على أرض فلسطين، وهي التي مثلت - عبر التاريخ - شوكة في حلق الإنسانية، وخيانة للعهود الإسلامية والسماحة الإسلامية منذ خيانة يهود «بني قريظة» إبان «غزوة الأحزاب» سنة ٥ هـ سنة ٦٢٧م وحتى الخلف «الصهيوني - الصليبي» الذي تحولت به الصهيونية إلى «قفاز» في قبضة الإمبريالية العربية، غضت اليد الإسلامية التي أحسنت إلى اليهود عبر تاريخهم الطويل، وحسنت وخدمة الذين امتهنوا اليهود واضطهدوهم عبر هذا التاريخ الطويل، كما حدث أيضاً من يهود «خيبر»، الذين تحالفوا مع مشركي قريش وعبدة الأوثان ضد المسلمين الموحدين، الذين يؤمنون بالتوراة، ويصلون ويسلمون على كل أنبياء بني إسرائيل والذين فتحوا أبواب المجتمع الإسلامي أمام اليهود!

٣- أما التحدي الثالث، الذي يواجه المقاومة الأقصى والاستقلال، فهو تحدي «الهزيمة النفسية» التي تشيعها نفر قليل من أبناء جلدتنا، يتكلمون بلغتنا، لكنهم يعبدون أمريكا من دون الله، ويخشون القوة الصهيونية أكثر من خشيتهم لله، والذين يسودون الصفحات التي تصور مقاومة الهيمنة الأمريكية والبطش الصهيوني في صورة الكارثة التي جربنا فيها منظمات المقاومة والجهاد على أرض فلسطين!

ولأن مهزمة نفسية هي أخطر مخلفات حرب توجه أي جندي وجماعة و أمة في أي ميدان من ميادين الحياة، لأنها تحول كل الإمكانات و الصفات بعضها إلى «صفر»، وتجعل ملأى الكثير بنفسية عاجزة تشعر الذين لا يعرفون فيه هذه الكثير في نفوس جماعة مهزمة نفسية هؤلاء هو جزء أصيل من معركة وجهادنا ضد الأعداء.

ولأن جماعة مهزمة نفسية هؤلاء قد تشبع ويتشبع لاعتداء بسرطاني - في صفوف الأمة - لأطروحات وثقافة وفكر الأعداء، فإن خير ما يرد به على «كلاشيم» هو شهادات الأعداء التي شهدوا بها سلاح الانتفاضة و جماعة مسلحة وثقافة شهداء و الاستشهاد و عمليات الاستشهادية على أرض فلسطين

## • شهادات أمريكية

قد كتبت مجلة «نيوزويك» الأمريكية في عدد ٢٧ أغسطس سنة ٢٠٠٢م دراسة تحت عنوان «شجرون الانتحاريون يغيرون موازين عسكرية في الشرق الأوسط» - ونقلت من كلمة «الانتحاريين» التي وضعوها بدلاً من كلمة «الاستشهاديين» - وفي هذه الدراسة يشهد «نيوزويك» بأن عمليات الاستشهادية قد خلقت «سلاح الذكي» و«قنبلة ذكية» لدى فلسطينيين يتفوق حربي على صنعته وصممته أمريكا لإسرائيل وأن هذا السلاح الاستشهادي قد صنع بإسرائيل لم تصنعه كل الجيوش النظامية العربية لأكثر من خمسين عاماً. وبنص هذه شهادة يقولون «لقد أصبح منفجر الانتحاري، بمعنى الحرفي، أكثر الأسلحة فعالية في الانتفاضة الفلسطينية ضد إسرائيل، فخلق ساحة جديدة للمعركة جعلت واحداً من أكثر الجيوش تدريباً وعدداً يعاني من أجل توفير الحماية لكافة شعبه. إن الترسانة العسكرية الإسرائيلية تشمل ٣٨٠٠ دبابة ونحو ٢٠٠٠ طائرة مقاتلة عبر أن كل هذه القوة الحربية التي كانت مزروعة أمام جيوش العربية في حروب سابقة كانت لا فعالية في حد كبير في مواجهة المنفجرين الانتحاريين!»

ثم تقدم «نيوزويك» لإحصاءات مشهدة على أن العمليات الاستشهادية في

عمرت هوريين أقوى في صدور خسائر ذي تعرف بصدع فتلى يهود وشهداء الفلسطينيين - على نحو يدعى لا سابقة له في تاريخ هذا الصراع فتقول "لقد ربيع عدد يوميات في إسرائيل من جراء التحجيرات الانتحارية بأكثر من الضعف خلال أيام انتفاضة، وحدثت تلك الزيادة على الرغم من كافة العمليات الإسرائيلية التي شنت حركة حياة اليومية معظم الفلسطينيين"

وفي هذه الدراسة الإحصائية تقارن "البيوزويك" بين خسائر الجانبين في الانتفاضة الأولى (١٩٨٧ - ١٩٩٣م) وفي الانتفاضة الحالية كما تقارن بين خسائر قوات استخدام الفلسطينيين لسلاح العمليات الاستشهادية وعدد استخدام يهم لسلاح وكيف كانت خسائر في الانتفاضة الأولى ٧ فلسطينيين مقابل واحد إسرائيلي ثم صححت في الانتفاضة الحالية قبل العمليات الاستشهادية ٥ فلسطينيين مقابل كل إسرائيلي قبل استخدام الفلسطينيون "أسلحة فتاكة" لعمليات الاستشهادية - تعادلت الخسائر على الجانبين تقريباً!!

تعم تقدم "البيوزويك" هذه الإحصائيات، فتقول "خلال الانتفاضة الأولى، التي امتدت ست سنوات، ما بين سنة ١٩٨٧ وسنة ١٩٩٣م ضد الاحتلال الإسرائيلي في قطاع غزة والضفة الغربية، قتل ١٦٢ فلسطينياً، مقابل ١٧٤ إسرائيلياً، أي بمعدل ٧ر٦ فلسطيني مقابل كل قتيل إسرائيلي وكان هذا هو المعدل خلال الأشهر الستة الأولى من انتفاضة استمرت سنة ٢م ١ ر٥ فلسطيني مقابل كل إسرائيلي - ولكن بعد أن بدأ المحللون الانتحاريون شن هجمات منظمة في مارس سنة ٢٠٠١م تغيرت هذه الإحصائيات بشكل هائل، فخلال الستة أشهر الأخيرة قتل ٢٩٨ فلسطينياً و١٧٧ إسرائيلياً، أي بمعدل ١ر٦ فلسطيني مقابل كل إسرائيلي"

أما الكاتب الصحفي الصهيوني الأمريكي "توماس فريدمان" الصديق المقرب من أسرة حسنين - فإنه هو الآخر شهد بتصاعد في شهداء "البيوزويك" فقد كتب في "النيويورك تايمز" بتاريخ ٢٥ - ٤ - ٢٠٠٢م - يقول "إن الانتحاريات الانتحارية التي توصف بأنها أدق شهرين منذ بدأت في قتل إسرائيل أشد عنفاً، كما أنها أقنعت الشعب الإسرائيلي أكثر من أي شيء آخر

عربي خلال خمس سنوات ماضية، وجعلت الإسرائيليين أكثر استعداداً من أي وقت للتخلي عن الأراضي الفلسطينية!».

فهل يعي المهرولون عمقاً من حولهم أمريكا هذه الشهادات الأمريكية، التي تقول إن العمليات الاستشهادية هي التي غيرت موازين القوى العسكرية في الصراع، وشلت فعالية التفوق العسكري الإسرائيلي، وأفقدت الكيان الصهيوني الأمن لأول مرة في تاريخه، وجعلته يفكر في التخلي عن الأرض المحتلة لأول مرة في تاريخ هذا الصراع؟!

● وشهادات صهيونية

وإذا كنا قد سقنا هذه الشهادات الأمريكية للذين يعبدون أمريكا من دون الله - والعياذ بالله! - فإننا نسوق شهادات صهيونية لهؤلاء الذين يخشون قوة العسكرية الصهيونية أكثر من خشيتهم لله!

● فالمحلل العسكري الصهيوني «الكولونيل» ولفيسون فوفتش» يقول عن التفوق الاستشهادي الفلسطيني «إنك توجه مقاتلا منتحراً مدججاً بين ٢ و ٣ رطلاً من متفجرات (T N T) أضعف بني آدم عقلاً وشرساً، فتصبح أمامه القنبلة الذكية» إنها ساحة معركة من نوع جديد، ولا أكثر من ذلك. إنها طريقة رخيصة، ومتوفرة، ولا يمكن التكهن بها، ومن المستحيل مواجهة بسبب تفوقها، وتقنيتها وتحزبها، ويصعب بالتالي كشفها والتصدي لها على الرغم من براعة العسكرية الإسرائيلية العالية التقنية وخبرتها الطويلة... لقد أصبح المفجر الانتحاري الأسلحة المفضلة من أسلحة الذكية، وحتى ذلك ساحة معركة من نوع جديد!

● أما الكولونيل «أحارون يوفت»، فقد نشرت له المجلة الأمريكية «فورين فيرز» عدد يوليو أغسطس سنة ٢٠٠٢م - شهادة تقول فيها عن العمليات الاستشهادية «إن إسرائيل لم تستشعر في تاريخها أي مثل ذلك الذي أحدثته بها العمليات الانتحارية، وعلى الرغم من أنها نجحت في استخدام وبشر مقاتلي الصاروخي (إف) بوجهه صواريخ «سكود» العراقية، بكفاءة مبيرى دولار، فيها لم تمتلك ما يرد به على نفسه بشرية فلسطينية، عن بدء الأسوأ بشأنكه

لقد وجدت إسرائيل نفسها أمام عدو لا يمكن القضاء عليه، ومن ثم لا يوجد حل عسكري للمشكلة. إن الإسرائيليين يثقون في دباباتهم وجيشهم، بينما الفلسطينيون يضعون ثقتهم في الله، وبسبب إيمانهم ذلك فلن تستطيع إسرائيل أن تحقق إنجازات استراتيجية في مواجهة الفلسطينيين، على الرغم من قدرتها على تحقيق الإنجازات التكتيكية»!

● لقد أصبحت إسرائيل حالة من حالات «الخوف المسلح» بالسلاح الأمريكي! ترتعد أمام الفدائي الفلسطيني المسلح بالإيمان بالله، والذي اشترى الجنة الباقية والحياة الحرة العالية لأمته ووصله بحياته الفانية. ولقد عبر أحد كبار المسئولين في الخارجية الإسرائيلية عن ذلك عندما قال: «إننا نشعر بالخوف على الرغم من قوة جيشنا ولا تصدقوا أي إسرائيلي ينكر ذلك، حتى غلاة اليمين، الذين يطالبون بطرد العرب، فإن الخوف يظل كامنا في أعماقهم»!

فهل نعي معنى هذه الشهادات - الأمريكية والصهيونية - أولئك «الكتبة» الذين يسودون الصفحات التي تصور المقاومة والانتفاضة والعمليات الاستشهادية في صورة «الكارثة» التي حلت بالأمة... و«النكبة» التي حلت بفلسطين؟!

لقد سقنا شهادات «الخواجات»، عسى أن يقتنع بها أشباه «الخواجات»... من أبناء جلدتنا - الذين لا يسمعون إلا «للكلام المستورد» من بلاد «الخواجات»!

أما المجاهدون، فإنهم يعرفون الطريق الذي حدده لهم ربهم، سبحانه وتعالى، ورسمه لهم نبيهم ﷺ وحزبه أمتهم الإسلامية... بل كل الشعوب التي ابتليت بالاستعمار... طريق الجهاد والفداء والاستشهاد.

* * *

# العنصرية اليهودية.. ودعوى شعب الله المختار

مشهورة بين الناس ومعروفة دعوى اليهود أنهم هم وحدهم «شعب الله المختار» الذين اصطفاهم الله وفضلهم على كل الأمم والشعوب.

وهم قد ادعوا ذلك لأنفسهم بحكم الولادة، وليس تأسيساً على الصلاح والتقوى ومخافة الله وتنفيذ الشريعة التي أنزلها الله على موسى، عليه السلام. فاليهودي - عندهم - الذي يمتاز ويتميز عن كل البشر بأنه من شعب الله المختار، هو المولود من أم يهودية، حتى ولو كان ملحداً، أو ابن زنا، أو عابداً للعجل الذهبي، أو قاتلاً للأنبياء!!

فالخيرية هنا هي صفة لصيقة، جاءت ثمرة «للبيولوجيا» ولا علاقة لها بالعقيدة والتقوى والصلاح بأي حال من الأحوال، أي أن الخيرية والاصطفاء والامتياز قد تجوبت - في الفكر اليهودي - إلى عنصرية لصيقة بمن يولد من أم يهودية، حتى ولو كان سلوكه منقطع الصلة، بل ومضاداً للشرائع الإلهية، وفي مقدمتها شريعة موسى، عليه السلام، ومناقضاً للفضائل التي تعارف عليها الأسوياء من الناس.

ولقد وضع اليهود هذه العقيدة العنصرية في أسفار «العهد القديم»، عندما أعادوا كتابتها بواسطة الأحبار والرؤساء والحاخامات في مرحلة السبي البابلي (٥٨٦ - ٥٣٨ ق م) التي عانوا فيها من القهر والاضطهاد، فكانت العنصرية والكراهية والرفض لكل الآخرين والأغيار سمات شائعة في هذه الأسفار التي أعادوا كتابتها في ظل هذا القهر وذلك الاضطهاد.

وليس القرآن الكريم وحده هو الشاهد على تحريف اليهود لتوراة موسى، عليه السلام، وإنما يشهد الكثير من علماء اليهود أنفسهم على هذا التحريف. ولعل الكتاب الذي كتبه كوكبة من هؤلاء العلماء عن «العهد القديم» من أقدم العصور

حتى يعصر (الحديث) والذي حرره العلم الشهري (رالمان ش ر) وبشره بمحمد
لأعلى بمثقفه بمعاهره سنة ٢م ، يكون خير شاهد من أهله على صدق
القرآن الكريم عندما تحدث عن تحريف اليهود لأسفار التوراة ﴿من الذين هادوا
يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم
وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم
الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ [النساء ٤٦] ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنهم وجعلنا قلوبهم
قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا
قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ [المائدة ١٣] ﴿يا أيها الرسول لا
يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين
هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون
إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك
الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾
[المائدة ٤١] ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة
لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما
الله بغافل عما تعملون﴾ ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله
ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا
بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون﴾
[البقرة ٧٤ ـ ٧٦]

فهذه الإشارات القرآنية لتحريف الأحبار والحاخامات ورؤساء اليهود ـ بقيادة
(العزير) عزرا (منتصف القرن الخامس ق م) لأسفار التوراة ـ قد فصلت تفصيلاً
علماء اليهود الذين بعدوا بعهد تقديم، وتحدثوا عن كل سفر من الأسفار، وكم
نص من منصوص، وزمن ومكان وملابسات تحريف وعدد تصحيحة التي
أصابت هذه النصوص

* * *

ولقد كانت العقيدة العنصرية التي جعلت من كل يهودي، بحكم الولادة من أم يهودية، واحداً من الشعب المختار الذي اصطفاه الله - بزعمهم - دون العالمين وفوق العالمين، واحدة من العقائد العنصرية التي أثمرها هذا التحريف لأسفار العهد القديم - بل لقد تصاعدت العنصرية بهذه العقيدة، فجعلت اليهود فيها فوق جميع الشعوب، وأكثر من هذا جعلت الرسالة الإلهية التي عهد الله بها إلى هذا الشعب المختار، هي - بزعمهم - الاستعباد والأكل والإبادة من عدا اليهود من الأمم والشعوب!

لقد وضعوا في (سفر التثنية) هذه العقيدة العنصرية التي تجعلهم شعباً مختاراً بل ومقدساً ومعصوماً من الأمراض والآفات! - بل وتجعل حتى بهائمهم معصومة من الأمراض والآفات!! وجعلوا من هذه العنصرية أمراً إلهياً ووحياً ربانياً - تعالى الله عن كل ذلك - فقالوا، على لسان إلههم «يهوه» وهو يخاطب هذا الشعب المقدس والمختار: «سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرمهم (تهلكهم وتدمرهم) لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم؛ لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض - مباركاً تكون فوق جميع الشعوب - لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك - ويرد الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التي عرفتها (كذا؟!) لا يضعها عليك، بل يجعلها على كل مبغضيك - وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك - لا تشفق عيناك عليهم». إصحاح ٧: ١ - ٣، ٦، ٧، ١٤ - ١٦.

فهم شعب مختار مقدس، فوق جميع الشعوب، وأخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض - يأمرهم إلههم بأكل الشعوب وإبادتهم، دون أن تقطعوا لهم عهداً، أو تشفق عيونهم على هذه الشعوب!!

وهذه العنصرية التي تمارسها الصهيونية اليوم على أرض فلسطين، عندما تبيد البشر والشجر والحجر، هي ثمرة مرة للعقيدة العنصرية التي وضعها الأحبار والحاخامات في [سفر العدد] عندما افتروا على الله فقالوا: «وكلم الرب موسى، في عربات موآب على أردن أريحا، قائلاً: كلِّم إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون

لأرض التي كتب عليكم أن تطردوا كل سكان الأرض من أمامكم فتملكوا الأرض وتسكنوا فيها وإني قد تصردو سكان الأرض من أمامكم فكل الذين تستبقون منهم أشواكًا في أعينكم ومناخس في جنوبكم، ويضايقونكم في الأرض التي أنتم ساكنون فيها فيكون أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم"[1] (سفر العدد ٣٣ : ٥٠ ـ ٥٣، ٥٥، ٥٦ ـ والتهجير ـ "الترانسفير" ـ الذي مارسته الصهيونية مع الشعب الفلسطيني منذ سنة ١٩٤٨م، والذي قدف ستة ملايين فلسطيني هم تعداد اللاجئين اليوم خارج وطنهم التي تحيمات، والذي جعل ملايين أخرى تعيش في بقعة ضيقة وحيدة عن مدنهم وقراهم لأصلية ، الذي يهدد به اليوم "شارون" من بقي من الفلسطينيين على أرض وطنهم هذا "الترانسفير" هو عقيدة عنصرية وضعها الأحبار و خاخامات اليهود في العصر الحجري القديم، و فسروا نسبتها إلى الله تعالى وبرره عن جميع ما فروه

بل إن هذه الذي صنعته العنصرية الصهيونية "الجحيم الحي" في الحرب سنة ٢ ٢م من بدء الخليقة شهدت كثير من المنظمات حقوق الإنسان الغربية بأنها «جرائم حرب» و«جرائم ضد الإنسانية» و«محرقة» صاحب البرلمان التي لا تنسى ولا تغتفر هذا الذي صنعته العنصرية الصهيونية في غزة اليوم وعشرين ، ما هو إلا ثمرة من ثمرات العقيدة العنصرية ـ عقيدة شعب الله المختار والمقدس، فوق كل الشعوب. وفوق جميع الشعوب، التي عهد إليه الرب برسالة أكبر جميع الشعوب وإبادة كل مقومات الحياة لدى هذه الشعوب

ويكرس هذه العقيدة العنصرية، وضع الأحبار و خاخامات في أسفار التوراة كلام منسوب إلى الرب، يخاطب به شعبه المختار، ويقول فيه "إذا سمعت عن إحدى مدنك التي يعطيك الرب إلهك تسكن فيها قولا فضربت تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرمها (تدمرها وتهلكها) بكل ما فيها، مع بهائمها بحد السيف تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك فتكون تلا أبديا لا تبنى بعد"[1] (سفر التثنية ١٣ : ١٢، ١٥ ـ ١٧

تلك هي العقيدة العنصرية ـ عقيدة شعب الله المقدس والمختار ، لأكل الشعوب

وإبادتها وتدمير كل مقومات الحياة فيها.. كما صاغها الأحبار والحاخامات نصوصاً تفطر حقداً وعنفاً ضد كل الأغيار.. ثم افتروا على الله، سبحانه وتعالى، عندما وضعوا هذه النصوص على لسانه في أسفار العهد القديم.. وذلك لتضعها الصهيونية في الممارسة والتطبيق على أرض فلسطين في القرن الواحد والعشرين!!

وإذا كنا قد أشرنا إلى حديث القرآن الكريم عن هذا التحريف الذي صنعوه بأسفار التوراة.. وأشرنا إلى شهادة علمائهم المتصفين على حدوث هذا التحريف، عندما تتبعوا بالنقد العلمي كل نصوص العهد القديم.. حتى انتهوا إلى قولهم في ص٢٠٦، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٠ من (تاريخ نقد العهد القديم): «إن هذه الأسفار المقدسة هي من طبقات مختلفة، وعصور متباينة، ومؤلفين مختلفين، حيث تستوعب هذه الأسفار ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة من الزمن.. فلا ارتباط بينها، سواء في أسلوب اللغة أو في طريقة التأليف.. إن القسم الأكبر من توراتنا لم يكتب في الصحراء.. وموسى لم يكتب التوراة كلها.. وأقوال التوراة ليست إلا لفائف من أماكن وعصور مختلفة لرجال وحكام عشائر وأسباط مختلفة.. فهي ثماني مجموعات تعود إلى عصور مختلفة، وهي: ١ ـ لفائف قديمة تعود إلى عصر الصحراء (في سيناء) تم تحريرها من قبل أحد أبناء أفرايم ٢ ـ ولفائف من تعاليم الكهنة، تمت إضافتها إليها حتى عصر يوشع بن صادق ٣ ـ ولفائف أعداد الأسباط ٤ ـ ولفائف باعترافات الأنبياء ٥ ـ ومجموعات من روايات بيت داود ٦ ـ وأقوال الأنبياء ومجموعاتهم في بابل ٧ ـ وأقوال الكهنة والأنبياء العائدين من السبي ٨ ـ وتكملات مختارة من عصر الحشمونيين».

فكأنها ديوان من الأساطير، كتبه مؤلفون عديدون، في قرون متطاولة الامتداد.. قد شاعت فيها الأفكار العنصرية عن الشعب المقدس والمختار، الذي اختاره «يهوه» لإبادة وأكل جميع الشعوب.. ولقد أصبحت هذه العقيدة العنصرية هي الثقافة المكونة للعنصرية اليهودية والصهيونية، التي نواجهها اليوم على أرض فلسطين.

* * *

# القدس.. بين اليهودية والإسلام

عندما نناقش «حجج» ودعاوى الآخرين، حول قضية القدس، يجب أن نتجرد من منطق صاحب الحق الذي يخاطب ذاته. فنتحدث بالمنطق «الموضوعي - البارد»، الذي يقبل «حجج» الخصوم، بمنطق هؤلاء الخصوم، وبلغة العلم وعقلانية الفكر، لا بالعواطف، أو حتى بمأثوراتنا الدينية الخاصة التي لا يؤمن بها الآخرون.

وفي تطبيق هذا المنهج على «وثيقة» «رابطة الدفاع اليهودية» التي كتبها اليهودي الصهيوني الأمريكي «دانيال بايبس» أكبر مساعدي «بنيامين كاهانا» ابن الحاخام الإرهابي «مائير كاهانا» مؤسس هذه الرابطة. في مناقشة هذه «الوثيقة» نجد أن صرامة المنطق المجرد، وهو في الفكر عملة دولية عامة - تقودنا إلى «إسلامية القدس»، وإلى نفي أية علاقة لهذه المدينة باليهودية واليهود.

● تقول هذه «الوثيقة»: «إن القدس هي أعظم مدينة دينية بالنسبة لليهودية».

فهل هذا صحيح؟ وهل هناك علاقة ما بين اليهودية وبين مدينة القدس؟

لقد روج اليهود هذه الدعوى، حتى تبنتها الكاثوليكية - ومن قبلها البروتستانتية - فوجدنا بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني، يتحدث عن القدس فيقول: «منذ عهد داود، الذي جعل أورشليم عاصمة لمملكته، ومن بعده ابنه سليمان، الذي أقام الهيكل، ظلت أورشليم موضع الحب العميق في وجدان اليهود، الذين لم ينسوا ذكرها على مر الأيام، وظلت قلوبهم عالقة بها كل يوم، وهم يرون في المدينة شعاراً لوطنهم» (عن مقال الأنبا يوحنا قلته بالأهرام في ٢ - ٥ - ١٩٩٧م).

ووجدنا - كذلك - التحالف المسيحي البروتستانتي - في أمريكا - تحت تأثير

«الصهيونية - المسيحية» عندما جعل الكونجرس الأمريكي يقرر سنة ١٩٩٥م - نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس وبناءها على أرض الأوقاف الخيرية الإسلامية:- ينص في مقدمة هذا القرار على «أن القدس هي الوطن الروحي لليهودية»

فهل حقاً تمثل «القدس أعظم مدينة بالنسبة لليهودية» - كما تقول «وثيقة» رابطة الدفاع اليهودية؟

وهل هي «شعار الوطن اليهودي» كما يقول بابا الفاتيكان؟ و«الوطن الروحي لليهودية» كما يقول الكونجرس الأمريكي؟

لنسأل أولاً: ما هي اليهودية؟

إنها بالمنطق العلمي المجرد هي شريعة نبي الله موسى، عليه السلام، التي جاءت بها الألواح والأسفار التي أوحى الله بها إلى موسى

وهنا نسأل - ثانياً - هل هناك أية علاقة بين شريعة اليهودية وبني اليهودية وتوراة اليهودية وبني إسرائيل الذين توجهت إليهم التوراة والشريعة وبين مدينة القدس؟

إن بني اليهودية قد ولدوا ونشأوا وعاشوا وماتوا ودفنوا في مصر، ولم تر عينه القدس في يوم من الأيام.

وإن توراة اليهودية وشريعتها ووحيها قد نزلت في مصر، وباللغة الهيروغليفية - وقبل وجود اللغة العبرية ولم تشهد القدس عبر تاريخها الطويل شيئاً من ذلك في يوم من الأيام..

فأين هي العلاقة الروحية علاقة «الوطن الروحي» التي يتحدثون عنها بين اليهودية وبين القدس؟!

● فإذا قالوا - وهم بالفعل يقولون - بلسان «وثيقة» رابطة الدفاع اليهودية - إن اليهود يصلون في اتجاه القدس، ويذكرون اسمها في صلواتهم باستمرار، وينهون صلاة عيد الفصح بعبارة شوق حزين «العام القادم في القدس»

فإننا سنقول لهم حسناً لكن، هل صلاة أبناء دين من الأديان تجاه مدينة من

المدن، ترتب لأبناء هذ الدين حقوقًا «وطنية وسياسية.. وسيادية» في هذه المدينة؟

إن الأرثوذكس - الروس، واليونان، والصرب، والمصريين، والأحباش - يصلون جميعًا نحو القدس، ويبكون، ويحجون، وفيها يتقاسمون ومعهم في ذلك، كل شعوب الكاثوليك، في جميع أنحاء العالم، وكذلك كل الأمم والقوميات البروتستانتية فهل يترتب على توجه إلى القدس في الصلاة لكل هذه الأمم والشعوب والقوميات والأجناس حقوقًا «وطنية وسياسية وسيادية» في مدينة القدس؟

إن الذين يعدون «الشعب» الحقير بمعناه «العنكبوتي»، والمتوحش الذي يحتقر العالم ولا علاقة له بالذي يسمونه بعقل وعقلاء، وقف على ذلك توجه المسلمين من مختلف الأمم والأوطان إلى مكة في الصلاة وهو الذي لا يرتب لشعوبهم في مكة أية حقوق «وطنية - أو سيادية.. أو سياسية»

● وقد قالوا: لقد عاش وحكم في القدس داود وسليمان، عليهما السلام، وفيها بنى سليمان هيكلا لليهود فنقول لهم: نعم! لكن هذا لا يقيم علاقة بين يهودية والقدس وذلك بعيدًا عن الأسباب التاريخية والمقدسة والواقعة فيها

١ - إن داود وسليمان كانا من يهود ويهودية هم من «بني إسرائيل» ومن «يوسف والأسباط»، ومن ثم فإقامتهم في القدس وعلاقتهم بها هي علاقة استيلاء استعماري وخارجي، وليست علاقة دينية بين القدس وبين اليهودية كدين

٢ - إن علاقة داود وسليمان بالقدس، كانت خلال فترة لا تزيد على ألف عام - علاقة عارضة وطارئة، وسرعان ما انهارت فهي قامت في القرن العاشر قبل الميلاد، بعد أن كان عمر القدس قد تجاوز ثلاثة آلاف عام فهي قد أسسها «اليبوسيون» حتى دخلها العرب الفلسطينيون قبل الميلاد بنحو ألف عام - ولم تدم العلاقة بين داود وسليمان، بل وبين كل العبرانيين وبين القدس وفلسطين أكثر من ٤١٥ عامًا.

فهل يؤسس ذلك ليهود حقًا «وطنيًا وسياسيًا وسياديًا» دائمًا في القدس وفلسطين؟

لقد أقام العرب المسلمون وحكموا في الأندلس ثمانية قرون، وبنوا فيها المساجد التي لا تزال قائمة حتى الآن فهل يرتب ذلك لهم في إسبانيا والبرتغال حقوقاً «وطنية.. وسياسية.. وسيادية»؟

ولقد أقام الإسكندر الأكبر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م) في مصر وغيرها من بلاد الشرق مدناً ومعابد وامبراطورية دام حكمها وحكم خلفائه فيها قرابة العشرة قرون من القرن الرابع قبل الميلاد إلى الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي ـ فهل يرتب ذلك للشعب المقدوني أو الإغريقي أو الروماني أو لهم جميعاً ـ في مصر والشرق حقوقاً «وطنية.. وسيادية.. وسياسية»؟

وقبل الإسكندر، دخلت كثير من بلاد الشرق تحت حكم «قمبيز» (٥٢٩ ـ ٥٢١ ق.م) الفارسي.. وفيها بنى المعابد والهياكل والقلاع.

وقبل «قمبيز»، حكم الفراعنة قروناً متطاولة ـ أغلب هذه الأقطار، وقاموا فيها بمعابد، وتركوا فيها الآثار. فهل يطالب أهل مصر أو أهل فارس بالسيادة الوطنية والسياسية على تلك البلاد؟!.

● وهذا المعبد الذي بناه سليمان عليه السلام، والذي دمره البابليون مع مملكة يهودا سنة ٥٨٥ ق.م. هل حقاً ما يدعيه اليهود أن المسجد الأقصى قد بني على أنقاضه؟

إن اللجنة الملكية البريطانية قد حكمت سنة ١٩٢٩م بأن ما تسميه اليهود «حائط المبكى» هو «حائط البراق» ـ جزء من المسجد الأقصى، ومعراج رسول الإسلام، ولا علاقة له بهيكل سليمان.

ولقد مضى ثلث قرن على احتلال اليهود للقدس الشرقية، وتكثيفهم للبحث والتنقيب وتقليب باطن الأرض بحثاً عن أي أثر أو دليل على دعواهم هذه، لكنهم لم يعثروا في كل هذه المنطقة، وطوال هذه السنين، على أي أثر لهذا الهيكل المزعوم.

فأين هي العلاقة بين اليهودية واليهود وبين مدينة القدس؟

● ثم هل يهودية التلمود ويهودية الصهيونية هي يهودية موسى عليه السلام؟

إن أسفار التوراة ذاتها شاهدة على نقض اليهود لشريعة موسى، وعلى استحقاقهم لعنة الله؛ بسبب خروجهم حتى على التوحيد!

كما أن اليهودية المعاصرة - التي تحتل القدس وفلسطين - تعرف اليهودي بأنه «هو المولود من أم يهودية» فالمعيار فيها «البيولوجي»، وليس دينيا، وبذلك أصبح «يهود الخزر» و«الأشكناز»، الذين لا علاقة لهم ببني إسرائيل والعبرانيين والساميين هم اليهود، وفق هذا المعيار «البيولوجي» حتى ولو كانوا ملاحدة، أو أبناء زنا!

فأين هي العلاقة بين اليهودية وبين القدس؟ بل وأين هي العلاقة بين هذه اليهودية «العنصرية البيولوجية» وبين يهودية شريعة موسى عليه السلام؟

هذا هو «المنطق الموضوعي المجرد بين والبارد»، الذي تفند به دعوى العلاقة الدينية بين القدس وبين اليهودية واليهود.

* * *

# القدس فى الإسلام

تزعم رابطة الدفاع اليهودية «أن دور القدس فى الإسلام يأتى فى المرتبة الثالثة بعد مكة والمدينة، وأنها ليست قبلة المسلمين فى الصلاة، ولم تذكر باسمها مرة واحدة فى القرآن، ولا تذكر على الإطلاق فى صلوات المسلمين، وهى ليست مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالأحداث التى جرت فى حياة الرسول، ولم تتحول القدس فى يوم من الأيام إلى مركز ثقافى إسلامى، أو عاصمة لدولة إسلامية».

وتقول هذه الرابطة الصهيونية: «إن ما جاء فى سورة الإسراء عن المسجد الأقصى ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ هو مجرد «تفسير أموى»، لا يعنى مدينة القدس، إذ لم يكن هناك يومئذ وقت الإسراء مسجد فى القدس اسمه «المسجد الأقصى»، لأن هذا المسجد قد بنى فى العهد الأموى».

تلك هى دعاوى اليهود، التى تنفى وجود علاقة بين الإسلام وبين القدس، وبين الثقافة الإسلامية والدولة الإسلامية وبين القدس.

وفى الرد على هذه الدعاوى، وتفنيدها.. نقول:

● إذا كان الحديث النبوى الشريف يجعل القدس ثالث الحرمين - بعد مكة والمدينة - فإنه يجعلها أولى القبلتين، أى يقدمها - فى الترتيب التاريخى - كقبلة للمسلمين - على مكة المكرمة والكعبة المشرفة، فقد صلى إليها رسول الله ﷺ خمسة عشر عاماً، ثم توجه إلى الكعبة بالصلاة قبل وفاته بثمانى سنوات.

ثم إن السنة النبوية قد جعلت القدس على قدم المساواة مع مكة والمدينة فى الاختصاص بشد الرحال - أى السفر - للصلاة فى مساجدها الجامعة - الحرم

المكي ... الحرم المدني ... والحرم القدسي فهي - القدس - المقدسة - تاريخيا - كقبلة إسلامية لصلاة المسلمين ... وهي مساوية لمكة والمدينة في شد الرحال إليها للصلاة ... «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ... والمسجد الأقصى ... ومسجدي هذا» - رواه البخاري ومسلم -

● وعبارة «المسجد الأقصى» في آية سورة الإسراء تعني مدينة القدس ... كل القدس ... ولا تعني «المسجد» بمعنى البناء المعماري «المجامع»، فلم يكن هذا البناء - «الجامع» - قائما بالقدس سنة ٦٢١هـ ... ليلة الإسراء - وكذلك عبارة «المسجد الحرام» في هذه الآية، تعني مكة - كل مكة ... ولا تقتصر على الكعبة والمسجد الحرام ... فرسول الله ﷺ عندما أسري به لم يكن ساكنًا ولا نائمًا في المسجد الحرام - «الجامع» - وإنما كان في مكة، فالإسراء به قد تم من «المسجد الحرام» أي مكة ... إلى «المسجد الأقصى» - أي القدس ... وفي ذلك دلالة على اعتبار القرآن كل مكة مسجدًا حرامًا ... أي حرمًا مكيًا ... وكل القدس مسجدًا أقصى - أي حرمًا قدسيًا.

● وتزكي هذه الحقيقة وتشهد لها وعليها ولها أن المسلمين، ومنذ فجر الإسلام، قد عاملوا القدس، كمكة، معاملة الحرم الشريف ... ومن مميزات وامتيازات الحرم في الإسلام تنزيهه بتحريم القتال وسفك الدماء فيه ... وعندما فتح المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ - مكة سنة ٨هـ حرصوا على فتحها سلمًا دون قتال، لأن الحرم لا يجوز فيه القتال ... وهم قد صنعوا ذلك مع القدس عندما فتحوها سنة ١٥هـ سنة ٦٣٦م ... فلقد حاصروها حتى طلب أهلها على فتحها سلمًا، وتفردت مكة والقدس بذلك دون جميع المدن التي فتحها المسلمون ... وكما تسلم رسول الله مكة يوم الفتح، تفردت القدس ... دون كل مدن الفتوحات الإسلامية ... بأن استلامها كان من اختصاص أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب»، وليس من قبل قائد جيش الفاتح، رغم أن هذا القائد كان هو أمين الأمة الإسلامية «أبو عبيدة بن الجراح»

هذا عن مكانة القدس بالنسبة لمكة والمدينة ... وعن ذكرها في القرآن الكريم

● أما دعوى أن القدس لا تذكر في صلاة المسلمين، فهي قد تهاوت، عندما

ثبت أن مراد (المسجد الأقصى) في سورة الإسراء وهي التي يصلي فيه المسلمون في صلواتهم على امتداد أقطار الأرض، وبناء على وأصرف النظر هو مدينة القدس الشريف كما أن بيت المعراج في سورة النجم (١٣ـ ١٨) والتي يتعبد فيه المسلمون في الصلاة وغير الصلاة، بعد تأكيدهم بالمعراج من القدس الشريف.

● وإذا كان الإسراء برسول الله ﷺ قد حدث من مكة إلى القدس وأن المعراج قد تم من القدس.. فهل يجوز ـ بعد ذلك ـ أن تدعي «وثيقة» رابطة المعابد اليهودية أن القدس ليست مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالأحداث التي جرت في حياة الرسول»؟!

إن الهدف الإسراء، هو إحدى معجزات رسول الإسلام، والرابط بالقدس مكة في هذه المعجزة هو التعبير القرآني الكريم آية من بيت الله الحرام، كما أن المعراج من القدس، هو الآخر، إحدى معجزات الرسول، عليه الصلاة والسلام.

فكيف يكون، وبين يكون الارتباط مباشراً بحياة الرسول، ثم لا يكون هذا هو الارتباط؟!

لكل ذلك، غدت الرابطة بين القدس ومكة عقيدة دينية إسلامية، وبنية تبنى في قلوب وعقول المسلمين في الصلوات الإسلامية، ومعجزة من معجزات الرسالة الإسلامية، ووحدة من عقائد الجهاد الإسلامي، الذي سماه صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م) في رسالته إلى «ملك ديلم الأسد» (١٨٩ ـ ١١٩٩م) إبان حروب تحريره القدس من الصليبيين «إن القدس عروس السماء، وفي القدس تجمع الملائكة لا نذكر أنه يمكن أن نتخلى عنه أبداً، كما لا نذكر أنه يجب أن نتخلى عن حقوقنا فيه، ذلك قسمة ضيزى، وما يمكنكم الله أن تشاركوا أحداً في هذه الأرض طالما ستمر حياة».

● أما دعوى «الوثيقة» رابطة المعابد اليهودية، أن القدس «لم تكن في يوم من الأيام إلى مركز ثقافي إسلامي»، فتتحدث عن خصائص مكانة القدس في الثقافة الإسلامية عبر أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، فالمسلمون هم الذين أطلقوا على هذه المدينة اسم «القدس»، وبيت المقدس، والحرم القدسي، والقدس

الشريف ... فجعلوا من القداسة سماتها، وعنوانًا عليها، يعبر عن قداستها ومكانتها المقدسة في الثقافة الإسلامية والعقل الإسلامي والوجدان الديني الإسلامي.

وكما «جاور» العلماء والزهاد والعباد والمجاهدون وطلاب العلم في الحرم المكي والحرم المدني، ظلوا عبر تاريخ الإسلام «يجاورون» في الحرم القدسي.

وحجم الأشعار التي نظمها شعراء الإسلام في الحرم القدسي يبلغ المجلدات في ديوان الأدب الإسلامي ... فلقد كانت دائمًا ـ عندهم ـ رمز الصراع بين الحق والباطل، ومفتاح الانتصارات، ورمز الاستقلال والتحرر من موجات الغزو والغزاة.

وهيَّجْتَ للبيت المقدس لوعة ... يطول بها منه إليك التشوّق

هو البيت إن تفتحه، والله فاعل ... فما دونه باب من الشام مغلق

وذلك فضلًا عن مئات المخطوطات التي كتبت في مناقب وفضائل هذا الحرم القدسي الشريف.

● أما أن هذه المدينة ـ القدس ـ «لم تكن في يوم من الأيام عاصمة لدولة إسلامية» ـ كما تقول «وثيقة» رابطة الدفاع اليهودية ـ فهي دعوى ـ ككل الدعاوى التي قدموها ـ لا حظ لها من المنطق الذي يقيم دليلًا على المناصب التي يريدها اليهود.

فالدولة الإسلامية ـ منذ ظهور الإسلام، وحتى إلغاء الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م ـ كانت دولة خلافة جامعة، اختصت بمركز العاصمة فيها مدن معدودة، لا تتجاوز الست ـ هي: المدينة.. والكوفة.. ودمشق.. وبغداد.. والقاهرة.. والآستانة ـ فهل يعني ذلك أن كل مدن الإسلام ـ والتي تعد بالآلاف ـ في عالم الإسلام، من «غانة» غربًا إلى «فرغانة» شرقًا ومن حوض نهر الفوجا شمالًا إلى جنوب خط الاستواء، هل معنى ذلك أن كل هذه المدن ليست إسلامية؟، ولا أهمية لها في حياة الإسلام والمسلمين، أو لا حق فيها للمسلمين؟!

ثم ... إن مكة المكرمة، لم تكن في يوم من الأيام عاصمة لدولة إسلامية

فهل يعني ذلك أنها لا أهمية لها في حياة الإسلام والمسلمين؟!

● ومع هذه المكانة للقدس، في القرآن الكريم، وفي معجزات رسول الإسلام.. وبين المدن الإسلامية الثلاث، التي تميزت بالحرمة، فعدت حرمًا آمنًا ومقدسًا في وجدان المسلمين وحياتهم العلمية والفكرية والثقافية والأدبية والروحية.. فلقد تميزت السيادة الإسلامية على القدس، عبر تاريخها الإسلامي، بميزة تفردت بها القدس الإسلامية عن حياة هذه المدينة إبان اغتصابها من قبل الآخرين.. ففي الحقب التي انحسرت فيها السيادة الإسلامية والعربية عن القدس لم احتكارها من قبل الغاصبين، بينما تميزت السيادة الإسلامية عليها بإشاعة قدسيتها بين كل أصحاب المقدسات من مختلف المذاهب والديانات.. حتى غدت هذه الحقيقة قانونًا في تاريخ هذه المدينة المقدسة، لم يعرف التخلف أو الاستثناء.

لقد احتكرها الرومان في عهد وثنيتهم - دون النصارى واليهود.. فلما تدينت الدولة الرومانية بالنصرانية احتكرت القدس دون اليهود، بل ودون المذاهب النصرانية التي لا يرضى عنها الرومان!

وعندما اغتصبها الصليبيون الفرنجة، احتكروها دون المسلمين واليهود.. واليوم، تصنع الصهيونية هذا الاحتكار للقدس، بالتهويد، وتهديد المقدسات غير اليهودية، وتقليص الوجود العربي الإسلامي والمسيحي في هذه المدينة.

على حين سجل التاريخ الإسلامي للقدس، أن المسلمين هم الذين سمحوا لليهود بالعيش فيها، وابتعدوا بها، بعد أن كان أهلها النصارى.. إبان الفتح الإسلامي لها، يطلبون أن لا يسكن فيها أحد من اليهود ولا من اللصوص!

وفي عهدها الإسلامي أشاع المسلمون قدسيتها وقدسيتها لكل أصحاب المقدسات، على اختلاف المذاهب وتعدد الديانات.. لا بمجرد «التسامح الإسلامي»، وإنما لأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يكتمل الإيمان به إلا بالإيمان بكل النبوات والشرائع والرسالات.. فالمسلمون وحدهم - بحكم عقيدتهم الدينية - هم الذين يعترفون بالآخرين، ويؤمنون بقدسية وحرمة مقدسات هؤلاء الآخرين، ومن ثم قولهم وحدهم - بحكم هذه العقيدة، التي صادقت عليها الممارسات التاريخية - المؤتمنون على كل مقدسات هذا الحرم القدسي الشريف.

فإسلامية السيادة على هذه المدينة، ليست مصلحة إسلامية خاصة، ولا امتياز فلسطينيًا وطنيًا، ولا ميزة قومية عربية.. وإنما هي - أولاً وقبل كل شيء - تضمن لبقاء القدس حرمًا آمنًا لكل الذين يعبدون الله.

تلك هي حقيقة قضية القدس.. وعلاقتها ومكانتها بين اليهودية والإسلام.

وبمثل هذا المنطق يجب أن يكون الحوار مع الآخرين.. والتفنيد لدعاوى الخصوم.. فيه نمنع المحاورين.. ونزداد يقينًا بحقنا المشروع في القدس الشريف.. ونسحب البساط من تحت أقدام الخصوم.. ويكون حوارنا مع العالم حوار العلم بمنطق العلماء.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

# إسلامية القدس.. ماذا تعني؟؟

لقدس ـ كل القدس ـ حرم مقدس ، كما أن مكة ـ كل مكة ـ حرم مقدس

أبي عبيدة بن الجراح، حتى رغب أهلها في الصلح، وذلك في ... لأنها حرم لا يحل فيها القتال. بل لقد ظلت هذه حرمة عقيدة إسلامية مرعية غير مقصور ... يخ فعلى الرغم من أن الصليبيين بقيادة قوتهم الرئيسية بقيادة جودفروا البويوني تمكنوا من الاستيلاء على القدس (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) بعد حصار دام أكثر من شهر، وقتلوا جميع من بها من المسلمين، عندما قام فيها بعد ذلك صلاح الدين الأيوبي بفتحها سنة ٥٨٣هـ، لم يسلم من المذابح فيها حتى الذين احتموا بالمسجد الأقصى، فذبحهم الصليبيون حتى جرت الدماء في المسجد كالأنهار، وسبحت فيه خيول الصليبيين حتى بلغ الدم هذه الخيول[1] على الرغم من ذلك، فإن صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ - ١١٩٣م) هذه المدينة المقدسة معاملة الحرم الذي لا يحل ولا يحل فيه القتال، فحاصرها (٥٨٣هـ/ ١٨٧م) حتى صالح الصليبيون فيها على تسليمها، فهي ليست مجرد مدينة، وإنما هي حرم، وبعبارة صلاح الدين: "إنها ملك لورث كل أصحاب الديانات، فيها مجتمع الملائكة ومهبط عروج النبي محمد"[2].

وبتحديد الإسلام لهذه المدينة، وعدها مسجداً وحرماً وقبلة المسلمين الأولى، ولأن الإسلام وحده هو الذي جعل الإيمان بالمسيح وبموسى وبالأنبياء جميعاً من عقيدته، فقد أصبح للصفة الإسلامية عبر التاريخ هذه السيادة الدولية الإسلامية على مدينة القدس، بوصفها قبلة لكل أصحاب الديانات السماوية. فكانت الدولة الإسلامية الواحدة والوحيدة الإسلامية في ... دون سواها هي المؤتمنة والأمينة على مقدسات غير الإسلامية في هذا الحرم القدسي الشريف. وذلك بعكس ما تحكم به الاحتلال هو موقف كل السلطات غير الإسلامية التي استولت على مدينة القدس، فإنها قد احتكروها لأنفسهم، دون اليهود والنصارى في حقبة الوثنية الرومانية، وبعد أن تهود في بيزنطيته احتكروها دون اليهود وعندما فتح المسلمون القدس، كان من مقتضى أهلها - النصارى - ألا يسكن فيها أحد من اليهود ولا أحد من اللصوص!

وضع هذا الاحتكار أيضاً الصليبيون، الذين حتموا بعين عدائية، فعندما دخلوا بيت المقدس احتكروه لمقدساتهم المسيحية، حتى إنهم حولوا المسجد الأقصى إلى كنيسة لاتينية، وإلى مقر لفرسان الهيكل[3]. وهكذا الاحتكار يضعه الصهاينة اليوم، عندما يصرون على وجود دولي في القدس - إسلامياً ونصرانياً - ويهددون المقدسات بالاستيلاء والهدم والتخريب!

... بحارق بين المسلمين وغيرهم في هذه المسألة - بشأن قدسية القدس ، حتى الآن - ليس مجرد تسامح يمكن أن يتعلمه المرء من هذا الدين أو ذاك ، فالإسلام وحده هو الذي يعترف بكل الرسالات والشرائع الدينية ، ومن ثم يعترف بقدسية مقدسات أتباعها . وقد حظيت دولة من أمان وتأمين غير مسبوق على عقائدهم وصلبانهم وكنائسهم - مع أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم وسائر ما أعطاهم الله وعهدا وميثاقا - بينما اليهودية لا تعترف لا بالمسيحية ولا بالإسلام ، والمسيحية تتخذ نفس الموقف من الأخرين ومن مقدساتهم . ولذلك ، لم يكن صدفة ، ولم يكن مجرد تسامح ، تشيع قدسية القدس بين كل صحابة مقدسات ، في ظل السيادة الإسلامية على القدس ، وأن تتبع هذه المدينة وقداستها في الأخير عقائد بعينها لأحد دون الآخر . الأمر الذي يجعل من السيادة الإسلامية على القدس ضمانة لحقيقة كل أصحاب الديانات ، وليس فقط للمسلمين وحدهم . ولأن هذه هي حقيقة الاعتقاد الإسلامي ، فإن حسابات السيادة الإسلامية على القدس ، فقد رأينا - عبر تاريخ هذه المدينة المقدسة - تجنح أوقاف الكنائس المسيحية بمصر على أن يكون "مصرف" هذه الأوقاف الكنيسة من المسلمين في بعض كثير من هذه الحالات على أن تكون "المفاتيح" الكنائس هذه في أيدي مسلمة!

* * *

ولأن هذا هو مقام القدس في عقيدة الإسلام والمسلمين ، وموقعها في التاريخ الإسلامي ، ومكانتها في الدولة الإسلامية ، فليس يحتاج المرء لمعاناة كبيرة في هذا العصر من أطول صراع لم تشهد حروبه وعنفه ، لعقود كثيرة من قطعة أرض وأهمية من مدينة ، وهو من عاصمة دولة عنصرية ، وحتى من كونها محل الصراع العربي الصهيوني ، بل لذلك وأكثر من ذلك ، بل حرية من عقيدة تبلغ تعداد أتباعها نصف مليار ، وليست مجرد قضية وصلة لعشرة ملايين من الفلسطينيين ، ولا حتى مشكلة قومية تخص ثلاثة ملايين عربي بل عاصمة دولة عنصرية ، ومحور الصراع العربي الصهيوني ، وفوق كل ذلك ، أنها عاصمة إسلامية ، وحرم مقدس ، وبرغم ذلك وبين حرم مكي هو التجسيد لعقيدة وحدة دين الله ، التي جاء بها الإسلام ، فإسلامية القدس ، وإسلامية موقعها في الصراع حولها ، يضيف للإمكانات الوطنية الفلسطينية

و عدقت القومية العربية، ولا يتعلق منها من هذه الإسلامية بمسجد القدس، هي - كما شرت - في مصلحة سائر الصخرة المقدسة من سائر المسجد بالديانات

* * *

وإذا كانت هذه هي حقيقة البعد الديني في قضية القدس، فإن وعي هذه الحقيقة، واستدعاء طاقات هذه الأبعاد الإسلامية تزيد وتشد عند تعميم البعد الديني في الموقف الحالي إزاء هذه المدينة المقدسة، صحيح أن الوجه الذي تُقدَّم وتُصوَّر مشروع صهيوني استيطاني عنصري، لكنه ليس كغيره من المشاريع الاستيطانية العنصرية. كالذي قام في جنوب أفريقيا مثلاً. وإن الوجه البعد الأسطوري لهذا المشروع الاستيطاني الاستعماري العنصري، يجعل من استدعاء البعد الديني الإسلامي موقفاً من هذه القضية ضرورة موضوعية، فضلاً عن أنه دين و عقيدة

فهذا المشروع الاستيطاني العنصري، الذي قام لاحتلال القدس وفلسطين، قد تبلور أول ما تبلور، في "لاهوت اليهودية السياسي" الغربي، انطلاقاً من فكرة الأسطورية حول "الرب يوحنا"، وعودة المسيح - عليه السلام - ليحكم الأرض ألف سنة سعيدة، بعد معركة "هرمجدون"، والذي جعل من جمع اليهود وحشدهم في فلسطين، وبهود القدس، وإقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، أي جعل من تحقيق الحلم الصهيوني، الذي يتمثل في البروتستانت في الغرب. ثم حدث تشابه بين هذا المشروع البروتستانتي من الجماعات اليهودية، فتلقفته الصهيونية - كحركة قومية عنصرية - والإمبريالية الغربية، بعد رحلتها عن الشرق الإسلامي - وخبثها عن أقلياته بوصفها - كموضع أقدام في المشروع الاستعماري. فاجتمعت في هذا المشروع الاستيطاني الاستعماري العنصري عناصر متعددة ومركبة. منها:

١ - البعد الديني في لاهوت النصرانية الغربية.. وهو الذي بدأ بروتستانتياً، ثم مارس التأثير على الكنيسة الكاثوليكية الغربية، حتى حملها على شرع "التهويد التبشيري" بدلاً من تحقيق الاعتراف اليهودي بالنصرانية" - فهي لا تسعى لجعل "اليهود يهوداً" وتتحدث عن "ادماج المسيح في إسرائيل" وتعمل بنفس

فقد في «تفكير مسيحي»، ورد في «الأخبار والصلوات» تحت باب «الحرب» من العهود، بعد أن عاشت قرونًا تبجل «صكوك الغفران»!

٢ ـ وتبعه الاستعماري العسكري ـ السياسي والديني البوصلي ولندي ـ هوبكينز (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) البوصلي الديني هو أول من دعا إلى توصيف هذه الأساطير الدينية في خدمة مشروعه الاستعماري والصليبي». وأسس الاستعماري الأنجلو ـ ساكسوني عقد مع «إيكو» الفرنسي ـ معاهدة «سكس ـ بيكو» سنة ١٩١٦م سيطرت الدولة العثمانية، وتوزيع أجزائها العربية بين القوى الاستعمارية. وقد أقامه عثمانًا في قريته «سيدمير» ـ قضاء «كوركشير» مكتوب عليه «التهجي بـ قدس». فالقدس هي هدف الاستعمار الغربي العثماني، كما هي هدف اللاهوت الصهيوني العربي.

وعندما دخل الجنرال الإنجليزي «اللنبي» القدس سنة ١٩١٧م، تقمص صورة ملوك الحروب الصليبية، فقال: «اليوم انتهت الحروب الصليبية!» ويومها نشرت مجلة «بنش Punch» الإنجليزية رسمًا يمثل «ريتشارد قلب الأسد» ملك الصليبيين ـ وهو يقول: «الآن تحقق حلمي!»

أما الحرب الفرنسي «الجنرال» الذي يرفع راية العلمانية الفرنسية المتطرفة ـ فهو الذي يذهب عند دخوله دمشق سنة ١٩٢٠م إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ليركله بقدمه، ويقول: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين»!

وتبعه العلماني العربي، يحالف ويعاون ويسانده ويوصف البعد اللاهوتي العربي في الصراع على القدس وفلسطين.

٣ ـ وتبعه الإمبريالي الأمريكي المعاصر، جامع بين الديني والاستعماري، هاهو يوصف «المسيحية الصهيونية»، في خدمة «تديين» الاغتصاب الصهيوني العربي للقدس وفلسطين. فـ «الكونجرس» الأمريكي، عندما يقرر في سنة ١٩٩٥ نقل السفارة الأمريكية إلى القدس ـ وبنائها على أرض الأوقاف الخيرية الإسلامية! ـ يعلن، في مقدمة قراره هذا: «أن القدس هي الوطن الروحي لليهودية»! مع أن هذه القدس لم يرها في اليهودية موسى عليه السلام، ولم تذكر قط في التوراة اليهودية ولا كتب داود وسليمان عليهما السلام، ولم تعش فيها يومًا في تاريخها المطول، فهي مصر اليهود ـ هي ويسوع رسلاً ولا أنبياء قلمًا وعلى

كانت القدس الوطن الروحي لليهودية؟! إن الإمبريالية تحول الأساطير إلى دين تدعم به الاغتصاب!

٤ وأخيراً، بعد العصرنة الصهيونية، أي حول اليهودية إلى عقيدة صرفة، لا علاقة لها بالشعب اليهودي الذي أرسله الله على موسى، عليه السلام، فتعريف اليهودي في دائرة معارف كتابها الاستعماري، هو "من هو من أم يهودية" أي أن هذا التعريف "الحيوبولوجي"، أو العرقي الذي يحدد يهودية اليهودي، فاليهودي من أم يهودية - حتى ولو كان من أب ملحداً يصبح يهودياً، ومن شعب الله المختار، أصبح حق في الأساطير والاغتصاب للقدس وفلسطين!!

هكذا، تواجه في أساس وفلسطين استعماراً استيطانياً إمبريالياً عنصرياً، يوظف الأسطورة والأوهام والأكاذيب، لتجعلها دين يدعم مشروع الاستعماري، و«روحانية» تغلف الاستيطان العنصري، فهل شرك يعبد يدعم الباطل بالأساطير ويهلل - نحن نأيد حق الفلسطيني الوطني، ونقف بقوى بجانب الوحي الإلهي، وصدق الاعتقاد الديني، ونضع صفحات وقع الحضارة والتاريخ؟

إن القدس يحتفون من «الأسطورة» الصراع حول القدس وفلسطين - حتى حسب قولهم هم كشفهم، الذين لا يعرفون قيمة «الأسطورة الأصلية»، التي ورثوها عن الأجداد في هذا الصراع التاريخي الطويل، وهم يعيدون بناءها بمرعون من الأمة نفسي أنسجها في هذا الصراع، فيحتجون بذلك كله الأعداء في هذا الصراع

إن الإسلامية المقدس، هي «الحق» الذي تقوم به الأساطير الأعداء، وهي لا تنتقص من الإمكانات الوطنية الفلسطينية والعربية، وقفت الشعوب العربية في هذا الصراع، وقد تضعف بهما، وقفت الأعداء الإسلام وإمكانات الإسلام

كما أن هذه الإسلامية لا تهدد الجهاد بشبهة «الحرب الدينية»، التي يخافها كثيرون، لأن إسلامية القدس هي وحدها الضمان لشروع قدسيتها بين جميع أصحاب المقدسات، من كل الديانات، ومن ثم فهي الضمان لعدم احتكارها، وهو الاحتكار الذي يهددها بالتهويد في هذه الأيام.

# لقد كتبوا علينا صدام الحضارات

بعد سقوط المنظومة الماركسية ومعسكرها وأحزابها وحكوماتها سنة ١٩٩١م، وزوال «الشقاق الاجتماعي» الذي استمر داخل الحضارة الغربية لأكثر من سبعين عامًا - الشقاق بين «الليبرالية الرأسمالية» و«الشمولية الشيوعية» - غلبت الليبرالية الغربية عن انتصارها «التاريخي» لا في إطار حضارتها الغربية فقط وإنما - مدعية عالمية - بل وأبدية - هذا الانتصار. وكان كتاب «فوكوياما» الأمريكي الجنسية الياباني الأصل [نهاية التاريخ] لإعلان عن دعوى وادعاء هذا الانتصار.

ولقد حظي هذا الكتاب الصغير في وطن العروبة وعالم الإسلام باهتمام كبير، ونقد كثير، ورفض شديد. وقبل أن يهدأ عاصفة [نهاية التاريخ] أثار الكاتب الأمريكي - اليهودي الديانة - «صامويل ب. هنتنجتون» عاصفة أشد، بدراسته عن [صراع الحضارات] وهي الدراسة التي استقبلت في شرقنا العربي والإسلامي - أيضًا - باهتمام كبير، ونقد كثير، ورفض شديد!.

وعلى خلاف هذا الاستقبال الغاضب والرافض، الذي استقبلت به هاتان الدراستان - فلقد كان الأولى - في تقديري - أن نتأملهما جيدًا، وأن ننظر إليهما باعتبارهما إعلانا صريحًا وصادقًا عن «واقع موقف» الحضارة الغربية من الأمم والقوميات والحضارات غير الغربية، و«واقع موقف» الليبرالية الرأسمالية من الفلسفات والمذاهب الاجتماعية الأخرى. ومن ثم كان علينا أن نشكر «فوكوياما»، و«صامويل هنتنجتون» على الصدق في إعلان حقيقة واقع الموقف الغربي من «الآخرين».. كل الآخرين.

فـ«فوكوياما» أراد أن يعلن - في لحظة صدق، عبرت عن «واقع موقف»

الحضارة العربية - أن سقوط الشيوعية يعني السيادة الأبدية للنيرالية الرأسمالية العربية - ومن ثم لنظامها «العالمي» الجديد على كل المذاهب والفلسفات الاجتماعية، وعبر كل القارات والأمم والحضارات.. وإلى الأبد!..

وكان مفترضاً - وواجباً - أن يولي الاهتمام، ويقدم الشكر، لمن يصارحنا بحقيقة موقف العرب من المذاهب والأيديولوجيات والحضارات غير العربية فمن يصارحنا بحقيقة موقفه منا أولى بتقديرنا وشكرنا - حتى ولو كان عدواً لنا - من أهل الغواية والمراوغة، الذين يقدمون «الفكر» في ثياب «الديبلوماسية»، ويتحدثون عن «حوار الحضارات» في ذات الوقت الذي يجتاحون فيه كل مقومات ذاتيتنا الحضارية، من الثقافة إلى القيم إلى الاقتصاد وحتى السيادة الوطنية.. وحق تقرير المصير..

ولقد تابعت الكثير مما كتب عن دراسة «هنتنجتون» حول [صراع الحضارات] ووجدت - في كثير من هذا الذي كتب عنه - رفض الذين كانوا يتمنون لو أن الرجل لم يعلن حقيقة الموقف العربي من الحضارات غير العربية!!..

لقد نظر الكثيرون إلى حديث «هنتنجتون» عن:

● أن الصراع القادم هو صراع حضارات، تمايز بينها وتحدد أوطانها وحدودها «الثقافات»

● وأن أشد وقائع هذا الصراع قائم بين الحضارة العربية وبين الحضارة الإسلامية، والحضارة الصينية

● وأن على العرب أن «تُحيد» الحضارات الأخرى، حتى يصرع الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية، ثم يستدير ليحتوي تلك الحضارات التي «حيّدها»!

لقد نظر الكثيرون إلى حديث «هنتنجتون» هذا باعتباره «رأياً» فانتقدوه.. بينما الرجل يتحدث عن «واقع موقف» الحضارة العربية - التاريخي - في هذا الميدان وعن تصاعد حدة «واقع» هذا الموقف، بعد سقوط الشيوعية، وفراغ الليبرالية الرأسمالية العربية من نزيف الشقاق والانشقاق الاجتماعي الداخلي، الأمر الذي

أعاد توحيده «الأحداث» على أرض مصر ـ لكل دور وقوميات الحضارة العربية، وزاد من قوة قبضتها في مواجهة «الآخرين»!

[illegible] لإعلان عن «واقع موقف» عربي [illegible] وكما أشرنا في [illegible] دراسة لهذا العصر [illegible] وبوسائله المتعددة [illegible] حتى نظرة الغربي [illegible] في «واقع» علاقة الحضارة العربية ـ الإسلامية ـ تاريخيا ـ بغيرها من الحضارات، نوجد أن هذا «الواقع ـ التاريخي» قد حدد هذه [illegible] التي تحدث عنها «المستشرقون» في تاريخ الشرق [illegible] وبيئته وحضوره واستعماره واستغلاله [illegible] هذه الغزوة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ـ٣٢٤ق م] ـ التي خضعت الشرق للإغريق والرومان، حتى أزاحتها الفتوحات الإسلامية، بعد عشرة قرون! وعبر الغزوة الصليبية، التي جاءت لتستعيد الهيمنة على الشرق، وتمت حملاتها الثلاث عبر أربعة قرون [٤٨٩ ـ ٦٩٢هـ / ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] وصولا إلى الغزوة الحديثة، التي بدأت بالكشف الغربي عن العالم الإسلامي في سقوط «غرناطة»، وقتلاع الإسلام وحضارته من غرب أوروبا ـ في الأندلس [٨٩٧هـ / ١٤٩٢م] ثم تمثلت بغزوة قلب العالم الإسلامي مصر والشام ـ بحملة نابليون [١٧٦٩ ـ ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ / ١٧٩٨م] وهي الغزوة التي لا [illegible] مستمرون بمخلفاتها وآثارها حتى كتابة هذه السطور! [illegible] الحديث عن فضائح «المستشرقين» عن حقيقة موقف الغرب من هذا الصراع..

وعبر هذا «الواقع التاريخي» الذي تحدد «النزعة الصراعية» بخصائص الحضارة الغربية [illegible] غيرها من الحضارات، وبراء الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص [illegible] التي كانت التي قد تعرفت على الحضارة، والتي تنكشف عن «المركزية الغربية»، التي جعلت وتجعل الحضارة الغربية بؤرة الكون الأخير، وبرايتها الممنوحة في عقيدة الحضاري ومطوماتها تقييمه [illegible] وهي النزعة التي اتخذت طريق «الصراع» في علاقة بالآخرين، التي وجدت من هذا الصراع مع الآخرين، وفي الحروب التي بدأت بالتهم وخصوصيتهم وهويتهم وغيرهم، انبعثت من ذلك كله «رسالتها الحضارية النبيلة!» التي تقوم بها لتمدين هؤلاء الآخرين!!

وبهذه الحروب الثلاث، التي ذكرت وأثمرت هذه «النزعة الصراعية» في البنية الفكرية للحضارة الغربية..

١ ـ الهيجلية ـ نسبة إلى «هيجل Hegel» [ ١٧٧٠ ـ ١٨٣١م] ـ في فلسفة التاريخ وهي التي قامت على سحق العصر الجديد للعصر القديم، عبر التصارع مع مكوناته، والحلول محلها.

٢ ـ والداروينية ـ نسبة إلى «داروين Darwin» [١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م] ـ في فلسفة الشيوع والارتقاء وهي التي قامت على صراع الأحياء، وسحق الأضعف للأقوى والأصلح للأصلح.

٣ ـ والصراع الطبقي الذي في ماركسية «ماركس ـ Marx» [١٨١٨ ـ ١٨٨٣م] أو في الليبرالية الرأسمالية ـ والذي يعتمد «الصراعية» و«فلسفة الصراع» في علاقات الطبقات الاجتماعية ـ فالطبقة البرجوازية تصارع الطبقة البروليتارية لتفقيرها، وتريحها، وتربحها، وتسود بكل الثمرات والامتيازات والمنافع البورجوازية في الليبرالية ـ. ـ والبروليتاريا عند الماركسيين ـ.

لقد ساعدت هذه النظريات الثلاث، التي صنعت هوية الحضارة الغربية بصنعة الفلسفة الصراعية، على «إماتة» الضمير الغربي، بأن «الصراعة» مع الحضارات غير الغربية ليس أنه هو الأقوى، فهو ـ إذن ـ الأصلح ولذلك، فإن صراعه ضد الحضارات الضعيفة، والتي هو وريثة للأمم المستضعفة، هو «قانون علمي». و«رسالة نبيلة» يقوم بها هذا الرجل الأبيض لإزالة «الماضي» وموروثه والمؤسسات «الضعيفة»، وإحلال النموذج الحضاري الغربي «القوي» و«الأقوى» في العالم كله، عبر انطلاقات المتنوعة «لفلسفة الصراع»!

أما استهداف الإسلام وأمته وحضارته وعلمه، فهو أوفر من جهود الغرب في صراع الحضارات، فإن واقع الصراع التاريخي شاهد عليه وصورة الإسلام ورسوله ﷺ وصورة المسلمين، في الذكر والمخيلة والثقافة والإعلام الغربي شاهد ـ حتى ـ عليه وكلمة القائد العسكري الإنجليزي «جنرال اللنبي» ـ الذي كتب عن الفتوحات العربية وحتى تاريخ «مشكلة الشرق الأوسط» مع العرب فقال: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط يعود إلى القرن السابع الميلادي»!! أي إلى ظهور الإسلام وهي كلمة خطيرة ـ وحدها ـ بموقفها الكلي والشامل!.

ذلك كله - ولمثله الكثير - كنت أتمنى - مع أقصى الفلسفة الصراع في علاقات الحضارات، ومع تركيز المنهاج الإسلامي في التدافع والتسابق بين الحضارات على طريق التقدم - أن ينظر إلى هذا الذي قدمه «صاموئيل هنتنجتون» باعتباره أقصيته صدق» عبرت عن «واقع الموقف الغربي» في العلاقة «بالآخرين» وهو «الواقع» الذي جربنا تاريخنا والذي صارحنا «هنتنجتون» بأنه ثابت ومستمر في المستقبل القريب والبعيد!..

● فالرجل لم يتجاوز حد عدد كما يصنع كتاب غربيون آخرون ومعهم أغلبية المغربيين من مثقفينا - بالقول بواحدية الحضارة عالميا - وإنما قال الرجل بتعددية الحضارات على هذا الكوكب الذي نعيش فيه وهو قد حدد «الثقافة» معيارًا لتعدد وتمايز الحضارات في «المدنية» وعلوم المادة، وعمران الواقع المادي تشترك كل الحضارات لكنها تتمايز وتختلف في عمران النفس الإنسانية، الذي تصنعه الثقافات وعن هذه الحقيقة المهمة قال «هنتنجتون» «إن الحضارة هي كيان ثقافي..».

وعن التعددية الحضارية - في عالمنا - والمعايير الثقافية التي أثمرت هذه التعددية، يقول «وليس ثمة حضارة عالمية، بل عالم من الحضارات المختلفة وفي العالم سبع أو ثماني حضارات كبرى.

١ - الحضارة الغربية..

٢ - والصينية الكونفوشيوسية..

٣ - واليابانية

٤ - والإسلامية

٥ - والهندية

٦ - والأرثوذكسية السلافية..

٧ - والأمريكية اللاتينية..

٨ - وربما الأفريقية..

وهي حضارات تتمايز عن بعضها البعض باللغة، والتاريخ، والثقافة، والعادات وأهم من ذلك الدين

وأبناء هذه الحضارات المختلفة لديهم آراء مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان، والفرد والجماعة، والمواطن والدولة، والآباء والأبناء، والزوج والزوجة، وكذلك آراء متباينة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسئوليات، والحرية والسلطة، والمساواة والتنظيم الهرمي.

وهذه الاختلافات هي نتاج قرون، ولن تختفي في القريب العاجل، إذ إنها أكثر جوهرية من الاختلافات بين الأيديولوجية السياسية والنظم السياسية»

هكذا حدد «صامويل هنتنجتون» في دقة وموضوعية - موقفه مع تعدد الحضارات - ومع دور الثقافات المتمايزة في التعددية الحضارية، ودور الدين والثقافة في التمايز الحضاري - وتنوع الأمم - ومن ثم الحضارات - في فلسفات رؤية الكون والماضي والمستقبل، وتصورها المتنوعة للمثل والمعايير الحاكمة والمنظمة للعلاقات بين الفرد والمجموع، وبين الأمة والدولة، وبين الحرية والمسئولية، وبين الآباء والأبناء، وبين الزوج والزوجة، وفي المساواة والتراتب الهرمي.. إلخ.. إلخ..

● وبعد هذا الانحياز الموضوعي والدقيق للتعددية الحضارية في عالمنا، ورصد معاييرها، والإشارة إلى أصالتها وثباتها، وعلو تأثيراتها على الأيديولوجيات السياسية والنظم السياسية، أفصح «هنتنجتون» عن الموقف الغربي المنحاز لفلسفة الصراع بين الحضارات، لا كموقف ذاتي اختاره وينشر به ويدعو إليه «هنتنجتون»، وإنما «كحتمية واقعية» للموقف الغربي إزاء الحضارات الأخرى

فهو مجرد «واصف» لتاريخ هذا الصراع الغربي مع الحضارة الإسلامية، عندما يقول «إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ ١٣٠٠ عام، وعلى كلا الجانبين يُنظر إلى التفاعل بين الإسلام والغرب على أنه صدام حضارات»..

وهو بالنسبة للمستقبل - مستقبل العلاقة بين الغرب والحضارة الإسلامية

يفصح عن المخصصات التي تعتمها الكثير من دوائر صنع القرار الغربي ومراكز التفكير الاستراتيجي الغربي ـ وهو مدير أحد ثلاث المراكز بمجموعة هارفارد الأمريكية ـ.. فيقول «إن الثورة المركزية للصراع، في المستقبل القريب، سوف تكون بين الغرب والدول الإسلامية والآسيوية.»

● ويعد هذا «الإفصاح» عن «موقع غربي» من صراع الحضارات ـ تاريخياً ومستقبلاً ـ يأتي دور «هنتنجتون» ـ كمفكر استراتيجي غربي، يهودي الديانة ـ ليشير على حضارته الغربية بكيفية إدارة هذا الصراع الحضاري، مستقبلاً، ومراحل هذا الصراع، وأولويات المعارك فيه.

فهو يشير على صناع القرار في حضارته الغربية ـ بتقسيم مراحل الصراع المستقبلي إلى مرحلتين:

الأولى ـ وقريبة ـ هي مرحلة «مدى القصير» وفيها ينصح «هنتنجتون» الغرب بتوحيد عالمه الحضاري، وتجييش كل أدوات الصراع من «حرب» في الاقتصاد، إلى السياسة، إلى الثقافة، إلى الفكر، إلى المؤسسات الدولية. وتركيز الصراع ضد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية. فيقول «إنه على المدى القصير من مصلحة الغرب»:

● أن يعزز تعاونًا أكبر، وتوحيداً في نطاق حضارته، وعلى وجه الخصوص بين مكوناتها الأوروبي والأمريكي الشمالي.

● وأن يدمج مجتمعات شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية في الغرب، وهي مجتمعات ذات ثقافة قريبة من ثقافة الغرب.

● وأن يعزز علاقات تتعون مع روسيا واليابان، ويحافظ عليها.

● وأن يحول دون تصعيد الصراعات المحلية بين الحضارات إلى حروب كبرى بين الحضارات.

● وأن يحد من توسع القوة العسكرية لدول الآسيوية والإسلامية.

● وأن يخفف من تقليص القدرات العسكرية الغربية.

● ويحافظ على التفوق العسكري في شرق وجنوب غرب آسيا.

● وأن يستغل الخلافات والصراعات العربية في الحضارات الأخرى

● وأن يقوى المؤسسات الدولية التي تعكس وتسوّغ المصالح والقيم العربية، وتضفي عليها الشرعية.

● وأن يروّج لاشتراك الدول غير العربية في هذه المؤسسات.

فالرجل كأستاذ وخبير في الاستراتيجية، ومقرب من دوائر صنع القرار، يضع لقومه «جدول أعمال» الصراع الحضاري في «المرحلة المدى القصير»، وهو «جدول أعمال» نرى تطبيقاته قائمة على قدم وساق!.

والمطلوب من العرب - في «المدى القصير» من هذا الصراع الحضاري:

١ - توحيد كيانه الحضاري، وتعزيز التعاون بين دوائره، ودمج شرق أوروبا بعربها، وكل أوروبا مع أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية، أي العرب الثقافي والقريب من ثقافة العرب. وهو العرب النصراني بمذاهبه المختلفة.

٢ - والتعاون والتحييد وضبط الصراعات في كل الدوائر الحضارية، بل واستغلالا حتى تناقضات العرب في داخل الحضارات غير العربية، لكي يكون التركيز، في الصراع، ضد الإسلام والصين.

٣ - وتقليص القدرات العسكرية للمسلمين والصينيين، وإيادة القدرات العسكرية العربية، والحفاظ على التفوق العسكري العربي «في شرق وجنوب غرب آسيا»، أي في مواجهة الصين والمسلمين!

٤ - وتقوية المؤسسات الدولية التي تنهض «بتسويغ المصالح والقيم العربية، وتضفي عليها الشرعية، وإشراك الدول غير العربية في هذه المؤسسات» - التلزم بالمواثيق «الدولية»، المسوّغة للمصالح والقيم العربية - على النحو الذي رأيناه وتراه في المؤتمرات والمواثيق التي عقدت وتعقد تحت مظلة المؤسسات «الدولية» - من «السكان» - في القاهرة - إلى «المرأة» - في بكين - إلخ. إلخ

تلك هي معالم خطة «هانتنجتون» للمدى القصير، والمرحلة الأولى من صراع العرب الحضاري، الذي ينصح بتركيزه على الخطاتين الإسلامية والصينية!

و مرحلة لثانية ـ من هذا الصراع العربي ضد الحضارات غير العربية ـ مرحلة «ما بعد صومين» والتي هي بمثابة «هنتنجتون» مرحلة لاحتواء العربي للحضارات غير العربية، التي نجحت في «تحديث» وقعها، مع حفاظها على جانب وهويتها الحضارية غير العربية!

فبعد المرحلة الأولى من هذا الصراع الحضاري مرحلة كسر شوكة الحضارة الإسلامية، و الحضارة الصينية تأتي مرحلة احتواء الحضارات الأخرى، غير العربية، التي حققت العرب في المرحلة الأولى من هذا الصراع، وخاصة تلك التي نجحت في ميدان القوة و التحديث العسكري و الاقتصادي وبعبارات «هنتنجتون» «أما على المدى الأطول، فسيكون اتحاد إحراءات أخرى أمرا مطلوبا فالحضارة العربية هي حضارة عربية وحديثة معًا وقد حاولت الحضارات غير الغربية أن تكون حديثة دون أن تصبح غربية وحتى يومنا هذا لم تنجح في هذا المسعى إلا لياباان وسوف تواصل الحضارات غير العربية محاولاتها للحصول على الثروة و التكنولوجيا والمهارات و المكنات والأسلحة، التي تمثل جزءاً من كون الحضارة حديثة كذلك ستحاول تلك الحضارات أن توائم هذه الحداثة مع ثقافتها وقيمها التقليدية أما قوتها الاقتصادية والعسكرية فسوف تزيد بالنسبة للغرب ومن ثم، يتوجب على العرب ـ على نحو متزايد ـ

● أن يحتوى تلك الحضارات الحديثة غير العربية، التي تقترب قوتها من قوة الغرب، بكل قيمها ومصالحها تختلف إلى حد كبير عن قيم ومصالح العرب وسوف يستمر ذلك من الغرب أن يحتفظ بالقوة الاقتصادية والعسكرية اللازمة لحماية مصالحه فيما يتعلق بهذه الحضارات»!.

هكذا عبر وأفصح «صمويل هنتنجتون» عن رؤية العربية للمستقبل الحضاري للعالم الذي نعيش فيه

فالعرب تتصور حضارتها متفردة «العرش حضاري» تعني فهي مركز و منهج والطريق الذي يجب على الآخرين تقليده، أو الالتحاق به، بتسمية «حداثة» كل هذه النماذج، أو في بعض حداثة لأن العربية الرأسمالية هي ـ بالنسبة للعالم كله ـ هي نهاية التاريخ و«العربي» الذي ليس من هذا الوعي

ويتصور «الصراع» بين الحضارات المتعددة سبيلاً لإلغاء هذه التعددية الحضارية - في المدى الطويل - فبعد استجماع الغرب وحدته، وتجييشه لكل إمكاناته، وتحييده للحضارات غير الغربية، تنجز مهمة المرحلة القصيرة والأولى من هذا الصراع الحضاري: كسر شوكة الحضارة الإسلامية، والحضارة الصينية. مع ضبط كل الحضارات داخل المؤسسات «الدولية» التي تقوم بمهمة «تسويغ المصالح والقيم الغربية، وإضفاء الشرعية عليها»!..

أما في المدى الأطول، وبعد الفراغ من كسر شوكة الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية - فسيكون الهدف الغربي في هذا الصراع الحضاري هو احتواء بقية الحضارات غير الغربية، تلك التي تحجب في تحديث مجتمعاتها عسكرياً واقتصادياً، وهي الحضارات التي سبق «وحيدها» الغرب في المرحلة الأولى من هذا الصراع. وذلك ليتحقق للغرب الانتصار الأعظم في هذا الصراع، منفرداً بالقوة والتحديث والهيمنة على العالم، دونما شريك. وخاصة إذا جمع هذا «الشريك» بين التميز الثقافي والحضاري وبين نهضة التحديث وقوة التحديد!

* * *

هكذا يفكر الغرب كحضارة - في دوائر الفكر الاستراتيجي، وفي دوائر صنع القرار.. وليس بالضرورة كإنسان، بتعميم وإطلاق..

ففي الغرب تيارات فكرية تدرك أن هذه الفلسفة الصراعية - التي تتبناها كثير من مراكز الدراسات الاستراتيجية الغربية، وتطبقها وتمارسها كثير من الحكومات الغربية - تدرك أن هذه الفلسفة الصراعية تمثل «خطيئة فكرية»، ووبالاً على الإنسانية جمعاء. وبعض هذه التيارات الفكرية - في الغرب - يسعى إلى الحوار الصادق مع تيارات التجديد الإسلامي، لاكتشاف وتحديد وبلورة القيم الإنسانية المشتركة بين مختلف الحضارات والأنساق الفكرية والعقدية لمختلف الأمم والشعوب والديانات والثقافات.

أما الغرب، الذي أفصح عن «واقعه الفكري والعملي» صامويل هانتنجتون، فهو هذا الذي رأيناه ورأينا مخططه في صراع الحضارات.

ولنا أن نسأل من ذا الذي يستحق منا التقدير والاحترام.

- صاموئيل ب. هنتنجتون الذي تحاول تبني التعددية الحضارية في عالم ثم أفصح عن الموقف الغربي من هذه التعددية الحضارية؟.

- أم هؤلاء الذين يخدعوننا عندما يتحدثون عن وحدة الحضارة العالمية، التي عدت بما يسمونه «العولمة» - قرية واحدة - متجاهلين أن أهل هذه القرية ليسوا سواء، فمنهم القاتل ومنهم المقتول، ومنهم المدجج بكل أسلحة الدمار ومنهم من نزع سلاحه، ومنهم مغتصب الأرض والعرض والسيادة، ومنهم المشردون المحرومون من أبسط الحقوق في تقرير المصير، ومنهم الذين يحتاجون اقتصاديات وقيم وثقافات الآخرين، ومن تتعرض هوياتهم وخصوصياتهم لأشرس ألوان الاجتياح!!.. من يستحق منا الاحترام.

«هنتنجتون» الذي يصارحنا بحقيقة الفكر السائد في الغرب، مراكز الدراسات الاستراتيجية.. وفي دوائر صنع القرار -؟

أم دعاة «العولمة» و«الكوكبة» و«الكونية» أولئك الذين يطعمهم الإعلام الغربي بالمصطلحات التي يصكها، وبمضامين هذه المصطلحات، ينطلقون في الترديد والتكرار والتقليد؟!.

أعتقد - والله أعلم - أن «صاموئيل ب. هنتنجتون» هو الجدير بالاحترام!

* * *

وإذا كانت هذه هي الرؤية الغربية للعلاقة بين الحضارات، والتي تأسست على «النزعة الصراعية» التي صنعت فكرية الحضارة الغربية، فإن صراعات آلهة اليونان بعضهم مع بعض وحتى صراع الحضارات الذي تحدث عنه هنتنجتون، وعن الصراعات الدينية والمذهبية والقومية والاستعمارية، فإن للإسلام رؤية أخرى للعلاقة بين الحضارات..

● فالإسلام يرفض فكرة الواحدية والمركزية الحضارية، بالحياة إلى فلسفة «التعددية»، كرؤية كونية. فالواحدية هي فقط للذات الإلهية، وما عدا الله - سبحانه وتعالى - يقوم على التعدد والتساند والتوازن والارتفاق

يرى الإسلام هذه التعددية سنة إلهية وقانون تكويني لن لا تبديل له ولا تحويل في الشعوب والأمم والقبائل وفي الألسنة والألعاب والخصوصيات وفي الشرائع والملل والنحل.

وفي المناهج والثقافات والحضارات.. فالتعددية هي الأصل والقاعدة والقانون ولعلم يجب أن تكون «منتدى حضارات»، لا حضارة واحدة تصرع وتصرع غيرها من الحضارات!.

● وللدين الإسلامي مصرع حضارات، ليس حتمية «التكوين» في علاقات الحضارات بعضها ببعض الآخر، لأن في تكوين «موازنة»، ربما أفضى إلى «التنمية والتقدم»، للدين الإسلامي مصرع، هو «فلسفة التدافع» بين الحضارات

وهذا التدافع هو «الحراك» الحضاري والثقافي والحضاري، أي التنافس والتسابق بين الحضارات، بغية المواقف الصلبة، والممارسات الخيرة، والعلاقات المتحرفة، دون صرع يصرع الأطراف الأخرى فتبقى التعددية وهي الباعث والمسابق على تجديد العلاقات بحيثية إلى درجة التطور. ولعلنا في العلاقات بين مختلف الطرفين

«التدافع الحضاري» - الذي هو حراك وتنافس وتسابق، يحفظ على التعددية - ويتوسط بين «الصرع» وبين «التكوين» هو فلسفة الإسلام وتسيير الحضارات الإسلامية في العلاقات بين الحضارات

وفلسفة التدافع هذه ليست مجرد «فكر إسلامي»، حتى تكون من مناهج «الاجتهادات والتغيرات»، وإنما هي «دين ثابت»، ومنهج سطره الوحي الإلهي في القرآن الكريم، باعتباره سنة من سنن الله في الاجتماع الإنساني، تحكم العلاقات بين الأفكار والشرائع والناس والأقوام والحضارات

قال الله - سبحانه وتعالى - عندما يخاطب رسوله ﷺ فيقول له: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (٣٤) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ فصلت ٣٤، ٣٥ - فالله - سبحانه - معالم هذا المنهج - فالتدافع لا يتبع «الصرع الآخر وإلغاءه»، وإنما تحويل

موقفه وموقعه من «التعددية» - التي تجعله من هو «المسلم» - في موقع وموقف «الوسي الحميم» - الذي يجعله من أهل «الحسنات» فيتم «الخير» لموضعه «التدافع» مع بقاء «التعددية الفرقاء المتمايزين»

من ثم جاء القرآن الكريم عن هذه «المسلمة الإسلامية» سبيل «التدافع»، لا «الصراع» باعتباره الخيار الذي يدفع حيوية ويحقق للأرض «النماء» ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [البقرة ٢٥١]

فالصراع حضاري وتقابضه - سكون حضاري - من سنن التعدد والصلاح والإصلاح، وإنما سبيل التقدم هو وسطية التدافع والتدافس والتسابق على طريق التقدم والنهوض والخيرات.

وعندما أذن الله - سبحانه وتعالى - لرسوله ﷺ وللمؤمنين بالقتال - فقد كان أخرجوهم من ديارهم وفتنوهم وعذبوهم في الدين - جاء الحديث عن «التدافع»، ليكون عبارة القتال الذي فُرض على المسلمين وهو كُرْهٌ لهم هي تعديل موقف المشركين من موقع التعدي المشرك المعتدي إلى موقف الإسلام، فهي «الخير» لا «الشر» و«الهلاك» ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴿٣٨﴾ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴿٣٩﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴿٤٠﴾ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج ٣٨ - ٤١]

فصفة «التدافع الحضاري» هي للدين الإسلامي «بصفته» صانع الحضارة العربية - وبذلك ازدهرت في ظله الإسلام وحضارته وأمته - التعددية في الدين والبشر والشرائع والمعتقدات والمقولات والعادات والأعراف، فعاشت الديانات - الكتابية والوضعية - ومؤسساتها، في ظلال حضارة الإسلام.

على حين جعلت «الرؤية الصراعية» الحضارة العربية تضيق حتى بالتعددية

المذهبية داخل النصرانية! ولا تزال هذه «النزعة الصراعية» تحدد للغرب منهج العدوان وطريق الصراع ضد سائر الحضارات، وخاصة حضارة الإسلام، على النحو الذي رأيناه في «اعتراف» «صامويل. ب. هنتنجتون»!.

* * *

ولهذه الحقائق - التي ربما جالت فيها الحروف - فإن العقل العربي والمسلم في أمس الحاجة إلى إدارة حوار فكري - موضوعي وجاد وصبور - حول هذه القضية قضية العلاقة بين الحضارات.

- صراع هي هذه العلاقة؟

- أم تدافع وتنافس وتسابق، تحافظ على التعددية في هذه الحضارات؟

* * *

# قارعة سبتمبر.. هل قسمت العالم إلى فسطاطين؟!

● هل تقسم العالم - بعد أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١م - في أمريكا - إلى فُسطاطين - ومعسكرين اثنين: فسطاط الكفر، وفسطاط الإسلام؟

لقد تذكرت، عندما سمعت هذا التقسيم للعالم ما بعد «قارعة سبتمبر»، أدبيات الحركات الماركسية، في مصر والبلاد العربية، وكيف أن تقاريرها، وتحليلاتها ومحاضراتها كانت تبدأ غالبًا بعبارة تقول: «تنقسم العالم إلى معسكرين: معسكر الاشتراكية والشيوعية والتحرر والسلام، ومعسكر الرأسمالية والإمبريالية والحرب والعدوان».

وعندما برزت حركات التحرر الوطني، وتبلورت كتلة عدم الانحياز، التي كانت تكافح ضد معسكر الرأسمالية والإمبريالية، وفي ذات الوقت لا تنضوي تحت علم الشيوعية، راجع الماركسيون العرب تحليلاتهم، فلم يعودوا يرددون هذه «المسلّمة اللازمة» التي تقسم العالم إلى معسكرين اثنين، وأضافوا إلى هذا التقسيم معسكر عدم الانحياز وحركات التحرر الوطني، واختفى من أدبياتهم ذلك التقسيم القديم.

وقد أدركت، كذلك، عندما سمعت هذا التقسيم - من بعض الإسلاميين - للعالم إلى فسطاطين، أحدهما للكفر والثاني للإسلام، ذاكرت المفارقة التي جمعت بين هذا التقسيم الثنائي الحاد وبين تقسيم «جورج بوش» - الصغير - للعالم إلى معسكرين اثنين، أحدهما يضم الذين يطاعون الأمريكا ضد ما سماه «الإرهاب» والآخر يضم الذين لم يساقوا بساق القطيع مع أمريكا في حربها العالمية غير المسبوقة، ضد هذا «الإرهاب». وهي مفارقة جمعت بين «جورج بوش» - الصغير - وبين أعدا أعدائه من الإسلاميين الذين قسموا العالم ذات التقسيم!

[illegible] أعتقد [illegible] التي [illegible] [illegible] [illegible]

مأمنه، وتركه تصميره، دون إكراه ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون﴾ [التوبة ٦].

من هذا منطلق الإسلام بين المتعايشين، بدين سماوي للبشر، الله سبحانه وتعالى وبين المشركين الذين لم يجحدوا وجود الخالق المبدع، لكنهم أشركوا مع الخالق الأصنام التي زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى!

نعم تحدثت آيات القرآن الكريم عن هذه التنوع وعن هذه التعددية في صفوف وأصناف المشركين وهو منهج علمي وموضوعي في دراسة الواقع كما أنه نموذج للعظمة في العدل بين الناس.

* * *

وكذلك صنع المنهج الإسلامي في وصف الكتابيين، فميز بين اليهود وبين النصارى. فالأولون هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، بينما النصارى هم أقرب مودة للمسلمين. ثم هو لم يصنع جميع النصارى في سلة واحدة، وكما ميّز بين الموحدين منهم - أتباع «آريوس» (٢٥٦ - ٣٣٦م) من مثل الحبشة، وأهل شبه الجزيرة الأيبرية الذين يتعبدون على شريعة عيسى - عليه السلام - وقد سمعوا ما أُنزل إلى الرسول في القرآن عن عيسى ومريم تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق. يميز الإسلام بين هؤلاء النصارى، وبين النصارى الذين عبدوا المسيح وأمه وأحبارهم ورهبانهم من دون الله، فوصفهم في القرآن بالصفات الكفر، من والشرك أيضاً.

وكذلك صنع سماحة القرآن مع فصائل وشعب اليهود أيضاً. فمع حديثه عن عداوتهم الأشد للمؤمنين، وعن تعصبهم الذي جعلهم يجحدون الله ويقتلون الأنبياء، نجد القرآن يضع قيمة للعدل معهم عندما لا يصنفهم جميعاً في سلة واحدة وقطيع واحد، ويرى فيهم ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ۝ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ۝ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليمٌ بالمتقين﴾ [آل عمران ١١٣ - ١١٥].

بينما منهم الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ۝ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]

ويؤكد القرآن الكريم هذا المنهاج عندما لا يعمم في الحديث عن هؤلاء الكتابيين، وإنما يستخدم حرف التبعيض - «من» - للتمييز بين الفرقاء والمذاهب والتوجهات داخل هؤلاء اليهود، فيقول: ﴿من أهل الكتاب﴾ [آل عمران: ٩٩]، وعندما يتحدث عن ﴿طائفة من أهل الكتاب﴾ [آل عمران: ٩٩]، و﴿كثير من أهل الكتاب﴾ [البقرة: ١٠٩] دونما تعميم وإطلاق.

ومع اشتراك الفرس والروم - يوم ظهر الإسلام - في التحيز والظلم والاستعمار ونهوض الإسلام لتحرير ضمير الإنسان من القهر الديني والثقافي والحضاري الذي مثله الفرس والروم في ذلك التاريخ، إلا أن الإسلام لم يسوّ بين هذين الطاغوتين - الفرس والروم - فميز القرآن الكريم بين المتدينين منهم بالديانة السماوية - الروم - وبين المجوس، وذلك عندما تحدث عن حزن المسلمين لتغلب الفرس على الروم، وفرحهم يوم يأذن الله بانتصار الروم النصارى على الفرس المجوس: ﴿الم ۝ غلبت الروم ۝ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ۝ في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون﴾ [الروم: ١-٤]

ففي إطار قوى التحيز والهيمنة هناك أيضاً فروق، لا يعممها منهاج الإسلام في رؤية الآخرين، وفي العلاقات مع هؤلاء الآخرين. ولقد جاء فقهاء الإسلام فانطلقوا من هذا المنهاج القرآني فميزوا أصناف الكفر ودرجاته. فهناك كفر جحود للحق، وكفر جهل وتقصير، وهناك كفر من بلغته الدعوة، وكفر من لم تبلغه الدعوة، أو بلغته مشوهة، ودون إقامة للحجة وإزالة للشبهات. ولو تحدث الفقهاء عن «كفر النعمة» الذي هو غير «كفر الاعتقاد»، وقالوا بوجود «كفر دون كفر»، ولم يضعوا كل ألوان الكفر في سلة واحدة ولا في قنطار واحد.

هذا هو المنهاج الإسلامي - العلمي والموضوعي والأعدل - في رؤية الآخر، والحكم على هذا الآخر. فالآخر ليس واحداً، ولا هو كتلة صماء يمكن وضعها

في سنة وحدة ... وكل فيه ألوان وأطياف، وبين فصائله وشعوبه وعقائده وملاهبه ومذاهبه فروق وفروق وفي كل فئة هذه الفروق ... ودقة بالغة في التمييز بين مصالح الإسلام وبين مصالح بعض فرقه هذه الأحزاب تطلق رصاصة تكون عشرات الرصاصات الإسلامية في معظم مع الأحزاب ويكفي عدم سماح الإسلامي في مطار إلى الأحزاب

* * *

وقد كان وقع عدم نجاح مشروع شاشه لتطبيقه، وتحول أمريكا تجاهه خطيرة عريضة، والمهمة التي تعلم، قد أتاح لأمريكا ـ بعد القارعة سبتمبر ـ رهبة الأحزاب، واستغلال مشكلات كثير من بلدان مع "الإسلام المتزمت" و"الصحوة الإسلامية"؛ وذلك لجعل هؤلاء الأحزاب يتبنون ... أو تحرك هذه الحرب التي تشنها أمريكا بتطويع الإسلام وصحوته لهيمنتها ... وذلك لا يستغني أن تتصرف بعض الحكام عن وعي الفروق بفكريه ومصلحته ... من ضعف هؤلاء الأحزاب.

لقد استغلت أمريكا مشكلة روسيا مع الإسلام في الشيشان ... واستغلت روسيا الأمر، وأخذت تبرز للعالم، وبخاصة الدول التي تهمها حدودها مع الشيشان وروسيا، فصمت الروس عن وجود أمريكي وأقواعد الأمريكية في جمهوريات آسيا الوسطى!

واستغلت أمريكا مشكلة الصين مع الإسلام في تركستان الشرقية، وحرص الصين على عدم الصدام مع أمريكا، حتى تستكمل مقومات القطب العملاق، وسعي الصين لكسب تأييد الأمريكي لوحدة "التبت" مع الصين لما فصمت الصين تصمت على الوجود الأمريكي على حدودها!

وكذلك صمت أمريكا عندما استغلت مشكلة الهند مع الإسلام في كشمير وباكستان؛ لتجعل الهند ترحب بالوجود الأمريكي على حدودها!

وقد كانت أمريكا قد تحدثت عن "الأشرار والمتطرفين" التي تقصدها في حرب "الإسلام المتزمت" وبين مقصد هذه الدول، فإن منهج الإسلامي في رؤيته لهم

وفي تعاملنا مع قوى العالم يجب أن لا يغفل عن كشف الأشياء والعناصر التي تعادي مقاصد الإسلام في التحرر والوصول، وعادة ما تقوم الدول، ومن ذات هذه المقاصد لدى هذه الدول والأمم والجماعات، على أن تستثمر الأرض المشتركة بين مقاصد الإسلام هذه ومن تعارضها عند الآخرين، وأن تستثمر جيوبها، مهما كانت رقيقة، وأن تنميها.. علينا أن نتصنع بعض الذي تصنعه أمريكا مع هذه الدول محاصرة المقاصد، وتتمنى الأشياء والعناصر، ستقتضي من أحد مفردات أمريكا بالهيمنة على مقدرات العالم اليوم، أن يدرك الفروق بين بيانات التفكير وألوان التصنيع في دخل أمريكا نفسها. فقد كان "التحالف المسيحي" الذي يضم اليمين المسيحي، والصهيونية المسيحية، وقوى الضغط الصهيونية، يستخدم الآن مع الإسلام ويعتقد أصحاب القوة فيه أن في أمريكا قوى أخرى، لها مصالح أخرى، ومن الممكن استكشاف الفروق بينها وبين هذا اليمين المسيحي، واستكشاف الأشياء والعناصر بين أفكارها ومصالحها وبين سياسات ومصالح.. ثم نجد لنا حلفاء منها، وأن نحيّد قوى عديدة حتى داخل أمريكا ذاتها.

إن الكاثوليك الأمريكان غير البروتستانت.. وليس كل البروتستانت في أمريكا مع اليمين المسيحي والمسيحية الصهيونية، والعنصريون المتفوقون هناك غير «الأنجلوساكسون»، والسود غير المسلمين وذلك فضلاً عن العرب والمسلمين الأمريكان. فنحن أمام عالم من الفروق والتمايزات، يحتاج إلى فقه واقع، وإلى اجتهاد يتمثل فكر سياسي لا يكتفي بأن يضع الآخرين في قبضة واحدة. وكفى الله المؤمنين عناء التفكير والاجتهاد!!

أن يتم تحرير وضع الآخرين في سلة واحدة، وقد تم تقسيم بعض هؤلاء إلى قسطين اثنين، فإن يكون من الخطأ الفادح تجاهل حقيقة الواقع الذي نعيش فيه والخلط الفاضح للإسلام في تعاملنا مع الآخرين. وقد أعطى هذا الخلط "اليمين المسيحي" المتطرف الموجهة إلى صحوة الإسلام، وهي تتحالف مع المؤسسة العربية والصهيونية اليهودية، وحنون القوة الذي يوجهون به الإسلام

* * *

# أمريكا.. هل هى شعب الله المختار؟!

إذا كانت العقيدة اليهودية العنصرية، التى تدعى أن اليهود هم الشعب المختار والمقدس والمعصوم، دون كل الشعوب، وفوق جميع الشعوب، وضد سائر الشعوب، قد جعلت اليهود يتصرفون مع كل الأغيار والآخرين بتصرف الفعال لما يريد، والذى لا يُسأل عمّا يفعل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥) فلا تطبق عليهم قرارات المنظمات الدولية من الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى مجلس الأمن ولا اتفاقيات حسب عام ١٩٤٩م ولا مواثيق حقوق الإنسان الفلسطينى والعربى.

إذا كان هذا هو حال العنصرية اليهودية، فبدون أن رعاة البقر الأمريكان قد أرادوا منافسة اليهود فى هذا الميدان، فحسبوا وهم الأقوى أنهم الأحق بأن يكونوا شعب الله المختار!

● يلوثون العالم، ويحرقون الأوزون، دون أن يخضعوا لمواثيق السنة التى ارتضاها العالم

● ويستخدمون الفيتو بإسراف، على النحو الذى يخصص إرادة ما يزيد عن مائتى دولة تمثل الأسرة الدولية فى الأمم المتحدة

● ويتخذون الإنسانية فى التفرد باستخدام الأسلحة الذرية ضد المدنيين فى مدينتى «هيروشيما» و«نجراكى» سنة ١٩٤٥م

● ويمزقون ضد العالم فى العودة إلى دوامة سباق التسلح، بالذرع الصاروخى.

● ويقسمون العالم - وفق هواهم «ودون شورى» و«ديموقراطية» إلى «خير

«شر» و«الإسلام وإرهاب» و«الحضر وبربرية»، وجعلت أنفسهم «من صنع الله وتعهد خير» و«السلم والتحضر» وجعلت الآخرين هم «شر وبربرية وإرهاب».

● وبعضوا أنفسهم حق في شن حروب لاستئصاله ضد حكومات تم لا تعجبهم، ضاربين عرض الحائط بمبدأ سيادة الدول الوطنية وبقدسية على أرضها وهو المبدأ الذي قامت على أساسه شرعية الدولية منذ نشأتها وحتى الآن.

● وأخيرا يريدون تقرير عصمة جيش أمريكا «يعني أنه لا يريدون ولا يسمحون» بمعاقبة أي محكمة جنائية للدولة التي ارتضتها الإنسانية حكما وحكما في الخروج على قواعد ومواثيق حقوق الإنسان.

***

إن وزارة خارجية أمريكا، قد قررت مؤسسة مهووسة في عقيدتها شعب الله المختار، بل والاستثناء بهذه العقيدة العنصرية دون الأمم والشعوب، ثم قسمت أنفسهم الصهيونية وإسرائيل!

فمن كتاب أمريكا وبربريتها في سبعة كتب مقدس! نفس الأمر يكمن «الهيربرت أ. مستر ويتج» - والذي طبعت منه خمسة ملايين نسخة في أمريكا - وهي روح ومؤلفه من خلال برنامج «التعليم عن» الذي كان يذاع على أربعمائة محطة تليفزيونية في جميع أنحاء العالم - في هذا الكتاب نرى الأساس الديني لدعوى أن وزارة لخارجية أمريكا، ومعهم الإنجيليون هم شعب الله المختار، وهم يمتلكون حق وعد الرب لإبراهيم، عليه السلام، فهم ذريته الإسرائيلية بموجب قطع الرب بهذا العهد الذي، بدوره، يستمد شرعيته وقدسيته من كتب خمسة رسمية سبعة مقدسة! وفي مقدمتها نص قسم «العهد القديم» عند المسيحيين، حاكمة بمعاملة لاحقة سعيدة بني إسرائيل على خطيئتهم وسوءاتهم!

وبذلك هم يستخدمون لتبرير سوءاتهم - التي هي في الأصل من وضع الأحبار والحاخامات اليهود - هو واحد من «أعجب المكر» في وضع هذه الشعب لأمريكان بهذه العقيدة العنصرية في التصور - لدرجة أن نصف الشعب الأمريكي والعشرين هو فقط الإسرائيلية لأمريكية - يدعون أنهم في معظمهم هم

كتاب، الذي وضعه نفس الأمريكي الذي يؤسس هذه الفرقة العنصرية ويحقق لها السيادة على الناس الذين يحكم أمريكا هذه الأيام.

* * *

● لقد أصبح كتاب أمريكا والعجائب في سنوات قليلة الكتاب المقدس الأمريكي الذي تدرسه جميع الجماعات اليهودية المؤسسة للعنصرية والاستعلاء على شعب الله المختار. فالوعد الذي وعد الله لإبراهيم - عليه السلام - أن يجعل له من ذريته أمة كثيرة وسلالة كثيرة جداً وأن يعطي الأرض التي أرها لإبراهيم لهذه الذرية وأن ترث هذه الذرية بوابات مدن أعدائها، وأن تغزو وتستعمر مدن الأعداء (سفر التكوين ١٧: ١ - ٦، ٢٢: ١٦ - ١٨)

● ثم يشرع مؤلف «التفسير الأمريكي» - وليس اليهودي - ليقول لأسطبر، فيقول: إن هذا الوعد هو للأمريكان والإنجليز، وليس لليهود الذين هم مجموعة صغيرة محدودة العدد، وليسوا أمة كثيرة، بينما الأمريكان والإنجليز هم الذين ينطبق عليهم وصف الأمم الكثيرة والنسل الكثير

● ثم يقول إن هذا الوعد هو «لإسرائيل»، وليس «لليهود»، فاليهود جزء من إسرائيل، وليسوا كل إسرائيل، فهم نسل يهوذا، وهو نسل من الأسباط الاثني عشر، ثم إنهم قد فقدوا عضويتهم، وتم تنكيلهم وتشتيتهم، وانقطعت سلسلة ملوكهم منذ عهد سبط الصدق، بعد عصر «السبي» الذي لأسباط العشرة فقط سرائيل واختفى الذين سجنوهم وعذبوهم وقتلوهم وشردوهم ولم يبق ويمكن به فقد حمل عنهم وتشتتهم سبي بابل مع حدي سبط «الصدق» بن يوشيا - [١] ثم بني جدد [١] ثم بني بابل سجنة أمريكا - [١١] فسجنة الوعد بالأرض وشروطه ولعنه واستعباد شعوب وورثة أعداء حسب هذا الوعد بادي في الإمبراطورية الأمريكية والإمبراطورية البريطانية وقد جمع الأمريكان والإنجليز بين هذا الوعد المادي الوعد الروحي باتباعهم ليسوع المسيح، عليه السلام

● ويستشهد نفس المؤلف على أن الأمريكان والإنجليز - وليس اليهود هم شعب الله المختار، بأن الوعد الإلهي وسوء المقدسة قد حصلت من هذا

شعب مختار شعبٌ مستعبد يقهر شعوب ويسوى على بلاد [illegible] يصدق على الأمريكان والإنجليز هم بقية عشر قبائل تسع عشر ليس على اليهود أي أن أيدات ومعجزات وصفات السوفو وقداسة الاصطفاء بشعب مختار هي لاستعمار البيض وقهر شعوب، وهي بالتالي ومعجزات أمريكية وإنجليزية لم تظهر على أيدي اليهود المقهورين مضطهدين!!

هذه هي الأسطورة المؤسسة لكون عامة الشر الأمريكان وبعبهم الأحمر هم شعب الله المختار، تعبيرا بشعوب [illegible] ، بل الأسطورة عن تعبيرا، وبين يمثل حتى حجم بقية البشر، اليهود الشرفاء، وقهرهم بشعوبه المختص به من الله لإبراهيم ولذرية إبراهيم!!

● أن نصوص التوراة والعهد القديم التي سقيت نفس الأمريكي؛ في أسس دولته الإمبريالية الأمريكية على تعاليمه، فإن هو قد [illegible] اليهود قد اختفت عن عرش داود، فإن خطط [illegible] يهود سيأتي يوم سيأتي [illegible] بهم سبط يهوذا [illegible] الأسباط العشرة الأخرى يهود [illegible] هم إسرائيل التي كانت في حرب ضد اليهود!

● وإن سبط كان يشير دائما في "سفر الرؤيا" وهم البشر الذين سيعودون "والسامرة" هي عاصمة التي سكنها الأسباط العشرة من إسرائيل بعد نفيهم بسبط يهوذا ـ كانوا يسكنون المنطقة اليهودية ـ حوالي السامرة

● وبعد موت بيت "صادق" بيت يهوذا ثم عرش عرش داود في السامرة، وليس في يهوذا ويهوذا، وبيت يوشفة حفيد بيت "صادقيا" التي صعدت لبني "إسرائيل" في رحلته إلى "بابل" فأصبحت روحة بيت إسرائيل [illegible] بيت التاريخ "أصبحت إسرائيل مستقلة في بريطانيا . فإسرائيل، التي سقوطها إيرلندا، كان يحكمها سلالة من ملوك بيت يوشفة حفيد بيت "صادقيا" ، الأسباط . لإيرلنديون كانوا عبارة عن حالية لم تقع تحت النسبي الأشوري"

● "وأن عرش داود، الذي عيد عرسه في بريطانيا، قد نقل أيضا، عقد عرسه في إسكتلندا، ونقل في مدينة [illegible] وتم عرسه في لندن، وكان بيت جورج يمتلك حريطة (مرسوم) يوضح بكل جلاء كيف يعتبر هذا [illegible] صدقيا.. وداود.. وحتى آدم"

● ولما كانت «سوء» و«وعد الإلهي لإبراهيم تتحدث عن «بنين» يصبحون «أمة عظيمة»، هم من كثيرة. وسوف كثيرون. وأنهم «سوف يرثون بوابات أعدائهم» أي يصبحون شعب استعمار. ويتوسع مستعمراتهم وتمتد من «حر» سريفسة إلى كل «بحة بعلم» فإن هذه الصفات تنطبق على الأمريكان والإنجليز، لا على اليهود.

● ثم يكمل سلسلة المفكر الأصولي اليميني الديني الأمريكي، يتحدث عن سفر الآباء المؤسسين لأمريكا من إنجلترا، حيث أمر «الله سرائيل» شعب الله المختار إلى أرض خصبة، التي زاروا فيها «أرض الميعاد»، والتي لجأ في خروجهم أنهم محاكاة خروج بني سرائيل من مصر إلى أرض كنعان. ولذلك، رأيهم يطلقون على ولاياتهم أسماء عبرية. ويسمون أبناءهم أسماء عبرية ويدرسون اللغة العبرية في مدارسهم وجامعاتهم، حتى إن أول دكتوراه منحتها جامعة «هارفرد» سنة ١٦٤٢ م كان عنوانها «العبرية هي اللغة الأم»، وهو كتاب طبع في أمريكا هو أسفر الموجود!

● ولا يكتفي آباء بني سرائيل الأمريكان، بدعم وتأسيس المشروع الصهيوني في فلسطين، ويكتفون في هذا المشروع مجرد دعم وتأييد لاستعمارهم هم فلسطين، فالأمريكان - وليس اليهود - هم بنو سرائيل المختارون لامتلاك أمريكا وأرض الموعد التي بشر بها إبراهيم «وبشارة «أن مسيح» قريبهم هم الذين سيأتون ليعرش المسيح في بلدهم لأنهم بنو سرائيل في فلسطين عند عودة المسيح. فأحفاد قريبهم هم البريطانيون، وحفاد بنو هم الأمريكان. وليس من حق اليهود أن يطلقوا على أنفسهم اسم بني سرائيل». ثم يعلن هذا المفكر الأمريكي على الملأ «نعم إن شعب الله المختار إسرائيل»!

● هكذا تحدث هذا الأمريكي «الهيبرت أرمسترونج» عن الأساطير المقدسة المؤسسة للإمبراطورية الأمريكية حتى تكون أمريكا الدولة المقدسة، التي تبشر بصياحها للعالم التحقيق لوعد الله لإبراهيم، عليه السلام!

وقد كان بعض المسلمين وما زالوا يحاولون تحريف الأحاديث

لهم. وهل قام حكم اليمين الديني في أمريكا اليوم إلا على التحاريف والأساطير؟!.. إننا أمام خرافات نستخدم في دعم الباطل.. فلم لا نستخدم حقائق الإسلام في دعم قضايانا العادلة، واستخلاص حقنا السليب من براثن الأعداء، الغارقين في الأساطير، والزاعمين أنهم العقلانيون المتقدمون؟!

* * *

# الحرب الثقافية على الإسلام

في كتاب حرب [illegible] ثقافية [illegible] الأمريكية وعلم [illegible] لا [illegible] فصحت بكتابة لإخبره "الرئيس [illegible] وثائق و [illegible] و [illegible] و لأفعاله و لأسماء [illegible] . فقد حرب [illegible] في [illegible] بوساطة [illegible] مركزية لأمريكه (١ ا ١) ضد [illegible] وحركات [illegible] ، وعده لانحياز، وكل امتداد للرأسمالية الأمريكيه والهيمنة الغربيه، به سعده ثقافة احداثة لعربية والأمريكية

وفي هذ [illegible] ي يريد صفحاته في [illegible] و [illegible] يحس لأعلى بثقافه، [illegible] ن حرب "الشرسه [illegible] ودعمة" [illegible] وعلى [illegible] هدفي، ستمرت طوب [illegible] حرب لمدة [illegible] ي قرية خمس [illegible] بوساطه لأفلام، كتب، صحف و [illegible] و [illegible] و [illegible]

ـ وتصوير الأمريكي لشبهه «الكل الإسلام»، طامحاً وطامعاً في طي صفحة الإسلام من الوجود، بتصوير كل المسلمين.

ـ وتليين للدين الأمريكي، المتحالف مع الصهيونية العنصرية، يشبع عقد مقدسات المسلمين وسذاجتهم الوطنية وحقهم الديني في التدين والتمسك

ـ ومشروع هذه السياسة والاقتصادية الأمريكي ـ كما عبر عنه «بوكويدا» في عدد «النيوزويك» الصادر في ديسمبر سنة ١٩٩٢ تحت عنوان «الحرب داخل الإسلام» تعبر صيغة استعمارية تتعامل مع «الشرق» وحدة يقسم قطعة معرفية كبرى مع ماضيه ـ كما صنع به «التوراة» في النموذج العثماني للتوحش التركي ـ وإسلامه عثماني، يتحمل من مواجهة الشامل للدين والدولة والاجتماع، ويمثل تحدياً حضارياً للغرب المتفوق عسكرياً وماديّاً!

فهذه الحرب الثقافية، التي فصلت وقائعها وثائق كتاب (الحرب المقدسة) هي في حقيقة الإسلام عند المستشرقين الصهاينة الحرب الأم، لأن الثقافة عندهم، والمعلومة لقيم الدينية هي التي تميز بين الحضارات

وهو قد أشار على صانع القرار الأمريكي أن يعد هذه الحرب مع الإسلام، ثم يشن الكوبرنيكوسية نفسه ثم يستدير على الحضارات الأخرى، التي حذره حتى يفرغ من الإسلام وتصوير ... حيث نصب أمريكا تعلم في قلب هذه الحضارات وقيمها؛ لتؤسس هيمنتها على العالم، واستغلالها لما فيه من ثروات

ولقد كانت بداية الإسلام، الذي عبر عنه بأنه العدو، هو سقوط حكم الشيوعي، لأن الإسلام هو الأكثر استعداداً لثقافة وحضارة سيطرة على العالم، والأكثر امتلاكاً للنموذج البديل متجاوزاً الغربي وعلى أمته هو نفسه الدليل للنموذج الغربي في التحديث!

إن هذا الصراع الحربي والسلمي الذي يصنع صناع القرار وقائع وأحداث ليحوم الشرس على الإسلام وثقافته وقيمه، في الكتب والصحف والمجلات والقصص والروايات، وعلى شاشات التلفاز. وذلك فصلاً عن صور الدماء التي تحمر الأسنة عندما تهدد الحرب في بؤر التوتر العالم من المسلمين في

كشمير إلى الشيشان، ومن قبل ذلك في السودان والبلقان، [illegible] الدعوة [illegible] إلى الربط بين وقائع هذه الحرب، وأن يسلكها في إطارها الجامع.. وأن لا يتعامل معها «بالقطاعي»، فيقع في «البلاد ذرية» وعدم الفهم [illegible] هذه المعارك التي تطفح [illegible] الإعلام ومواد الثقافة ومناهج التعليم في أمريكا وكثير من البلاد العربية.

[illegible] «جدلي» بين وقائع هذه الحملات الشرسة المتواصلة ضد الإسلام وقيمه وثقافته، والنظر إليها في إطار هذه الحرب المعلنة، هو الدرس الأول الذي نستفيده من قراءتنا لكتاب (الحرب الباردة الثقافية: المخابرات المركزية الأمريكية في عالم الفنون والآداب)، كما أن هذا الوعي هو الذي سيعيننا على التصدي لمحاولات الأعداء كسر شوكة الإسلام، إما بالشكل المباشر والفج، أو بواسطة العملاء الثقافيين والحضاريين!

* * *

● فعندما تصدر أمريكا أوامرها إلى عديد من الحكومات العربية والإسلامية بتغيير مناهج التعليم الديني، تقف فقط عند الشعائر والمناسك والعبادات والشكليات والآليات، مع إلغاء كل ما يتعلق بالسياسة والاجتماع والاقتصاد والدولة والثروات والعزة والجهاد وتاريخ الغزوات والفتوحات والتحرر الوطني والولاء والبراء، مع اختصار «حصص» هذا التعليم الديني في بعض البلاد - من أربع وعشرين ساعة أسبوعيًا إلى أربع ساعات فقط!

● وعندما تضع الصهيونية العنصرية على رأس جدول أعمال المفاوضات متعددة الأطراف منذ نحو عشر سنوات - «بند ثقافة السلام» بدعوى أن الإسلام يحض على كراهية اليهود!

● وعندما تصدر أمريكا التعليمات، وتعتمد الميزانيات لتكوين «الدعاة والأئمة المستنيرين!»

● وعندما يطلب الرئيس الأمريكي «بوش الصغير» من الحكومات العربية والإسلامية حذف ثقافة «الشهادة والاستشهاد» من مواد الفكر والثقافة والإعلام

ثم نجد من يقتني في بلد عربي - أن الاستشهاديين فلسطينيين يسمونهم - وهي منتحرون أي إلى جهنم وبعيد بئسه - ثم نجد نفس الرجل لا أمريكيه يظاهره - تضع هذه فتوى على شرائط كاسيت، ويعممها من مصر!

● وعندما نجد الأدباء يقشعرون، لدى حتى لو يهجوم على الإسلام وقيمه وثقافته ومقدساته، يتحولون في الحال في مجتمعات عربية يستقبلهم روح الدين وتحميهم أجهزة الأمن ويهبون عليهم جوقة عاصفة كبرى من «الويل» إلى غيرها!

● وعندما نجد دون ديموقراطيات وحريات وحقوق الإنسان العربية تتحول - بالنسبة للمسلمين فقط - في دول أوروبية تعتقل المسلمين دون أدلة وتحاكمهم وتحكم عليهم بما يسمى «الأدلة السرية» التي لا يعلمون عنها شيئاً، كي لا تفعو عن أنفسهم وزرها، ويعاملهم في مطارات معاملة مجرمين - تحكم عليهم الإسلاموفوبيا وتسحبهم بشراسة، وتخضع عقولهم وقلوبهم ومؤسساتهم لخبرة وثقافة في صورة جديدة من صور محاكم التفتيش في أخصب أوروبا وكنيسة المسلمين جاهزة في إسبانيا قبل خمسة قرون!

● وعندما نرى العرب يحتفلون سنة ١٩٩٢م بذكرى مرور خمسمائة عام على قتلاع الإسلام من أوروبا - الأندلس - ستقوم عربطة في سنة ١٤٩٢م فيقيم الدورة الأولمبية في ذات البلد الذي شهد هذا الاقتلاع والانحسار - «برشلونة» وتعرض في هذه المناسبة المسرحيات والأفلام والأناشيد التي تذكر بهذا الحدث!

ثم يشن العرب - في نفس عام هذه الذكرى سنة ١٩٩٢م - حرب الإبادة المسلمي البوسنة والهرسك، كي لا تقوم «دولة» سلامية في أوروبا، مع السماح لكل الأعراق والقوميات والديانات في يوغوسلافيا السابقة بحق تقرير المصير والاستقلال! ثم يقف هذا العربي ذاته من ثورات الاستر تجيات العربية ضد كل مسلمي بدءاً من الأكراد في كوسوفو في السحق - دون كل الديانات والقوميات!

● وعندما نجد العرب عن بكرة أبيهم يتمكبرون أقل من صوت كنائس في

[illegible] ـ من الانتقاص عن سيادة أندونيسية، بدعوى حق هؤلاء [illegible] في تقرير المصير ـ ويحدون ذلك الأمر لوثيق في حروب [illegible] ـ بينما تحرم العرب الشعوب الإسلامية ـ في فلسطين وكشمير والبوسنة ـ من تقرير مصيرها، رغم قرارات الأمم المتحدة التي تؤكد لها هذه الحقوق!

● عندما يحدث ذلك ـ وبكثير الكثير من مثل ذلك ـ ونقرأ عنه ونشاهد وقائعه لابد أن نعرف أنها وقائع ضمن خطة في حرب شاملة معلنة ومعدة، على جبهة الفكر والثقافة والعلوم والآداب والإعلام، ضد الإسلام وأمته وعلمه بمهد فيها الفكر للممارسة والتطبيق!

نعم! هي حرب معلنة وليست وهماً من الأوهام، ولا أثراً من آثار «نظرية المؤامرة» كما يشيع المغرضون. لأن المؤامرة هي «التدبير السري» بينما نحن أمام مواقف معلنة على العالمين، وموضوعة في الممارسة والتطبيق.

● وقد سبق المفكر الفرنسي «إرنست رينان» (١٨٢٣ـ١٨٩٢م) ـ في تصنيفات القرن التاسع عشر ـ أن اتهم العرب بالقصور عن الفكر المركب والتفلسف ويوافقه رد عليه جمال الدين الأفغاني (٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) رداً مفحماً في محاضرة شهيرة ألقاها بباريس. وقد ظل بعض المستغربين يرددون في وقائع هذه الحرب الثقافية وحملاتها الشرسة ضد الإسلام وقيمه وأمته «الانتقائي» وكوقائع متناثرة لا رابط بينها. وقد ظن البعض ـ ممن يصدق عليهم دعوى «حسن النية» أن الأمر سيكون وقائع هذه الحملات في إطار جامع يهدف حرب تغريبية معلنة ضد الإسلام، فهؤلاء هم خلف مصابيح الأسلاف القدامى، الذين ادعوا في الفكر المركب والفلسفة الكونية الشاملة عجزاً تفردت به الحضارة الإسلامية ـ من مثل «الفلسفة الموحدة للكون» و«الاستخلاف للإنسان» وعلوم «أصول الفقه» و«أصول الدين». وذلك فضلاً عن «المنهج التجريبي» الذي أفاد العقل والعلم من «المنطق الصوري» اليوناني العقيم.

فأي تعقيد مختار، وفي طريق مستقيم يرى ـ ما وقائع هذه الحرب المعلنة على الإسلام؟!

* * *

# الهجمة الأمريكية على الإسلام

ما أن وقعت الواقعة، ونزلت «قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م» بأمريكا، حتى أعلنت كثير من الدوائر الغربية - السياسية والفكرية والإعلامية والدينية - «حرب عالمية» على الإسلام، وهي حرب - في ضوء ما أسلفنا الإشارة إليه - لم تبدأ من الصفر، ولم تخترع جديدا غير مسبوق، في إطار «نزعة الصراعية» الغربية ضد الحضارة الإسلامية، وإنما الجديد فيها هو «مستوى الحدة والغضب» الذي كشف الستار عن مكنونات «ثقافة الكراهية السوداء» التي يمور بها الموروث الثقافي الغربي تجاه الإسلام.

ولقد كان السعي إلى «عملية الإسلام» وتحويله إلى صيغة نصرانية تقف عند العبادات والشعائر والوصايا الأخلاقية، تاركة شئون الدين والدولة والسياسة والاجتماع والاقتصاد للنموذج الغربي والقيم الغربية هو القاسم المشترك في كثير من التصريحات والكتابات التي طفحت بها هذه الحرب الإعلامية الغربية على الإسلام وأمته وحضارته، منذ ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م وحتى الآن.

● فالرئيس الأمريكي «جورج بوش - الصغير» الذي أعلن حربا عالمية قبل بدء التحقيقات في «قارعة سبتمبر» قد وصف هذه الحرب - في ١٦ سبتمبر - بأنها «حملة صليبية»، وذلك عندما وجه أصابع الإبل وصواريخ - الاتهام إلى الإسلام المقاوم للاستعمار والصهيونية، وضمن كل ألوان المقاومة الإسلامية، ومنظمات الجهاد الإسلامي، التي تسعى لتحقيق التحرر الوطني وحق تقرير المصير «بالإرهاب»!

● وفي ١٧ سبتمبر سنة ٢٠٠١م - أي بعد ستة أيام من الأحداث - وصف «توني بلير» - رئيس وزراء انجلترا - هذه الحرب بأنها «حرب المدنية والحضارة (في الغرب) ضد البربرية في الشرق»!

● وفي ٢٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م أعلن «سيلفيو بيرلسكوني» رئيس وزراء إيطاليا أن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية. ولابد من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام، الذي يجب أن يهزم؛ لأنه لا يعرف الحرية ولا التعددية ولا حقوق الإنسان. وأن الغرب سيواصل تعميم حضارته، وفرض نفسه على الشعوب. وأن الغرب قد نجح حتى الآن - في تعميم حضارته وفرض نفسه - مع العالم الشيوعي، وقسم من العالم الإسلامي...»[1]

● وفي ٨ نوفمبر حدد الرئيس «بوش» الصغير أن الحضارة الغربية التي أعلن الحرب للدفاع عنها - هي حضارة اليهود والمسيحيين. وأن هناك في الجانب الإسلامي من «يحرض على قتل اليهود والمسيحيين». وبذلك، حمّل الرئيس «بوش» ملكاً عربياً - هو ملك الأردن - «رسالة تحذير موجهة إلى عدد من الحكام العرب، تطالب بضرورة أن يتوقف الإعلام في بلادهم عن «الحملة الكراهية لأمريكا وإسرائيل»[2]!

ووجدنا أحد أقباط المهجر - في أمريكا - والمشرف على «ملحق المهجر» في صحيفة (وطني) القبطية - مجدي خليل - يهاجم البرنامج التليفزيوني المصري «رئيس التحرير» - الذي يقدمه الإعلامي القدير الأستاذ حمدي قنديل. وصفاً هذا البرنامج «بأن أكثر ما فيه دعائي تحريضي، يحض على الكراهية، وخاصة تجاه أمريكا وإسرائيل»[3]!!

ثم توالت التصريحات، غير المسئولة! من «المسئولين» الغربيين، ذوي التأثير في «صناعة القرار» الغربي فوجدنا:

● السناتور الديموقراطي الأمريكي «جوزيف بيرمان» - الذي كان مرشحاً لمنصب نائب الرئيس في الانتخابات الرئاسية الأمريكية السابقة - ومرشح الرئاسة القادمة - يعلن «أنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التي تراها ضرورية. فالشعارات التي أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهي عند الحدود الأمريكية، بل تتعداها إلى الدول الأخرى»[4]!

● أن وزير العدل الأمريكي «جون أشكروفت» فلا يكتفي بالحديث عن حرب تخصره ضد الإرهاب، والحرص على نشر وتدعيم قيم التحضر والرقي بين علاقة المتحضرين، عندما يصف به المسلمين، من يؤمن به ويعبد ويقدس نبيًا من المسلمين، فيقول: «إن المسيحية دين رسل حرب فيه الله يموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يقتل الله فيه من الشخص رسل الله يموت من أجل هذا الإله»[5]!!

● ووزيرة خارجية أمريكية لسابقة «مادلين أولبرايت» تعلن أن «شعب معشر لأمريكيين فيه ترتفع قيمته فوق جميع الشعوب، وتعتد رؤيته بعد من جميع الشعوب»[6]!! . فتتحدث بلغة استعلاء، التي سبق وعانت هي منها!!

● ويعلن كاتب الصحفي - اليهودي الأمريكي - القريب من دوائ صنع القرار السياسي أن حرب الحقيقية هي ضد الفكر الإسلامي وتربيته والتعليم الإسلاميين فيكتب «توماس فريدمان» من «بيشاور» قائلًا: «إن الحرب الحقيقية في المنطقة الإسلامية هي في المدارس، ونحن يجب أن نقرع من جميع العسكرية ضد ان لأن بسرعة، ونخرج وعندما نعود - إلى أفغانستان - يجب أن نكون مستعدين بمكتب الحديثة، لا القديمة وفقط، عندما نعود نريد جديدة، وجيل جديد. يقول سياسات، كما يجب شطائر ... بلى أن يجد هذا، لن نجد أصدقاء لنا هنا»[7].

ثم يكتب، مهددًا المدارس الإسلامية، التي تعترف منهجها بأنه لكل قوم ورسالات والشرائع، وتقول حتى للمشركين ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ فيقول، في معرض انتقاده للمملكة العربية السعودية بسبب صفحه في شكل رسمه من الرئيس «جورج دبليو بوش» إلى الشيخ صالح الشيخ وزير الشئون الإسلامية في المملكة العربية السعودية: «إن مشكلتكم مع الشعب الأمريكي أن مدارسكم والآلوف من المدارس الإسلامية التي تمولها حكومتكم وجمعياتكم الخيرية في مختلف أنحاء العالم تدرس أن غير المسلمين أدنى من المسلمين».

ثم يقتبس صياغة «إسلام معتدل» فيقول: «نريدكم أن تغيروا الإسلام حتى يحترم ويقدس التسامح الديني ... وإذا تعذر عليكم أن تفعلوا هذا وجهتم مشكلة، وليس

مملكة عربية سعودية، في حرب على الإسلام، كما كان الاتحاد السوفيتي في حرب على الشيوعية مصدر الأمن والأيديولوجية والأفراد وكل ما يشكل تهديداً لها»!!

ثم يعلن الشعر الذي تبناه كثير من كتّاب ومفكرين عرب: «لا بد من حرب مع الإسلام، نريد حرباً تدخل الإسلام»[٩٦]!!

● وعندما يخضع حكام باكستان للضغط الأمريكي، ليس فقط بوضع جميع العسكرية الباكستانية، وكل مطارات باكستان في خدمة الحملة العسكرية الغربية على أفغانستان» منذ ٦ أكتوبر سنة ٢٠٠١م ـ وهذا ما تشهد توجهات أمريك الصليبي الحالي في باكستان ـ ويعلن الجنرال «مشرف» ذلك ـ في خطاب ١٢ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م ـ عندئذ يحول «مشرف» مصطفى كمال و«توماس فريدمان» من «ديكتاتور» تفرض عليه الحتمية التاريخية «ديكتاتورية» أي نفس عدائي، يسير على طريق «أتاتورك» [١٨٨١ ـ ١٩٣٨م] و«سوف يصبح» مصلحاً لدى قطاع صلاح تركي معاصر للإسلام. فكتب «توماس فريدمان» يقول ـ بعد الجمعة ١١ سبتمبر ـ يجب أن نقنع مسلم على الاعتراف علناً بالمشكلة الحقيقية، وهي أن التطرف الإسلامي هو منجم في أنظمة تعليمه وتربيت الحكم في العديد من المجتمعات الإسلامية، وأنه يجب في أن يعيش معظم عالم الإسلامي في حالة من التخلف مكلفة (خطاب مشرف) ـ يجب أن نبحث طرق لخروج، لتعليم شيء ما من وجهة نظر أوضح، ليس مجرد إلى المتطرفين في مجتمعاتهم، لكن وجهات أفكارهم متطرفة بدورها حتى الإسلام التقليدي ـ هذا ما تبنى «مشرف» طموحات تقدمت باكستان بعلمانية ـ صحيح أنه يمكن أن يجر صدام حسين «الذي لا شرعية وأسس حكمه على تخلف جيش المسلمين»

وبعد ١١ سبتمبر، صار واضحاً أن مشروع حرب داخل الإسلام، ومن خلال مع الإسلام ـ وبعد أقدم، أخيراً، قد وجد، على الأقل، بعلاقات سيكون، حتماً، قد أقدم على القدم بالأمر نفسه بعض عقدة عرب مسلمين

● أن يكتب «ستانلي فيش» فيه يكتب في «نيويورك تايمز» بعنوان معلناً على توجه «الحرب بروير مشرف» في تقييض تعليم ديني وعلمنة

فيقول: «إن حقيقة حرب على الإرهاب تكمن في هل ستقوم بدون الإسلامية بنوع النموذج الاجتماعي ـ السياسي التركي، أكثر النماذج نجاحاً في العالم، كدولة مسلمة، حديثة وعلمانية، وديمقراطية؟ أو نموذج بعيدة السعودية مبنى على رؤية دينية متعصبة للأصولية الإسلامية، والتي يدفع متعصبة قرون إلى الوراء؟»..

ثم يتحدث عن أهمية علمنة باكستان، فيقول: «إن أهمية باكستان «كنموذج» فإذا أمكن لها أن تتبع طريق تركيا، فإنه يمكن أن يحدث ذلك أيضاً في بلاد كإيران ودول جنوب آسيا.. وإذا فعل الرئيس «مشرف» كل هذا، فإنه سيحق له أن يقال مجدد بشبه محمد الأتاتورك الذي يعتبر بكل منهم كمثله الأعلى محمد علي جناح، العلماني، الذي أسس دولة باكستان، ومصطفى كمال أتاتورك، الذي أجبر تركيا بإصرار شديد على أن تهجر ماضيها..»[١].

لقد عانت أمريكا ٢ مليون دولار «تحديث وعلمنة» التعليم الديني في باكستان، وذلك حتى تسير باكستان على درب تركيا الكمالية، التي قطعت صلاتها بماضيها الإسلامي ـ كما يقولون ويعتقدون ـ !

● وهكذا تكون باكستان حليفة قريبة جداً من أمريكا من أجل تقليص التعليم الديني الإسلامي و«تحديث» أي علمنة هذا التعليم. وسوف تكون أمريكية نشر الكتاب الأمريكي «جوشان نور» مثلاً يعتبر فيه منهج التعليم في مملكة العربية السعودية وغيرها من البلاد الإسلامية «تحديث تمثلة بكره فيه أمريكا وإسرائيل» ويدعو إلى شن حرب فكرية ضد هذه المنهج، بعد خروج من الحرب المسلحة في أفغانستان. فيقول: «لابد أن يتم تخصيص جزء من الأموال المتحدة أن تبدأ بالضغط على هذه البلاد (السعودية وغيرها من البلاد العربية والإسلامية) ـ كي تتخلص من أحاديث العداء لأمريكا وما يتبعه المتضمنة في كتب مناهجها الدراسية، وأن تتوقف عن تمويل المدارس الدينية المتعصبة بالكراهية في جميع أنحاء العالم»[١١]!

ثم يقدم السفير الأمريكي بالمملكة العربية السعودية مذكرة حكومة المملكة، تطلب فيها أمريكا اختصار ساعات تدريس مواد العلوم الدينية إلى عشرين ساعة

في الأسبوع في أربع ساعات فقط، وبحيث لا تتجاوز تدريس مادة الدين الإسلامي لأمور العبادية المباشرة، التي تنصب على علاقة المرء بربه، الأمر الذي يعني استبعاد كل ما يتعلق بتنظيم المعاملات والحياة بعامة، وعلاقة المسلمين بغيرهم من المذاهب كما طلبت الرسالة التذكارية أن يتم تدريسها بعيدًا عن قطاع التربية والتعليم في المرحلة الثانوية في ضوء تلك المقترحات، وعلى وجه السرعة بحيث تتضمن مناهج الجديدة شيئًا من العلوم الدينية الصحيحة، وذلك لتجفيف ينابيع التطرف والإرهاب»[١٢]!!

وفي الشهر نفسه - وحتى لا يحدث أية مصادمة لأفغانستان - سارعت حكومة الاستحواذ المصنوعة أمريكيًا، فدخل العسكريون الأمريكان إلى البلاد بأسرها في ساعات مسبحة، بقيادة الجنرال تومي فرانكس، مخصصة أكثر من ٢٠٠ مليار دولار لما يسمى الحرب الأصولية الإسلامية والإرهاب الإسلامي! وتعدت حصة وزارة التربية والتعليم في العام الدراسي ٢٠٠١ - ٢٠٠٢م بحيث تم تخفيض ساعات تدريس مادة التربية الدينية، اعتبارًا من الصف الخامس الأساسي حتى المرحلة الثانوية بنسبة تتراوح بين ٢٥ إلى ٥٠ في المائة، وحذفت حصص التربية الإسلامية في المرحلة الثانوية بنسبة ٢٥٪[١٣]! - هذا عن النزر اليسير الذي تسرب إلى وسائل الإعلام.

وحتى مدير المخابرات العامة الجنرال محمود أحمد صرح بملايين الدولارات، التي تسعى لدعم أئمة المستنيرين، الذين يطلب منهم «ترويج فكر الحرب، وتشكيل الذهنية العربية بما يخدم المصالح الأمريكية وبعده الصهيوني في الشرق العربي والإسرائيلي»[١٤]!

بل قد تجاوز التدخل الأمريكي في تغيير المناهج الدراسية في البلاد العربية والإسلامية حدود المطالبة بحذف بعض المناهج وساعات التدريس، والاكتفاء من الإسلام بالجانب التعبدي والشعائري - الفردي دون الاجتماعي - بل تجاوز الأمر هذه الحدود إلى حث الولايات المتحدة الأمريكية أجهزة مراقبة المناهج الدراسية في المدارس والجامعات العربية والإسلامية، حسب أجهزة الاستخبارات ومكاتب التحقيقات الأمريكية! . «وخصصت أمريكا لباكستان مائة مليون دولار؛ لكي تراجع كتب الثقافة الإسلامية. وليس فقط

مسيحي المدرسية - وتحكم البصيرة على مدارس دينية، بحيث يُعد مجرد أستاذ وطالب .. »[١٥]!!

● لقد أكدت هذه الحرب التي أعلنتها أمريكا «على الإسلام - وداخل الإسلام» - أن هدف «الغرب السياسي» هو علمنة الإسلام، وتحويله إلى صيغة بصرية، تفصل تماماً بين الدولة، الإبقاء للتعبير الإسلامي، وتسهيل خلق العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية بالنموذج الغربي، تأييداً وتأسياً للتجربة الحضارية، وتكريساً لعولمة التغريب. وفي هذا الإطار، سارع المستشرق اليهودي الأمريكي «برنارد لويس» بعد الفرعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م - إلى إصدار كتاب عنوانه (ما هو الخطأ الحادث في العلاقة بين الإسلام والغرب) وفي هذا الكتاب واصل أطروحاته القديمة حول «أن الإرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب. فالنظام الأخلاقي الذي يستند إليه الإسلام مختلف عما هو في الحضارة اليهودية - المسيحية (الغربية) وليات الغرب - برغمه - تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين. وهذه الحرب - التي أعلنها الغرب بقيادة أمريكا بعد الفرعة العاشرة) هي رأي «برنارد لويس» - «الحرب بين الأديان»[١٦]!

● والزعيم «الديني - السياسي» «الأب روبرتسون» مؤسس جمعية «الجبهة المسيحية» التي تسيطر على الكونجرس الأمريكي، وترى في دعم إسرائيل، وهدم المسجد الأقصى، وإقامة «الهيكل اليهودي» على أنقاضه عقيدة دينية لا تقبل المساومة، وتعتبر شروط عودة المسيح إلى الأرض؛ كي يحكمها ألف سنة سعيدة، بعد إبادة العرب والمسلمين في معركة «هرمجدون». هذا الزعيم الأمريكي وهو مرشح أسبق لرئاسة الجمهورية الأمريكية. والذي يعد الرئيس الأمريكي وحزبه الجمهوري من أتباعه - يعتبر «أن الدين الإسلامي دعا إلى العنف، وأنه يسيطر إلى حد حقيقي لأنه قد مات، فإن معظم من لا يزالون أكثر وفاء بديانة الإسلام من غيرهم. وأن أمريكا تجابه في هذا العصر خطر مسلمين لا يكرهون أمريكا ويحاولون تدمير إسرائيل»[١٧]!!

● أما «مارجريت تاتشر» - رئيسة وزراء بريطانيا الأسبق - فإنها تكتب عن «التحدي الإرهابي الإسلامي الجديد» الذي لا يقف عند أسامة بن لادن وأفغانستان، وإنما

يسيطر في أفريقيا وجنوب شرق آسيا وغيرها من القارات، والذي يشمل حتى الآن أكثر من خمسمائة مليون نسمة على الأرض، وتدين بالمسيحية شعوب أسلمها من أبناء وطننا، لكنهم "يرفضون اسم عربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح العرب" بينما "تتشارك" هؤلاء المسيحيين الذين "يرفضون اسم عربية وتتعارض مصالحهم مع مصالح العرب" تأييد "أعداء أمريكا وأعدائها" وتشجيعهم وتشجيع دعاة التغريب في مجتمعاتهم كما عرض مشروعة، بغض النظر عن الموقف الأصولي، كما هو شائع في الماضي، يمثل مصدر مساندة أيديولوجية عالية يدفع بها أتباع المسيحيين ومسيحيون بشكل جيد، وكما هو واضح الشيوعيين فهم تنطلب التي ستترتب عليه الذين لتنسى هزيمتهم"[1].

● أما وزير الداخلية في الدولة "وتوشكي" فقد وقف وأعلن تصريحات معادية للإسلام وأمته وحضارته حتى لقد وصف "علماء الإسلام بأنهم فرقة ضالة"[2].

● أما الروائي الفرنسي "ميشيل هوليبيك" فقد وصف الإسلام في روايته "منصة" بأنه "دين طير في الشرق الأوسط الأقصى وحشي وحيوان متوحش من كل نوع"[3] ثم استطرد قائلاً "هل تعلم كيف أسمي المسلمين؟ إني أسميهم حقراء الصحراء، فهذا هو الاسم الذي يستحقونه"!!

وفي حديثه في محطة (فرانس انفو) الفرنسية، بتاريخ ٢٥ / ٨ / ٢٠٠١م قال "إن قراءة القرآن مثيرة للاشمئزاز، وأن الإسلام دين غبي، لا مستقبل له، يجعل الناس أشقياء تعساء"[4]!!

وهو في هذا يسير على خطى "الأدباء" الذين حققوا شهرتهم في الغرب بتهجمهم على الإسلام، من سلمان رشدي في "آياته الشيطانية" إلى محمد "بوزي" في روايته "جارية" سنة ٢٠٠١م.

● أما أشهر كتّاب ومفكري الاستراتيجية في أمريكا "صموئيل هنتنجتون" و"فرانسيس فوكوياما" - فإنهما يعلنان صراحة لا مواربة فيها "الحرب ضد الإسلام حتى يقبل الإسلام تحديد العلمانية الغربية وفصل الدين المسيحي، فصل الدين عن الدولة".

فوكوياما، يعيد التأكيد على مقولته الشهيرة عن نهاية التاريخ، قائلاً: «إن عناصر الحضارة المتوفرة في الغرب وفي أوروبا بشكل خاص، هي التي تمكنت في النهاية من خلق حداثة خاصة بها وأطر حضارية تشكل الصرح الضخم الذي يعرف بالحضارة الغربية الحديثة والتحديث والعولمة. ومع ذلك، فإن عناصر جذور المسلمين له جذورها في أساس أكثر عمومية، وهذه الأساسات تعني العقيدة الإسلامية والقاعدة الإيمانية في الإسلام.»[٢١].

أما «فوكوياما»، فإنه يعيد تأكيد مقولته الشهيرة عن النموذج الغربي الرأسمالي الغربي هو نهاية التاريخ، الذي يجب تعميمه في سائر بقاع العالم «الحداثة» (التي تعني في المصطلح الغربي الحالي قطيعة معرفية مع الموروث الديني وجعل الإنسان سيد الكون، ومحور اهتمامه بدلاً من الله، وإحلال العقل والعلم والتجربة محل الله والدين) هذه الحداثة - كما يكتب «فوكوياما» - التي تشبع ولايات متحدة وغيرها من الديموقراطيات المتطورة، تستقي جذورها في حضارة سياسية غربية، والمؤسسات التي تجسد هذا الغرب الأساسية في الحداثة والمساواة ستستمر في الانتشار عبر العالم».

ثم يناقش «فوكوياما» قضية تفوق وحضارة الغربية الحديثة على الحضارة الإسلامية قائلاً: «إن تفوق وحضارة الغرب قضية تهدد الحداثة وقيمها، والتي تفسر استمرار أهمية تعميم هذه الحداثة على العالم». فيقول: «هناك، في الحقيقة، أسباب للاعتقاد بأن القيم والمؤسسات الغربية تلقى قبولاً كبيراً لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها».

وبعد أن يؤكد على النشأة الغربية والمسيحية لهذا النموذج الذي تعميمه وعولمته وعلى «العلاقة التاريخية بين كل من الديموقراطية والرأسمالية مع المسيحية، وحقيقة أن الديموقراطية تملك جذورها الثقافية في أوروبا، وأن هذه الديموقراطية الحالية - كما أشار تلاسفة من «توكفيل» و«الجورج هيجل» [١٧٧٠ - ١٨٣١ م] إلى «فردريك نيتشة» [١٨٤٤ - ١٩٠٠م] هي نسخة علمانية للمثل المسيحي في المساواة الإنسانية عبثاً» تساءل «فوكوياما» قائلاً يذكرنا بدراسة محمد (شلبي دوله) سنة ١٩٩١م هل هناك قوى وحضارة

رفضة لسؤال هذه الحداثة وهذه العلمانية؟ وبعبارته: «فإن السؤال الذي نحتاج إلى طرحه هو:

ـ هل هناك ثقافات أو مناطق في العالم ستقاوم، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث؟».

ثم يجيب «فوكوياما» على هذا التساؤل، بذات الإجابة التي سبق وقرأناها في دراسة مجلة (شئون دولية) قبل عقد من الزمان. فيقول: «إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة. فالعالم الإسلامي يختلف عن غيره من الحضارات في وجه واحد منهم. فهو وحده قد ولّد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة التسامح الديني والعلمانية نفسها. فما ينكرهه المسلمون هو أن الدولة في المجتمعات الغربية يجب أن تكرس التسامح الديني والتعددية بدلاً من خدمة الحقيقة الدينية».

ونحن نلاحظ أن «فوكوياما» يجهل أن الإسلام يرى التعددية قانوناً كونياً في كل عوالم الخلق والنظم والأفكار، دون أن تكون هذه التعددية وهذا التسامح الديني نقيضاً للحقيقة الدينية. كما نلاحظ أن الرجل يبلغ أقصى درجات التناقض عندما يزعم الإيمان بالتعددية، ثم ينكر على الإسلام والمسلمين التميز عن النموذج الغربي، إعمالاً لمبدأ التعددية!! فيذهب إلى أن المشكلة هي رفض الإسلام الانصياع، كغيره، لهذه الحداثة والعلمانية الغربيتين! فيقول: «إنه بينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكي السابق وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها لو أنها فقط استطاعت ذلك، فإن الأصوليين المسلمين يرون في ذلك دليلاً على الانحلال الغربي».

وبدلاً من أن يحترم «الليبرالي» فوكوياما حق المسلمين في التميز الحضاري والقيمي عن الحداثة والعلمانية والاستهلاكية الغربية، نراه يصف هذه الرغبة الإسلامية في التميز القيمي وفي الاستقلال الحضاري بأنها مشكلة المشاكل، التي لابد من شن الحرب عليها. الحرب داخل الإسلام، في سبيل تطويعه لقبول

لسمودح لحضاري لعربي وفي ذلك يقول «إن المسألة ليست بسيطة «حرب» على الإرهاب، كما تظهرها الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم ـ [؟!] ـ وليست المسألة الحقيقية ـ كما يجادل الكثير من المسلمين ـ هي السياسة الخارجية الأمريكية في فلسطين، أو بحو العراق إن الصراع الأساسي الذي يواجهه، بسوء خط، أوسع بكثير، وهو مهم، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين، بل مجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين، ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الديني جميع القيم السياسية الأخرى إن الصراع الحالي ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب، ولا ضد الإسلام كدين أو حضارة، ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية ـ الفاشية الإسلامية ـ غير المتسامحة، التي تقف ضد الحداثة العربية وإن التحدي الذي يواجه الولايات المتحدة اليوم هو أكثر من مجرد معركة مع مجموعة صغيرة من الإرهابيين، فجر الفاشية الإسلامية الذي يسبح فيه الإرهابيون يشكل تحديًا أيديولوجيًا هو في بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية»

ثم يتحدث «فوكوياما» عن «التطور الأهم» الذي يجب أن يحدث للإسلام، والذي يجب أن يتم داخل الإسلام، لتعديل الإسلام، حتى يصبح قابلاً لمحادثة لعربية والعصرنة لعربية فيقول «إن التطور الأهم ينبغي أن يأتي من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامي أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمي مع الحداثة، خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي حول الدولة العلمانية وإن هناك بعض الأمل في ظهور فكر إسلامي أكثر ليبرالية، بسبب المنطق الداخلي للعلمانية السياسية»

ثم يختم «فوكوياما» هذا المقال الذي يرى ـ بعصرية ـ أن جذور الصراع هي بين استقلال حضاره الإسلامية وبين تبعيتها لسمودح العربي وهي جذور أعمق من السياسة الخارجية الأمريكية ومن ضعف إسلامي مقدوم به لأن هذه الجذور هي التي تبعث الأول على هذه السياسة الأمريكية تجاه قضايا الإسلام و مسلمين ـ يختم «فوكوياما» مقاله بتأكيد على حتمية انتصار الغرب على الإسلام ـ في المدى البعيد ـ وذلك بشرط انتصار الغرب على الإسلام في المدى القصير!

فيقول "إن المؤسسات العلمية تسطر على أوراق كتبها، وتحدث فيها مستمر في الانتشار في نحاء العالم على امتداد القرون، فكم يوصون به من مدى يجب أن تبقى أحياء على امتداد القصير؟!"[٢٢]

فالقضية في التحليل الأخير ليست هي يسميه العرب "الإرهاب" ولا هي حدث حدث في أمريكا يوم حادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م فقط ولا حتى سياسة خارجية أمريكية في فلسطين، وإنما يتعلق الأمر بكل ذلك وغيره بحسب تصور الغرب الإسلامي إلى تمايز حضاري واستقلال ثقافي وبين الغرب العربي لفرض حداثته وعلمانيته على العالم، وعلى الإسلام وأمته وحضارته بوجه خاص

وحتى لا يخطئ الوهم من هذه الحداثة العربية التي يريدون فرضها عنا ومن محمد والتطور والتقدم، لدى تجاوزه مجموعات الإسلامية وفكرة الإسلامي أي حتى لا يخلط أوراق "الاستحقاق العربي" وأوراق "الإصلاح الإسلامي"، نقدم تعريفاً عربياً لهذه الحداثة التي يريدون فرضها علينا، والتي أقامت وتقيم قطيعة معرفية كبرى مع الماضي، حتى بهذه الورقة سنستخدم في تعبيرنا بعض المصطلحات الدينية، فإنها تشرعها من صحوف الدين، بعد تأويل كل النصوص الدينية، وإعادة بحسب "التاريخية" و"التاريخانية" أي تحويل الدين وأحكامه، عندما ترى التطور التاريخي، تعريف موقعه في سلم التاريخ هذا كيف يقوم هذا التعريف العربي لهذه الحداثة العربية التي هي ثقافة القطيعة وصنعة العلمانية اللادينية للتنوير الغربي

"إنه بعد أن كان المسيحي حريصاً على طاعة الله وكنيسته، ثم بعد الإصلاح يخضع إلا لعقله.. فالبديولوجية السوبر قد أقامت القطيعة الأنطولوجية المعرفية" بكتري، التي تفصل بين عصرين من العروج البشرية عصر (الخلاصة اللاهوتية) لتوما الأكويني" (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) وعصر (البوسوعة) العلاقة التنوير "فمنذ أن قطعنا مع الأمر الممكنة لله مع الحق لكي يحيى الكون بتمام عصر بعقل وشمولية وهكذا مع نظام الطبيعة الإلهية بمعجزاتها وبتلاشي أمام قطيعة لقد أصبح الإنسان وحده مقياساً للإنسان وأصبح حكم الله خاضعاً

حكم الوعي البشري، الذي يطلق الحكم الأخير باسم الحرية.. ويمكن تسميته اللاهوتي القديم أن يستمر، ولكنه لم يعد يوهم أحداً، فقد تكشف لم يعد له نفس المعاني»[٢٣].

«الإنسانية ـ في هذه الحداثة هي المقدسة، التي جعل منها مكتفية بذاتها، والإنسان مكتفياً بذاته، عن التدبير الإلهي للعالم والإنسان؛ لأن الإنسان في هذه الحداثة ـ هو سيد الكون، وهو ـ وحده ـ محور الثقافة الحداثية.. والدين في المصطلح الحداثي هو «الدين الطبيعي»، الذي هو تفسير للعقل البشري، في مرحلة طفولة هذا العقل، وليس «الوضع الإلهي» الذي أوحاه الله إلى الرسل والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

وقد كان الوعي الإسلامي ـ في مدرسة الإصلاح والتجديد ـ عميقاً بالطابع اللاديني لهذه الحداثة الغربية، فقد تصور هذه المدرسة على يد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ـ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) الذي تحدث عن الطابع الدهري لهذه النزعة عند «فولتير» (١١٣٤ ـ ١٧٧٨م) و«روسو» (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م) اللذين ـ كما يقول الأفغاني ـ «نزعتا جمعية العلم، ومعلمة الفهم، وإلهام التبصر، لأفكار، وهديه عقول، فسلك في أطوار الكتبي (٣٤١ ـ ٤٢٧ق م) وأحدث في نفوس من عاصره من الدهريين، وسلك كل تكييف ديني، وعرى صدور الإخوة والاشتراك، وزعم أن الأديان الإلهية جعليات حرفية، كذب زعمه أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنساني، وجهل كلاهما بمكنة الألوهية. وقع كل عقيرته بالتشنيع على الأنبياء (برأهم الله مما قالوا) وكثر ما عاب «وولتير» من الكتب في تحقيقه الأنبياء والنبوة بهم وقدح في أنفسهم وعيب ما جاءوا به، فأحدث هذا الأساطير من نفوس الفرنسويين، ونبت من عقولهم، فسمو الديانة العيسوية وتغصوا منها أنفسهم. وبعد أن اعتقد أنهم فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة (في زعمهم) شريعة الطبيعة..»[٢٤].

فهذه الحداثة الغربية، التي بدأت تعرف طريقها إلى الإسلام والمسلمين، والتي تصاعدت حدة الهجمة الغربية لتحقيقها بعد «القرعة الـ ٩/١١» بأمريكا، هي الثقافة اللادينية، المتمحورة حول «الإنسان الطبيعي»، لا الإنسان

الذي يمنح الله الناس من روحه، والذي هو عند الله وحيدة به ... والدين - في هذه الحداثة - قد استخدمت مصطلحاته، إذ هو «الدين الطبيعي»، وليس وحي الله، سبحانه وتعالى، إلى الرسل والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

وقد لا نصدق البعض أن عملاء هذه الحداثة من أبناء جلدتنا بدلاً من أن يرجعوا، ويعتذروا إلى أمتهم وحضارتهم الإسلامية، ودينهم الإسلامي، في مواجهة هذه الهجمة الشرسة على الإسلام وحضارته، رأيت هؤلاء العملاء يرفعون عقيرتهم كطوابير هذه الحداثة، ضمن أن تصاعد الحرب العربية على الإسلام هي فرصة ذهبية لتحقيق مخططاتهم الخبيثة في مسخ الإسلام، وتأويل نصوصه المقدسة، وطي صفحة عقائده وشريعته بدعوى تاريخيته، الأفك والإحكام، بل ويشير «الدين الطبيعي» بدلاً من «الدين الإلهي»، حتى كأنهم «علماء سلفية» سعودية - التي لا تزال ترفد كل سنة بهذيان تلاميذ الذي تلقفه خصوم الدين الأقدمون وهو يتحدث عن فلاسفة اليونان وتوحيدهم وحداثة تلاميذه عند «روسو» و«فولتير»!

لقد كتب واحد من أنشط المبشرين بهذه الحداثة العربية - بعد أحداث سبتمبر - وإعلان الحرب الحرب تحديث الإسلام وعصرنته، مهللاً ومستبشراً «بهذه الفرصة الذهبية» التي أتاحتها هذه الهجمة على الإسلام بهذه الحداثة، التي يبشر بها

فمع الهجمة العربية - والأمريكية أساساً - على التعليم الديني الإسلامي، وعد هذا «الحداثي» بأن «بعض مؤسسات التعليم الديني الإسلامي ... ينبغي عليها أن تتوجه كل كلية شريعة أو معهد ديني يسعى أن يؤسس كليات تدريس تاريخ الأديان المقارن، أو علم الاجتماع الديني، هذا أهم من تدريس الكيمياء، أو الفيزياء، أو قل إن له الأولوية حالياً».

ومع الدعوات العربية إلى «حرب داخل الإسلام» تعبر عن «إسلام عصري» يتسامح مع الذين يحتلون الأرض الإسلامية وينهبون ثروة القومية، ويمسخون الهوية الحضارية، وعد هذا «الحداثي» بأن يسمى «الدين الطبيعي» بدلاً من الإلهي فعنده - وبتصريح عبارته «فإنه يجب أن ينتحق بفولتير وتصوره الطبيعي عن الدين والأخلاق، فالدين الحقيقي هو الدين الطبيعي ... وإن بعثرة هي بأعمق

الإنسان وفي معتقداته، أو حتى صوته وعقيدته.. ولابد من تأويل جديد مرن يختلف عن تأويل الأصوليين، ثم ويتصدى تأويل يكشف عن تاريخية النصوص التأسيسية، ويحل القراءة التاريخية - أي تنويرية - محل قراءة سلفية بهدف التراث..»[٢٥]!!

فالهدف هو «تحديث الإسلام» بتأويل نصوصه التأسيسية - القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة - وتنقيح عقائده وحكمه - أي علمه - بين تنقيح «تاريخيته وتاريخيته» التي تكرر الشك والإطلاق والخلود على جميع مكونات هذا الدين وإحلال «الدين الطبيعي» الذي نشر به «فولتير» محل «الدين الإلهي» الذي جاء به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين، عليه الصلاة والسلام.

● وبعد أن مر هذه «العصفة الحداثية» التي تعششت في ظلال حرب شعواء على الإسلام بعد «فرعه مصطفى» - وحدته في كتابات ذلك الذي قرئ على القرآن الكريم، ليؤكد الافتراءات الغربية حول صدور «الإرهاب» عن آيات هذا القرآن الكريم - فكتب هذا «الحداثي» يقول: «يجب علينا أن نواجه للتهرب من الإجابة عن السؤال التالي:

«لماذا يستشهد المسلمون دائماً بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تبدو وجه المسلمين متسامحاً للإسلام، ويتجاهلون النصوص الأخرى التي تحض على القتل والقتال والإرهاب؟!»

ثم يستطرد في صفحة بالغة الدس، وتهم بدأ يحض على قتل الآخرين وتعذيبهم وإرهابهم، فيقول: «في الإجابة على هذه الدعوة الأصولية - [عن هذه الدعوة] - نجد أن النصوص التي تحض على القتال والتحريض للمشركين في كل مكان، وهم اللجوء إلى توظيف مقولة «النسخ» رغم كل ما تثيره من مشكلات من الوجهة اللاهوتية، فالنصوص التي تحض على القتال والتحريض للمشركين هي تلك النصوص التي تؤكد التسامح وتدعو إلى العرف بدلاً عن الحرب والمعركة وحتى العقيدة»!!

وهذا الافتراء على القرآن الكريم بدعوى أن فيه آيات تحض على القتال والتحريض

المشركين في كل مكان، وعلى القسر والإرهاب هؤلاء المشركين بجهل أو بجاهل الحقائق القرآنية نفسه وأعماله التي تتحدى بصفة من خلال استقراء جميع الآيات القرآنية التي جاء فيها ذكر القتال والقتل.

● فالقرآن - على عكس كل الفلسفات التي رأت في القتال أمرًا طبيعيًا أو ضيقة بالإنسان، يرى القتال استثناء وشذوذًا عن الصفة الإنسانية، وأنه المفروض ومكروه» ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [٢]، ويؤكد على هذا البلاغ القرآني الفريد النبي النبوي لهذه الحقيقة القرآنية، فيقول رسول الله ﷺ لصحابته «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، واكثروا ذكر الله» - رواه البخاري -.

● وجميع الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها «الإذن بالقتال» أو «التحريض عليه» قد وردت في مقام رد العدوان الذي وقع من الأعداء المقاتلين للمسلمين، والمسببة لهم في ديارهم - وهي شدة من القتل - أو بإخراج المؤمنين من ديارهم أو المظاهرة على الإخراج من الديار، لا لشيء إلا لأن المؤمن قد قال «ربي الله»[٣٨]. وما عدا هذين الموقفين - رد العدوان المسبب في القتل والعدوان بالإخراج من الديار - فلا يجوز القتال للمسلمين أي قتال للآخرين، بل إنه البر والقسط مع هؤلاء الآخرين.

هذا هو الموقف القرآني في كل الآيات التي ورد فيها مصطلح «القتال» في حالة أيات سورة براءة التي يتحدث فيها «الخالق» وهي تتحدث عن التحريض والقتال للمشركين المقاتلين فيها الآيات عامة في المشركين من المعاهدين الذين لم يخفروا عهودهم، فاستثنى المسلمين في الوفاء بالعهد لهؤلاء المشركين ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ [٣٩]، فتبين هذه الآية أن هذا الصنف من المشركين - المعاهدين - والمحترمين لعهودهم - هو الصنف الآخر من المشركين الذين لا عهد لهم، والذين ﴿لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون﴾ [٤٠]، فالتحريض والحث على قتال المشركين ولا كل المشركين، وإنما هو رد العدوان لهذا الصنف المعهود ونكثه لأيمانه، خروجا برسول الله ﷺ

و مؤمنين من ديارهم ﴿لا تُقاتلوهم قوم نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ [٣]

وهذا هو الموقف القرآني من القتال في الأشهر الحرم في جميع الآيات..

فالإذن للمؤمنين بالقتال كما هو مقيد بالرد على عدوان المؤمنين بإخراجهم من ديارهم ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴿٣٩﴾ الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ [٣٩].

والأمر بقتال المؤمنين للمشركين هو أيضا خاص بقتال الذين يخرجون المؤمنين من ديارهم وعذبوهم وفتنوهم في دينهم ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴿١٩٠﴾ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴿١٩١﴾ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾ [٣٩]

وهكذا فإن الآيات تتحدث بكل وضوح، لا تسمح بتأويل، ولا تحتمل غموضا، لا ترد عدوان الذين اعتدوا على المؤمنين بإخراجهم من ديارهم وفتنتهم في دينهم.

ثم جاءت آيات سورة التوبة ٥، ٨، ٩ - بعد انقضاء الأشهر الحرم - لتقرر أن القتال لا يجوز إلا في هذه الحالات حصرا: ضد الذين يفتنون المؤمنين في دينهم، وضد الذين يخرجون المؤمنين من ديارهم أو يظاهرون على هذا الإخراج ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ﴿٧﴾ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴿٨﴾ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ [٣٩]

هذا هو الموقف القرآني من القتال في الأشهر الحرم وهو موقف لا يحتمل التأويل ليسوغ القتال المعتدين فقط، ووقف معهم القرآن ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين

يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[٣٦]، ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[٣٧]

فأين هذا الذي يجب أن نعتذر عنه، من آيات القرآن، للعربي الذي يتهم الإسلام بالإرهاب والعدوان؟ وأين هي «الشعرات» التي توهم «العملاء الحداثة العربية» أن الفرصة قد سنحت لهم، كي يطعنوا بها الوحي الإلهي وثقافة الأمة التي إليها ينتسبون؟!

● ونموذج ثالث من نماذج «العمالة الحداثية للعرب» يظهر صاحبه وهو يتطفل على ثقافة العرب من ثوب الكراهية السوداء للإسلام وأمته وعلمه وحضارته. فأحد هؤلاء اتهم ثقافة العنف لدى العرب بأنها ثقافة الإرهاب. كما تجاهل هؤلاء العرب، الذين سعت مراجعة «الحوار القومي» في تعاملهم مع الآخر العربية والإسلامية ومع قضايا ما بعده. فتحدث عن الموقف بعد أحداث ١١ سبتمبر، وكأنه يخاطب «محرومين سابقين!!» فقال هذا «الخائن» الذي قبل «التطبيع» مع رموز الصهيونية ومع «الحوار الحريص» وأبى «التطبيع» مع هويته الأمة! قال: «لم أدهش عندما علمت بحرب الأمريكية ضد أفغانستان وقتها عددًا كبيرًا من التنظيمات المعروفة بالتعصب الديني كانت من السعودية ومصر، وهذا الأمر كان معروفًا في الكونجرس، لأن المخابرات المركزية الأمريكية في تلك الحقبة صاغت وموّلت ثم أسست مصر كانت في هذا الاتجاه، ودون إعلان وثمة أو حتى سياسي كانت بدوره تدرس آنذاك. الأول أمر من الضرب الإرهاب، والآخر تعريته على المسرح العالمي. وأن بدونه تتسع دائرة التعاطف الصحيح حتى تجتذب التأييد الشعبي في هذه الظروف الدقيقة!».

وبعد هذا التأييد والتبرير لـ«عمالة الحداثة» للحرب الأمريكية ضد مصر والسعودية، لم يسمح هذا «العميل الحداثي» من تبرير العدوان الأمريكي على بلادنا، ومن شمول هذا العدوان مصر والسعودية. وكأنما هذا العدوان أمرًا مشروعًا!

أي و لله! حدث هذ و ستطرد هذا «لكتب» يقول «وصدق حدث أحداث ١١ ستمبر، واهرب أمريك، وأدركت أن الإرهاب ظاهرة دولية يمكن أن تمارسها، أنعقت ملايين على أجهزة مخابراتها، فأدركت أن الإرهاب والمكر والتعصب أمكن وزراً يمكن فيها وفق مخططات مدروسة لدون تعصب وهكذا تحركت أمريك في اليمن والصومال وإيران وباكستان وتهديد السعودية، ولابد أنها ستتحرك إن آجلا أو عاجلاً في مصر.»[٣٨] !!

هكذا يتعب «العمالة الخيانية» حد اتهام وطنه مصر بالتخطيط لشر وس بتمة تلفقه بتعصب والإرهاب ... ن وقررت من حد ستعدء أمريك بتحرك نحو مصر «إن عاجلاً أو آجلاً»!

ونحن نسأل هل هناك فارق بين هذه «الأفكار» التي تسمى تلفقه لأمة الإسلامية «أصولية وتعصبا وتطرف وفاشية» وبين المواقف الصهيونية التي جعل بعض الباحثين تشبيح دت فكر وبعض المواقف، على سبيل المثال عديد من دده كتبهم بعدوى وتسهم «بنيامين نتنياهو»، الذي كتب في كتابه (مكان تحت الشمس) يقول «إن الإسلام الأصولي يهدد بي المعمورة على العالم كله، ويحتل بهزيمة الكفار غير المسلمين في حرب مقدسة هي جهاد، و صبحت مشكلة الكبرى في الشرق الأوسط هي الإسلام المتطرف، ولن قبل الأمن والسلام، ومن لا يدرك ذلك فمصيره إلى الفناء»[٣٩]!

فهل أصبح موقف الصهيوني من الإسلام يختلف في سبيل تحرير الأرض والمقدسات، أمر المسلمين يحتله ويعتدي به «الخائنون» عن وضعه أنفسهم وأقلامهم في صف الحملة المسعورة على الإسلام والمسلمين؟!

● ونموذج رابع من نماذج «العمالة الخيانية لأمريكا» يشير إليه الكاتب اليهودي الأمريكي «توماس فريدمان» عندما كتب عن زيارته للمملكة العربية السعودية ـ في فبراير سنة ٢٠٠٢م ـ فهناك، وأثناء لقاءاته وحواراته مع «النخب» السعوديين، تهم المملكة بأنها «قد أصبحت مصدراً للتمويل والتنظير الإسلامي لأولئك الذين يهددون أمريكا»، وقد سمع «فريدمان» من المتحدثين وصفي في النخبة السعودية من أعجب صفة أمريكي وبعضهم صهيوني، عندما قال له

هؤلاء المثقفون السعوديون الآخرون «إن اليهود يسيطرون على حكومة الولايات المتحدة، وأنهم يحتلون بكونجرس الأمريكي، وأن ذلك يمثل أصل المشكلة وأن الخصخصة لن تتأثر في أحداث ستستمر بها كانوا يعبرون عن تعجبهم من التأييد الأمريكي الأعمى بتعجب لا أستطيع تفسيره»

ولقد انسحب «فريدمان» من جلسة الحوار التي سمع فيها هذه الحقيقة! وكان يعني بذلك أن كل السعوديين، لولا نفر من «العملاء الخائنين» قد أشربوا ما تعنيه وشرح صدره. فقد قال إن هؤلاء «العملاء الخائنون» الذين ضربت عقولهم في مصانع خداعة الأمريكية ـ هم مشكلة موجودة في «العقل العشائري» بلادهم، وهو الذي يجعل المجتمع يقف مع شريحة من بينه بدلا من أن يرفضون سياسات أمريكا!!

يحكي «توماس فريدمان» ما أسره إليه في بدء حديثه هؤلاء «العملاء الخائنون»، فيقول: «كنت على وشك استنتاج أن الفجوة الثقافية بيننا شاسعة، ولا يمكن تجاوزها، لو أنني لم أسمع نقدا من سعوديين آخرين تتفوق معلوماتهم في ولايات المتحدة، وأعمق ـ على الأقل ـ أنهم يتفقون معي في كثير من حديثه، حيث قال لي أحدهم: إن العقلية العشائرية هي راسخة بعمق، وفي صحراء، عندما تتعرض عشيرة للجوع، لا أن يقف جميع من يعيشون بها مشكل متعلقة بمفهوم تعيشي الإسلامي، وبعضهم يشعرون بسعادة لأنك عكست من الحديث عنها لكنهم يشعرون بأنهم معرضون للخطر، وليست قليلة من يتحدثوا بصراحة معك»[10]!!

فهؤلاء «العملاء الخائنون» بنص «ولو» صهيوني «توماس فريدمان»، قد أعلنوا «البراءة» من دينهم وعشائرهم! ثم هم قد أعلنتهم «الحداثة الغربية» عداءها لخطوط بين المصدر الوطني والإسلامي مع قضاء لأمة بعدها ـ من مثل القدس وفلسطين ـ وبين التعصب الديني في الأمور السياسية. وهو نفهم حتى كلام حداثة عن «مجتمع مدني» براق في «العشيرة» مؤسسة أصغر من أصغر مؤسسات المجتمع المدني والأهلي في مثل مجتمعنا السعودي. وكانت العشيرة مصدر فخرهم، لا سيما يحتفون بأنسابهم وأحسابهم وأنوفهم! لكنها بعبارة

الحضارية، تسلح صاحبها من الهوية و الانتماء ، ولا حول ولا قوة لا بالله!

● بقي أن نقول إن هذا الوعي لمعنى الحداثة ومحاصرها، وبالفروق الجوهرية بين هذه «الحداثة الغربية» وبين «التحديث الإسلامي» و«التقدم و الإصلاح بالإسلام»، ذلك الذي نراه لدى جيل من المفكرين العرب في القرن التاسع عشر ـ هو الذي نراه عند علماء ومفكري النهضة الإسلامية المعاصرة، وكنموذج لهم المفكر الإصلاحي الدكتور محمد حاتمي ـ رئيس الجمهورية الإسلامية في إيران والذي كتب في تعريف هذه «الحداثة الغربية» كلاماً نفيساً ودقيقاً قال فيه: «إن الحداثة تعبير دقيق لتحولات التي حدثت في الغرب في العصر الأخير من تاريخ الإنسان، وبذا فهي تمثل بشكل تعبيراً دقيقاً عن الحداثة هي الثقافة التي تتمحور حول الإنسان، في مقابل ثقافة التي تتمحور حول الله. فالحداثة هي روح عصرها الغربية، المسيحية منشأ، والعلمانية والمادية مع ثقافة الإسلامية ومع ثقافة العرب القروسطية.

عندما كانت ثقافة العالم الإسلامي وثقافة العرب القروسطية، على الرغم من وجود بعض الفوارق بينهما، تشترك جميعاً في نوع واحد، وكان أمر واحد مشترك بينهما هو محورية الله في فكر الإنسان واعتقاده وفي تعامله سلوكي و الأخلاقي والعاطفي. وعندما حدث للعرب ثقافة القروسطية هذه، وكان من نتيجة حرمانهم عصرهم الحداثة وثقافة الحداثة التي تجعل الإنسان محورية فيها فكان ذلك التحول ـ من محورية الله إلى محورية الإنسان أمر واحد لاختلاف بين ثقافتنا وتقليدنا الثقافية وبين ثقافة العرب وحداثة».

هكذا يجب أن لا تختلط الأوراق بين:

ـ الإسلام، الذي جاء ليحرر الإنسان من الأصر والأغلال، ومن عبودية كل الطواغيت ـ ومنها طاغوت الهيمنة الأمريكية المعاصرة.

ـ والحداثة الغربية، التي تمثل قطيعة معرفية كبرى مع الدين، والتي تريد أن فرضها على الإسلام، حتى يتراجع عن محوريته لله، ليتراجع عن دوره في مقاومته للطواغيت، فلا يبقى منه سوى متعلقات في الشعائر والتعبد.

* * *

## • الهوامش

(١) صحيفة [illegible] في ٣ ـ ٩ [illegible] ٢م

(٢) صحيفة [illegible] في ٢ [illegible] ٢م

(٣) صحيفة (وطني) القاهرة ـ في ٩ ـ ١٢ ـ ١ [illegible] ٢م

(٤) صحيفة (الأهرام) القاهرة ـ في ١٦ [illegible] ٢م

(٥) صحيفة [illegible] في [illegible] ٢م

(٦) صحيفة [illegible] في ٣ [illegible] ٢م

(٧) [illegible] الأمريكية [illegible] عن صحيفة (وطني) القاهرة في ٢٥ [illegible] ٢م

(٨) (نيويورك تايمز) الأمريكية والنقل عن صحيفة (وطني) القاهرة ـ في ٢٣ ـ ٢ [illegible] ٢م

(٩) (نيويورك تايمز) الأمريكية ـ والنقل عن (الشرق الأوسط) لندن ـ في ٢٢ [illegible] ٢م

(١٠) [illegible] والنقل عن صحيفة (وطني) القاهرة ـ في ٢٧ [illegible] ٢م

(١١) (النيوزويك) الطبعة العربية ـ في ٢٥ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١م

(١٢) صحيفة (الأهرام) القاهرة في ٢٥ ـ ١٢ ـ ٢٠٠١م

(١٣) صحيفة (العالم الإسلامي) مكة ـ في ١١ [illegible] ٢م

(١٤) صحيفة (الأسبوع) القاهرة ـ في ٢٨ [illegible] ٢م

(١٥) فهمي هويدي ـ صحيفة (العربي) القاهرة ـ في ١٣ ـ ١ ـ ٢ [illegible] ٢م

(١٦) صحيفة (الأهرام) القاهرة ـ في ٢ ـ ٣ ـ ٢٠٠٢م، ٣ [illegible] ٢٠٠٢م ـ والأهرام ينقل عن مقال (النيوزويك) ـ بقلم [illegible] في ١٤ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م

(١٧) صحيفة [illegible] في ٣ ـ ٣ ـ ٢ [illegible] ٢م، وصحيفة [illegible] في ٢٦ [illegible] ٢ ـ ٢ [illegible] ٢م

(١٨) صحيفة [illegible] عن صحيفة [illegible] في ٤ [illegible] ٢٠٠٢م

(١٩) صحيفة (الأهرام) القاهرة ـ في ٣ [illegible] ٢م

(٢٠) صحيفة (الشرق الأوسط) لندن ـ في ١٠ ـ ٩ ـ ١ [illegible] ٢م، وصحيفة (العربي) القاهرة في ٩ ـ ١١ ـ [illegible] ٢م

(٢١) مجلة (النيوزويك) الأمريكية العدد السنوي الخاص ـ ديسمبر سنة ٢٠٠١م ـ فبراير سنة [illegible] ٢م

(٢٢) (نيوزويك) الأمريكية العدد السنوي: ديسمبر سنة ٢٠٠١م ـ فبراير سنة ٢٠٠٢م

(٢٣) إميل بولا (الحرية، العلمية، حرب شطري فرنسا ومبدأ العدالة) طبعة باريس ـ منشورات سيرف سنة ١٩٨٧م نقلا عن هاشم صالح ـ مجلة (الوحدة) الرباط عدد فبراير ـ مارس سنة ١٩٩٢م ص ٢٠، ٢١

(٢٤) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ١٦١، ١٦٢ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م

(٢٥) هاشم صالح: صحيفة (الشرق الأوسط) لندن - في ١٣ - ١٢ - ٢٠٠١م «وجدير بالذكر أن هاشم صالح هذا هو القائم على ترجمة المشروع الفكري لمحمد [illegible] لتحديث الإسلام وعلمنته.. والذي عرّف الحداثة عنده «شاهد من أهلها» هو الدكتور علي حرب، عندما [illegible] الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون»!!

- صحيفة (الحياة) لندن في ١٨ - ١١ - ١٩٩٦م فالعدو عند هؤلاء الحداثيين ليس الإمبريالية الأمريكية وهيمنتها [illegible] الإلهية وهيمنتها على الكون!! ولا حول ولا قوة إلا بالله

(٢٦) [illegible] الإسلام [illegible] سنة ٢٠٠٢م

(٢٧) البقرة ٢٠٦

(٢٨) [illegible] ٣

(٢٩) التوبة ٤

(٣٠) التوبة ١

(٣١) التوبة ١٣

(٣٢) الحج ٣٩، ٤٠

(٣٣) البقرة ١٩٠ - ١٩٢

(٣٤) انظر آيات البقرة ٢١٦، ٢١٧ والأنفال ٣٠، والإسراء ٧٦، ومحمد ١٣، والتوبة ٣٨، ٤١، وآل عمران: ٩٥

(٣٥) [illegible] ٧ - ٩

(٣٦) البقرة ٩

(٣٧) البقرة ١٩٦

(٣٨) د. ميلاد حنا - صحيفة (أخبار الأدب) القاهرة في ٩ - ١ - ٢٠٠٢م

(٣٩) أمين هويدي: صحيفة (الأهرام) القاهرة في ٥ - ٣ - ٢٠٠٢م

(٤٠) صحيفة [illegible] الأوسط [illegible] ٢٠٠٢م

(٤١) د. محمد حنا نمي (الدين والتراث والحداثة [illegible]) ص ٤١ - ٤٩ تقديم د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م

* * *

# الطيب والخبيث فى الدعوة إلى تغيير مناهجنا الدينية.. وخطابنا الدينى

عندما بدأنا الدراسة بالأزهر الشريف، قبل نحو ستين عامًا، كنا نواجه، فى الفكر الإسلامى الذى ندرسه، مشكلة لا نعرف لها سرًا. فأغلب كتب هذا الفكر الإسلامى التى ندرسها قد ألفت فى عصر المماليك والعثمانيين، أى فى عصر التراجع الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية! وكان السؤال الذى لا نعرف له يومئذ جوابًا هو:

لماذا ندرس مؤلفات عصر التراجع الحضارى بالذات؟! ولماذا لا ندرس إبداعات عصر الازدهار الحضارى، الذى سبق التراجع والركاكة والتقليد؟ أو مؤلفات عصر اليقظة والإحياء لنهضتنا الحديثة؟

ومن أعلامه الأئمة والشيوخ: حسن العطار (١١٨٠ ـ ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ ـ ١٨٣٥م)، ورفاعة الطهطاوى (١٢١٦ ـ ١٢٩٠هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م)، ومحمد قدرى باشا (١٢٣٧ ـ ١٣٠٦هـ ١٨٢١ ـ ١٨٨٨م)، وحماد الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م)، وعبد الرحمن الكواكبى (١٢٧٠ ـ ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م)، ومحمد عبده (١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م)، ومحمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م)، ومصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م)، وعبد المجيد سليم (١٢٩٩ ـ ١٣٧٤هـ ١٨٨٢ ـ ١٩٥٤م)، ومحمد الخضر حسين (١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م)، ومحمود شلتوت (١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م) وغيرهم وغيرهم من عشرات الأئمة المجددين فى فكر الإسلام؟

لقد كنا ندرس فى الشعر والأدب إبداعات تيار الإحياء والتجديد: محمود سامى البارودى باشا (١٢٥٥ ـ ١٣٢٢هـ ١٨٣٩ ـ ١٩٠٤م)، وأحمد شوقى (١٢٨٥ ـ ١٣٥١هـ ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م)، وحافظ إبراهيم (١٢٨٧ ـ ١٣٥١هـ ١٨٧١ ـ

١٩٣٢م)، وأحمد محرم (٢٩٤ ١٣٦٤هـ ١٨٧٧ ١٩٤٥م، وعدهم، وكذلك بدعت عصور ناضجة ولا ذهر الأدبي، من مخضرمي العصر الجاهلي إلى روائع عصور الإبداع الإسلامي في الشعر والآداب

لكن، وحدة الفكر الإسلامي في العقيدة، وعدم تكلام، ولتفسير والحديث ـ كانت مؤلفات عصر المراجع الحضارية في عصور العلم والمعرفة في العالم أجمع، الذي تشمل فيه "الحواشي" "التعليقات" والتهميشات"، و"الاعتراضات" و"الأجوبة على الاعتراضات" بثقل "متون" المتقدمين بتشكيك وتعقيد، حتى لقد كان "خبر" الحديث يتأخر عن "متنه" عدة صفحات!!

صحيح أن هذه معاناة شديدة في تحصيل المعلومات الإسلامية قد مرت عقول وملكات عصر في تحصيل المعلومات، ومصادرة معاصرة! لكن أحد أسباب هذا منهج وتكتيك في "فهم الواقع" الذي تقدمه ... فقد كانت تقدم فقه واقع القرن العاشر الهجري لأناس آخر القرن الرابع عشر الهجري الأمر الذي يكون عملية تجريد من العصر الذي عاشه عربة عن عصر التأسيس والأصالة، وعن الواقع المعيش والمعاصر معا!

ولقد كان لهذه المشكلة امتداداتها خارج قاعات الدرس بالأزهر الشريف فخطباء المساجد، يقرأ أغلبهم خطبًا مؤلفة منذ عقود طويلة من السنين، حتى لقد كانوا يدعون للعصر بالعدد والتأييد للجيوش وسلاطين وملوك طوائفهم الموت منذ عقود وعقود! ويتحدثون بالمنهج التكتيك عن مشكلات واقع قد تغير وتبدل، وبعد فصلاً عن الانتقال إلى الحد الأدنى للمعاصرة ـ وهو مقتضى الكلام لمقتضى حال ـ وبعد من مثل "التكتيك" المقدم على حساب الوقت والجهد والأكل في صحاف الذهب والفضة!.. ومهجمة لتسرح والسفور في بيئات مشكلتها الملحة هي "الحجاب" والبحث عن ما يستر العورات!!

وأمام هذه المشكلة في منهج التعليم الديني وخطاب الديني، كانت ما كطلاب أزهريين ـ مؤتمرات وإضرابات ومظاهرات، اعتصامات، تطالب فيها بتطوير مناهج التعليم في الأزهر الشريف

وأذكر - فيما أذكر - أن هذه الشعلة «الثورية» قد بدأت تتوهج في سنة ١٣٧٠هـ سنة ١٩٥١م، عندما كوّن الطلاب الطلابي في «المعهد القديم الأحمدي بطنطا» وفداً ضم ممثلين من معاهد المحلة، ودمنهور، ومشيخة الأزهر - بالقاهرة - وعلى غير سنتهم كان المعهد مسدوداً بين شرطه، فقد خرجت عساكره على سلّم مشيخته، ودخل عاصفاً على الإمام الأكبر الشيخ حسنين محمد مخلوف، شيخ الأزهر، الذي غضب بغضبته، فكان تصريحه المدوي عنك، وبدأ الملح فيه بي ما بدعته لملك فاروق يومها من سفه في ملاهي «كابري»، فقال: «تقتير هنا.. وتبذير هناك!!».. وضحى بمنصبه عقب هذا التصريح!

من بعد شهد القصر بعدها حدثاً غير مسبوق في تاريخ «الأزهر المعاصر»، عندما ضربت شيوخه، وشاركوا في تظاهرات، فلم يقف أمر مصالحه، لإصلاح عند حماس الشباب والطلاب!

هكذا كان يعيش «المشكلة» ليث تاريخ مشكلة منهج تعليم الديني والعربية الإسلامية وخطاب الديني، وهكذا واجهت هذه «المشكلة» منذ بدأت في مستهل عهدها، وقبل حينما كانت للأجيال السابقة مع هذه «المشكلة» مواجهات ومواجهات.

وبعد هذه «المشكلة» - بالنسبة لي - كانت وراء «التمرد» الذي جعلني أترك بعد الشهادة الأزهرية - إلى كلية «دار العلوم» جامعة القاهرة - التي كانت «أزهر مصغراً»، تأبى الكثير من شروط وضوابط التحديث في مؤسسات ومناهج وطرق التدريس.

وبعد التخرج، والانخراط في العمل الفكري الحر وخفيف - ومعاشرة نخب الأمة القديم منه والحديث - وعي بضرورة تجديد الفكر الإسلامي، وبالتالي بضرورة التجديد والاجتهاد والإبداع في علوم الدين، كان الأساس الفكري لمعركة الأكبر التي خاضها الأمة وعلمائها دعاة إلى تجديد منهج التفكير، وإصلاح مؤسسات التعليم الديني وتطوير مناهج تدريسه وتعليمه، وتجديد وتقنين الفقه الإسلامي، وإصلاح مساجد وخطابة، على نحو أشمل وأعمق من دعوة الأستاذ الإمام محمد عبده التي لم تكن قد بدأت في معاهد التعليم

لأزهرية، يوم تصدرها وتصدر عنصر مقدس، للإصلاح والتجديد والتطوير

لقد أدركت أن عصور التركة والتراجع والجمود والتقليد قد مثلت حاجزا بين عقولنا وبين عطاءات مناهج عصر التأسيس والازدهار والإبداع. فحين نقرأ في لغته مثلا - لا ندرس، فقط، لإتمام دراسة مقررة - نجد أن سيبويه (ت ٧٩٣ هـ ١٧٧ - ٧٩٥م) والأخفش (كتاب الخراج) للقاضي أبي يوسف (١٣١ - ٨٢ هـ ٧٩٨م) والأخفش (الأم) أو (الرسالة) للشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ ٧٦٧ - ٨٢٠م) وهي نماذج من الآثار الفكرية العبقرية، التي أسست علوم الإسلاميات، وقدمت الاجتهادات الخلاقة في أسلوب علمي يحاكي إبداعات أساطين العلماء. لا ندرس شيئا من ذلك، وإنما ندرس «الحواشي» و«التعليقات» و«التهميشات» و«الاختصارات» التي ثقلت هذا الإبداع في عصر انحطاط وتقليد - فحجبت ما فيه من ألق وعطاء يعلمنا التفكير ويعلمنا الإبداع - حتى هذه التخصصات!

ولقد صاحبت هذه «التخصصات» - بما تحمله من عصور التخلف الموروث - نعت التخصص بأنه إبداع التبسيط والإحباط والاحتباس، التي تعرفها حركة التجديد، تلك التي تبلورت بعد الاحتكاك العنيف بين الذات وبين تحدياته الاستعمارية الغربية الحديثة، والتي بدأت بصيحة الشيخ حسن العطار «إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها»!

فمنذ إبداعات مدرسة الإحياء تعمل على تجديد الفكر الإسلامي تجديدا يتسق مع روح العصر، كي لا يقع في التغرب وخيانة تغريبه وتغريبه، أو التبعية الموضعية وتدنيه الأدبي. كان التخصص الموروث، وإبداعاته الحضارية، بعد خموده من عقل مسلم ومن منابع الإبداع القديم - تعلن إبداعات بقعة جديدة تضيء فكرنا بنور فكري، ثم تنمو بعلمه وفكر التغرب والاستلاب الحضاري!

أدرك هذه «المشكلة» التي تغرب «المتخصصين» في شئون الوقع المعيش، لا درية لهم بعلوم الدين ولا بشئون الكون بهويته الأمة وحضارتها. فتغرب «العلماء ودعاة» في الفكر الديني، يعيشون في واقع عصور قد تجاوزها التطور، ولا

درته بهم بعيدة الوقع عن تعيش فيه أمتهم. وكان قد أثمرت هذه الشجرة نوعين من الهجرة: هجرة في الجغرافيا، حدثت بطلاب علوم الوقع، عندما ضربت عقولهم في مضاجع مدهشة، فهاجروا من واقع أمتهم إلى واقع يوحد بعربي. وهجرة في الزمان، حدثت لطلاب علوم الدين، عندما وقعت عقولهم عند واقع وكانت أسيرة عصر انقضى لا تكاد تعده!

وهكذا مثلت الغرب والتغريب السائد وعصره. ووقفت مناهج تعليم الدين عند تراث عصر كان له ظروفه وملابساته. وصبح تراث سعة وتجديد ولاجتهاد بين دارسيه، وبعد أن في جبهتين يحارب أهل التغريب فقهاء الغرب.. وأهل الجمود المقلدين لتراث المملوكي، جميعًا!

فالأزهر الشريف، الذي كان يدرس في عصور الازدهار والإبداع في جانب القرآن وعلومه، واللغة وعلومها، والشريعة وعلومها، والعربية وعلومها، إلى جانب العلوم والجغرافيا والفلسفة والمنطق، والعلاقات الدولية، والفلك والحساب والجبر، والهندسة، والطب والتشريح، والطبيعة، والكيمياء، والرياضيات.. هذا الأزهر قد أصبح غريبًا عن أغلب هذه العلوم والفنون حتى بعد أن أعاد محمد عبده كثيرًا من التراث مع الشروح والتعليقات التي جمعها محمد عبده بها، كي يتمكن الدارسون من «تقويم اللسان»! كما فعل حول تغريب الجديد أثناء تقنين وتقنين الفقه الإسلامي.. فتركوا الفراغ الذي تمدد فيه «الفقه البابوي» الوضعي العلماني!!

أدى هذا، من خلال مشروع فكري، ومعايشة تيارات الفكر الإسلامي، ومعارك فكرية، حدوث أزمة مشكلة وتعقد، ومخاطر على جهاز المناعة البشرية وسلامته. مشروع حضاري وهوية لأمة. لقد خلقت هذه المشكلة لدى جيل حاسمة لها.

وأدرك ثمرات الجمود في قطاعات من الحقل الديني، تلك التي تمثلت في ادعاءات لمنتوجات قليلة أنها هي وحدها «الفرقة الناجية»، وأن من عداها من جمهور الأمة سيكون! وما أحدثه وتحدثه هذه الادعاءات من تكفير وخروج

في صدور الأمة، وتصبح نسمة مرحمة إلهية بل ونعمة للإسلام والمسلمين، إذا لم يتعلق بصحيحه سوى هذه التوعات!

وأدرك، كذلك، علاقة مثل هذه الادعاءات بنشر وتبرير فكر قصير يعتنق العنف والتعصب والاحتجاج، ذلك لمن وين حسنت نوايا ومقاصده، إلا أن التعصب قد يدفعه إلى ما يقترب من الخروج! وقد صدق فقهاؤنا عندما وصفوا التعصب بأنه قطعة من الجنون، وأفتوا بأن يمين الغاضب وحكمه وفتواه لا تجوز!

وأدرك، أيضا، كيف كانت هذه المشكلة هي الدافع الرئيس وراء مشروع تطوير منهج الأزهر الشريف سنة ١٣٨١هـ سنة ١٩٦١م فعندما صدمت الجماهير بثورة وتحرر يوصي للاستعمار الغربي في قلب قريته، أدركت بعض القيادات المسئولة أن هذه المشكلة في منهج التعليم الديني التي لاقت تسمية، في المستعمرات الأفريقية، قد وقفت بتعليم أبنائها عند «الخلاوي» و«الكتاتيب»، وعند بعض «الصوى» و«الحوشي» الموروثة عن عصر مرجع حضاري، بسبب أنه لاستعمار المدارس الحديثة، التي تعلم مع مصريتها وتعلم بها علوم الإدارة الحديثة والمجتمع الذي يوفر لخريجيها فرص العمل، فأصبحت الدولة بعد الاستقلال تحكم على الأقلية التي تعلمت وطبقت الأغلبية المسلمة وتحيلها على التقاعد، وتحرمها من التعامل مع الواقع والعصر، وتعزلها عن الدولة الحديثة وعصرها!

فكان أن فكرت القيادة الثورية وتحرر يوصي في حل هذه المشكلة، بتطوير الأزهر الشريف، ليعود كما كان في عصور الازدهار، إلى جانب صنوه وصديقه يتعلم منه في أمن وحب، ومتخصص في علوم العصر والمعرفة الوجدانية يأخذ هذا العلم وهذه المعرفة ليبدأ هذه المتخصصات في دولة لا تفكر بسبيل وفي عصر لا يفكر بسبيل وفي فقه موضوع يبحث عن الحلول في فقه الأحكام الإسلامية فكان هذا الهدف النبيل هو الدافع إلى مشروع تطوير منهج الأزهر الشريف، الذي ما زال يعاني من صعوبة التوفيق بين قصور الضعف والتصور الذي أصدر مؤسساته الـ ٢، هذا الدافع هو المعبر عن اتجاه «الحل الحقيقي» لهذه «المشكلة»، التي عانينا منها كطلاب الأزهر، والتي عانى منها وجاهد في سبيل حلها أعلام تيار اليقظة والإحياء والتجديد، مثل الشيخ حسن العطار... وحتى هذه اللحظات

... نحن أمام «مشكلة» في قطاع كبير من مناهج التفكير الإسلامي، والتعليم الإسلامي، والخطاب الإسلامي الذي تقدمه الكثير من المعاهد والمدارس والجامعات والمساجد والكتب والصحف والمجلات والإذاعات والفضائيات... إلا أن الجمود والتقليد والتحجر والانغلاق الذي تتهدد فيه التغريب... ولا يزال يهيمن على الإحياء والتجديد والوسطية الإسلامية الجامعة يحارب في جبهتي الجمود والتغريب معًا، بل ولا يرى واقعًا - في أحيان كثيرة - بين شقي رحى هذا الجمود وذاك التغريب!

* * *

لكن واقعة الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م، التي هزت أمريكا في عقر دارها، ومن ورائها للغرب عمومًا، يرفعون شعارات الدعوة إلى تغيير مناهج التعليم الإسلامي، وتجريم ومقاصد الخطاب الإسلامي، وذلك في سياق الحملة الغربية - الحرب الإعلامية - التي أعلنوها على الإسلام، بعد أن قرروا ورفعوا الغطاء الهش الذي تخفق أغراضهم السياسية - والذي سموه «الإرهاب» - فاختفت في فضاء هذه الحملة كثير من الأوراق، وبين هذه الحرب على الإسلام، وتلك الشعارات التي طالما رفعها المجددون الإسلاميون، من أجل الإصلاح والإسلام، ورفضوا التغريب مع رفضهم للجمود والتقليد... الأمر الذي سوف يستوجب تمييز الطيب من الخبيث في هذه المقاصد والشعارات والدعوات.

فنحن مضطرون أن نميز بين هذه «المشكلة» التي تعاني منها مناهجنا التعليمية قديمًا، والتي جاهدت لتجاوزها كثير من علمائنا المجددين، ورفضها الجميع تقريبًا على تفاوت - على طريق الجهاد - بكثير من الإخلاص... نحن مضطرون أن نميز بين هذا وبين ما تطالب به أمريكا والغرب، على نحو صريح، وفي لهجة تتعالى حد الأمر والتهديد والوعيد، بإعادة تغيير المناهج والخطاب الإسلامي.

فما تطلبه أمريكا والغرب، تحت عنوان «تغيير مناهج التعليم الديني وتطوير الخطاب الديني»، هو - في حقيقته وجزء من «المشكلة»، وليس الحل «المشكلة» التي نعاني منها... بل إنه لتتضاعف جدة الشعارات التي جاءت به الغرابة لاستعادة الغربة التي فرضت من أجل... وإنه لا يضيع على المتأمل هذا الذي

سيدعم تيار جمود وانغلاق في فكريته الإسلامية، ويمنى مصدقيه ومشروعية تيار تعصب والرفض والتعصب والاجتياح، عندما يصبح أهل جمود والتعصب هم قادة المقاومة للاجتياح الغربي لتجمد الديني وتقوقع الديني.

ذلك أن ما تريده أمريكا - وتعمل كل ما في يدها من أجل تحقيقه - هو تحرك شعوب المسلمة - من الفيليبين إلى يوغوسلافيا إلى الأرثوذكسية الروسية - ليس «لتجديد» فكري ديني، وما هو «تجديد» يهدد الفكر الديني والتجديد هو استصحاب الثوابت، وفقه الواقع المعاصر في ضوء هذه الثوابت، ليست التي تريده أمريكا، هو «الخلع» الكامل للعربي - أي قيمه الطبيعية المعرفية الفكرية مع ثوابت الإسلام، ومع خصائص الجوهرية التي تميز هذا الإسلام.

وحتى لا يظن ظان أن رؤيتنا هذه هي محض «رأي وهوى»، أو مجرد «استنتاج»، فتعالوا نقرأ ونعي «المطالب الأمريكية العربية» من الدول والمجتمعات الإسلامية.. وهي - حسن الحظ - معلنة، وصريحة وواضحة، لا تحتاج إلى تأويل أو حتى تفسير!

إن من أهم خصائص الإسلام هي وسطيته الجامعة، التي جعلته دين الفرد والطبقة والأمة والإنسانية، دين الوطن والقومية والجامعة الإسلامية، دين الدنيا والآخرة، دين التكامل الفردية والاجتماعية، دين العقل والنقل والتجربة والوحدس، دين الروح والجسد، دين الشعائر والعبادات والقيم والمعاملات والسياسة والاجتماع والاقتصاد والفنون، بما يعني أن الدين لدى لا يكتمل قيامه إلا في جماعة وأمة ووطن ودولة ونظام ومجتمع، حتى إن رهبانيته ومسالمته هي الجهاد، الذي هو فريضة اجتماعية بامتياز!

وعلى نقيض من هذه الخصوصية - نتيجة جوهر الإسلام - جاءت المسيحية فهي رسالة روحية محضة، معرفة في الصورة بالروح والسلام الصوفي، هدفها خلاص الروح، ومملكتها في السماء، وليست في هذا العالم، ومن ثم كانت قيمه تكتمل وتتم في الرهبنة الفردية، التي تدير ظهرها للدنيا ولدولة والوطن والأمة والنظام والاجتماع.

ولهذه الحقيقة، كانت الدولة الكنسية الثيوقراطية، في تاريخ التطور الغربي،

تحور من الكنيسة حدود تصريفها، وكان لفصل العلماني، الذي عاد للاهوت المصري في دخل الكنيسة، وحرر الدولة والمجتمع من الدين، وعزل السماء عن الأرض، كان له الكثير مما نراه في الصحافة المصرية وخصوصيتها. الأمر الذي جعل العلمانية - في سياق خاص - للمهمة العربية حلا عربيًا لمشكلة عربية، لا علاقة له بطبيعة الإسلام، ولا بمشكلات الثقافة والسياسة في مجتمعات الإسلام.

فمشكلتنا - في التعميم الديني والخطاب الديني - في جوهرها هي الانفصام بين «الديني» و«المدني» في ثقافتنا الإسلامية، سواء بالجمود الديني الذي يجهل الواقع المدني، أو بالتغريب الذي يفقه الواقع المدني بمعايير وضعية عربية، جهله فقه أحكام الإسلام. وهذه المشكلة، التي نعاني منها، ونجاهد للخروج من أسرها هي بعينها التي تريد أمريكا - ومعها الغرب - تكريسها وزيادة حدتها وتعميم بلواها، على هذا النحو الذي نشهده بعد فاجعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م.

وقد شاع مدح مجرد المدح - من الخطاب - للأمريكان في هذا المقام، فحسبنا أن نشير إلى:

● ما كتبه المفكر اليهودي الأمريكي - الصهيوني - وعضو مجلس دور صنع القرار - «توماس فريدمان» عندما قال: «إن الحرب الحقيقية في المنطقة الإسلامية هي في المدارس؛ ولذلك يجب أن ننزع من حملة العسكرية في أفغانستان نعود، مسلحين بالكتب الجديدة، لا بالدبابات لتعمير تربة جديدة، وجيل جديد، يقبل سياساتنا، كما يجب شطائرنا»!

ثم يهدد بعض البلاد الإسلامية، فيقول: «إن المشكلة هي في مدارسكم الإسلامية». ويصف «تفسيرًا جديدًا للإسلام» ولا كما يفسره أمريكا «مثل الاتحاد السوفيتي، في الحرب على الشيوعية»! ثم يضع النقاط على الحروف، في هذا «التفسير الجديد» الذي يريده للإسلام، فيقول: «لا نريد حربًا على الإسلام، نريد حربًا داخل الإسلام»!! (صحيفة «الوطني» القاهرة في ٢٣، ٢٥ / ١١ سنة ٢٠٠١م - نقلا عن «نيويورك تايمز»)

● أن المفكر الأمريكي اليهودي «شهير»، ونشر على صفحات لقرار الأمريكي «فرانكفورتر» فيه بصوع ويمضي هذا الذي سماه «توماس فريدمان» «الحرب

داخل الإسلام»، وذلك عندما يعلن أن أمريكا تريد تصدير صيغة الإسلام، وتحديداً أخص خصوصياته، تريد إسلاماً أمريكياً، إسلاماً ليبرالياً، يقبل علمانية الغرب ويتسامح مع الصهيونية العنصرية. إسلاماً حديثاً، يقيم قطيعة معرفية كبرى مع ماضيه ومع خصوصية منهجه الشامل للدنيا والدين، إسلاماً علمانياً يقبل المبدأ المسيحي دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، لقد هدد الإسلام - مثل المسيحية - عندما لله من شعائر وعبادات، تارك دنيا المسلمين للعلمانية والغرب والقيصر الأمريكي!

وبعض عبارات «فوكوياما» توهمك، في الحقيقة، أسباب للاعتقاد بأن القيم والمؤسسات الغربية تلقى قبولاً كبيراً لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها. ولكن هذه الثقافات أو المناطق في العالم ستقاوم، أو ثبت أنها منيعة على قبول القيم والمؤسسات الغربية والإسلام هو الحضارة الرئيسية الموحدة في العالم التي لديها بعض المشاكل مع الحداثة الغربية. فالعالم الإسلامي، دون غيره من الحضارات، هو وحده الذي ولّد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة الغربية ترفض العلمانية نفسها. إن المسألة ليست بساطة «الحرب» على الإرهاب، كما تصور الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم - [١٢] - وليست المسألة الحقيقية هي السياسة الخارجية الأمريكية في فلسطين، أو نحو العراق، إن الصراع الأساسي الذي نواجهه، لسوء الحظ أوسع بكثير. إنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية. إنه صراع أكثر أساسية من الحظر الذي شكلته الشيوعية!

وإن ما يراه «فوكوياما» مشكلة تفرد الإسلام بمقاومته ومنعه من الاستحواذ على قلوب وعقول العالم غير الغربي، وفي جوهر هذه العلمانية الغربية هو «الإسلام الأصولي الإسلامي» التي يسميها بقية الإسلامية وقلوبها مقاومة قيم الحداثة الغربية، وذلك بخوض «الحرب داخل الإسلام»، تجعل هذا الإسلام حداثياً، يقيم قطيعة مع أخص خصوصياته منهجه الشامل للدين والدنيا جميعاً، وتجعله «علمانياً» يتبع ما لقيصر لقيصر الأمريكي، ويكتفي لله من شعائر وعبادات! يوجه «فوكوياما» إلى الإسلام الذي «الاستسلام» هذه عندما تقول

«إن التطور الأهم يسعى أن يأتي من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامي أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمي مع الحداثة الغربية، خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي حول الدولة العلمانية»!؟ (نيوزويك - العدد السنوي - ديسمبر سنة ٢٠٠١م - فبراير سنة ٢٠٠٢م)

فجوهر المشكلة الأمريكية مع الإسلام، ليس الرفض الإسلامي لسياسة أمريكية، ولا العنف المسمى باسم هذه السياسة الأمريكية، وإن المشكلة هي ذات الإسلام المتسع والمستعصي على تغيير طبيعته وخصوصيته، التي تكون له من مجموع ضخم وخصوصية توسطية الجامعة بين الدين والتدين والسياسة والدولة والقانون وتنظيم الاجتماع والعمران

وهذا يفكر الاستراتيجي بوضوح وبصريح يذكرنا بكلمات خبير الاستخبارات الإنجليزي، خبير الشرق والإسلام، «جون باتريشيا» (١٨٩٧ - ١٩٨٦م) التي قال فيها: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط - مع الغرب - إنما يعود إلى القرن السابع الميلادي»!! وهي كلمات مع هذا الذي قاله «فوكوياما» - كعينة بارزة لاستكبار وسيادة! وشاهدة على أن ما تريده أمريكا من وراء «الحرب داخل الإسلام»، هو عكس الذي نريده نحن عندما نتحدث عن مشكلة مع الجمود والتقليد في مناهج التعليم الديني وأساليب الخطاب الديني .. إن ما نريده هو «الداء» الذي نعاني منه، والذي نبحث له عن دواء!

● وفي ضوء هذه المقاصد الأمريكية المعلنة والصريحة، والتي قدمنا عنها مجرد مثال - من بين الكثير التي تضج بها وسائل الإعلام الغربية، ولا تزال، منذ ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م وحتى الآن - في صورتها نحب أن نشير إلى «طلبات» أمريكا من بعض البلاد الإسلامية:

- اختصار ساعات التعليم الديني بالمدارس إلى السدس!
- وقصر مناهج التعليم الديني على الشعائر والعبادات!
- والاعتمادات المالية الأمريكية «المحددة» المدرجة لديها في بعض بلاد الإسلامية!
- والاعتمادات المالية الأمريكية لمشروع «تكوين الأئمة المستنيرة» بالمساجد الإسلامية!

- وشاء أمريكا المستقبل على بلاد الإسلامية بي سحبت عليه « المطلب - الأوامر»! وكيف أصبح قدره هذه البلاد - بنظره الأمريكية - عدوح للاستثمار، وأهلا بمعونات، بعد أن كان «ديكتاتوريين» معصيين حسنة تفرض عليهم العقوبات على مجتمعاتهم ودولهم! لقد أصبحوا بعد نبية هذه « بصب» عدوح يحتذى بهم، سيروا على درب بعضهم من بعضهم، أمثال مصطفى كمال أتاتورك (١٢٩٨ ١٣٥٧هـ ١٨٨١ ٩٣٨ م) « الذي أجبر تركيا بإصرار شديد على أن تهجر ماضيها الإسلامي»! كما يقول «ستانلي أ ديس" في « نهج ترييون - يناير سنة ٢٠٠٢م».

فالمطلوب أمريكا - هو «حرب دخن الإسلام»، تغير طبيعة الإسلام، وتكسر شوكة متاومته ومنعته ورفضه قبول هيمنة القيم الغربية، وفي مقدمتها ما تعتبر منها حداثة بي تجعله يتسم قطيعة مع ماضيه و لعصبية بي تجعله صورة من نصرانية بي نشأت عنها من شعائر وعبادات، مع ترك نهب لإمبريالية لقيصر لأمريكي! كما يريدون هذا الإسلام ليبرالي، يقبل «تسامحه» نصرانية الغربية، «نصهيونية المعاصرة - التي يسمونها انسانية! - إسلامًا «يهجر ماضيه» كما يقول «ستانلي أ ديس» ومعذرة «فوكوياما» «إسلام عصابي، يقبل بأسد المسيحي: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»!

* * *

هذا هو ما يريده الغرب من حملته تحت عنوان «تغيير مناهج تعليم ديني وتطوير الخطاب الديني» في العالم الإسلامي.

وهذا هو عين «الداء» وجوهر «المشكلة» التي أصابت الفكر منذ عصر بعيد رجع انحطاطي - بشكل حاد - عندما حدث توقف من المسلمين بكل دين فقه الأحكام وفقه الواقع المعيش وبي جاء الغرب فحرسهم وكرسهم، وزاد من حدتها، عندما فصل التعليم الديني عن التعليم الدنيوي، فأصبح هذا يحصر «الحصانة» في علوم الواقع، يجهلون دينهم، وطلاب العلوم الدين، يجهلون دنياهم - وفي الحياة كثيرة «أخصائيون» لا قلوب لهم.. و«متدينون» لا عقول لهم!!

وهذه المشكلة ليست في الحداثة الغربية، ولا في النصرانية الغربية، فهما

الداء لا الدواء.. وذلك بكريس القطيعة بين الدين والدنيا.

وكل خير هو في «التجديد الإسلامي» يمكن تمثله في معالم المشروع النهضوي الإسلامي، الذي بدأه علماء كبار الإحياء والتجديد، وسقيه إسلامية حضارية، ومتميزة عن تيارى الجمود والتقليد، والعلمانية والتغريب كليهما.

وفي تحديد ملامح هذا التيار المتخصوصة الإسلامية، فإن أحد الباحثين المعاصرين يقول: «إن بحر الشريعة الغراء، على تنوع مشاربه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري».

وإن تحسين الأمور بمقاييس الطبيعة لا يُعتد به إلا إذا قرره الشرع. والتكاليف الشرعية والسياسية، التي عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات؛ لأن الشريعة والسياسة مبنيان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسّنه العقل أو يقبّحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه. ولا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحًا، وصوّبوا أنهم درؤوا بالمقصود، بتعدي الحدود.

فيسعى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة، لأن أحكام السياسة لم تخرج عن المذاهب الشرعية؛ لأنها الأصل. وجميع مذاهب السياسة عنها عمرلة الفرع» ـ [الأعمال الكاملة ج٢ ص٧٩، ٣٢، ٤١٧، ٣٨٦، ٣٨٧ وجـ١ ص٣٦٩، ٣٧٠] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

فهذا أول إعلان ـ في العصر الحديث ـ عن عجز الإسلام عن الوضعية بتعريفه الفلسفية والسياسية وأول رفض للعلمانية الغربية، من أول عين تشرق على الغرب في العصر الحديث!

أن الحل الديني الأقصى، فقد أعلن أن طريق الإصلاح الحق هو الإسلام «لأن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها. ومن طلب إصلاح الأمة بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططًا، ولن يردها إلا نحسًا، ولن يكسبها إلا تعسا» [الأعمال الكاملة ص٣١، ١٩٩] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

وبعبارة الإمام محمد عبده: «فإن أنفس المسلمين قد أُشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرًا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه. وما لم تكن معارف المصلحين العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في النفوس. والإسلام دين وشرع، جاء كمالاً للشخص، وأُلفة في البيت، ونظامًا للملك. لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يده في عمله. فهو دين الفطرة، والمدرسة الأولى التي يرقى فيها السرائر على سلّم المدنية. امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه» [الأعمال الكاملة جـ٣ ص١٠٩، ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

أما الذين يستجيبون لهذا الذي يريده أمريكا لإسلامنا وتعليمنا الديني وخطابنا الإسلامي - تقليدًا لما عند الغرب، أو إذعانًا لمطالبه - فلقد قال فيهم وعنهم وفي سلفهم جمال الدين الأفغاني - قبل ما يقرب من قرن ونصف القرن: «إن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها. والتمدن الغربي هو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني. ولقد علمتنا التجارب، أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها. وطلائع لجيوش الغاشم وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم»! (الأعمال الكاملة ص١٩٥ - ١٩٧)

* * *

هكذا نحسب أن التمييز قد تم بين «الطيب» و«الخبيث» في الدعوات إلى تغيير مناهج التعليم الديني، وتطوير الخطاب الإسلامي. وذلك بتمييز «التجديد الإسلامي» عن «التبديد التغريبي» بخصوصية الفكر الإسلامي.

إننا لا نزال مع الشعار الذي رفعه الشيخ حسن العطار قبل قرنين من الزمان:

«إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد لها من العلوم والمعارف ما ليس فيها»

لكنه «التغيير بالإسلام».. وليس «التغيير للإسلام»!..

والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

# قرن أمريكا؟.. أم قرن الإسلام؟

مع مطلع القرن الميلادي الواحد والعشرين، حدثت لأمريكا «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م».

وبصرف النظر عن الفاعل الحقيقي لهذه «القارعة» فقد كانت الفرصة التي انتهزتها أمريكا لتعلن عن مشروع الهيمنة الذي كانت تمارسه منذ سقوط الشيوعية - في مطلع العقد الأخير من القرن العشرين - مشروع الانفراد بالهيمنة على العالم، وإحلال «الشرعية الأمريكية» محل «الشرعية الدولية» والقانون الأمريكي محل القوانين والمواثيق والاتفاقات الدولية، والمؤسسات الأمريكية محل المؤسسات الدولية، تحقيقاً للسيطرة المنفردة على مفاتيح الثروات الاستراتيجية في العالم، للتحكم بمقدرات التكتلات الدولية والأمم والحضارات، وذلك حتى لا تظهر قوة دولية أخرى تنافس الإمبراطورية الأمريكية في قيادة العالم، بالمدى المنظور على أقل تقدير.

وإذا كان تاريخ أمريكا في محاولات «استغلال» الإسلام في الحرب الباردة هو تاريخ قديم، فإن سعيها لتكريس انفرادها بقيادة العالم قد جعلها تعلن - عقب «قارعة» سبتمبر - الحرب على الإسلام، صريحة حيناً، وتحت مسمى «الإرهاب» حيناً آخر، باعتبار أن الإسلام - وفق نظرية صدام الحضارات - هو أول القوى الدولية المستعصية على العلمنة وعلى القبول بعولمة منظومة القيم «الأمريكية العربية»..

لقد كشفت أمريكا - عقب «قارعة» سبتمبر - عن مشروع هيمنتها المنفردة هذا، وكتب كتاب الاستراتيجية فيها، وصرح صقور إدارتها أن القرن الواحد والعشرين هو «قرن الإمبراطورية الأمريكية»، بل و«الإمبريالية الأمريكية»!

وقبل مطلع القرن الواحد والعشرين بثلاثة عقود، ومع تصاعد مد النقطة الإسلامية، وسقوط مشاريع التحديث على النمط الغربي، في مختلف بلاد العالم - وخاصة العالم الإسلامي - وانعطاف المسلمين إلى «الحل الإسلامي» وأسلمة النهضة، أعلن الكثيرون من رواد النقطة الإسلامية أن القرن القادم - الخامس عشر الهجري.. الحادي والعشرين الميلادي - هو «قرن الإسلام»..

فأي الشعارين هو الأصدق في التعبير عن القراءة العلمية للمستقبل المنظور؟ وعما نريده لهذا المستقبل المنظور؟.

- هل هذا القرن هو قرن «إمبريالية» الإمبراطورية الأمريكية، بقيمها الغربية، ورأسماليتها المتوحشة؟.

- أم هو قرن الصعود والسيادة والظهور والتمكين للإسلام، والنموذج الإسلامي في الحضارة والتقدم والتجديد؟

* * *

في الإجابة على هذا التساؤل، الذي كاد أن يقسم ساحة الفكر إلى «فسطاطين»، نود هذه الدراسة أن تطرح هذه القضية من منظور جديد، وذلك من خلال إشارات إلى عدد من الحقائق والأفكار:

أولها: أن «جنون القوة» الذي تفرض به أمريكا مشروع هيمنتها، سيجعل عمر هذه الهيمنة قصيراً، خصوصاً وأن هذه «الإمبراطورية الأمريكية» تغلب على قيادتها عقلية «رعاة البقر»، الذين تقودهم أساطير اليمين الديني البروتستانتي، والذين يفتقرون إلى تاريخ حضاري يسلحهم بديبلوماسية الهيمنة التي تمتعت بها الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية السابقة.

كما أن «شعب» هذه الإمبراطورية الأمريكية ليس «أمة» - بالمعنى العلمي لمصطلح الأمة - وإنما هو خليط من الأمم والثقافات، جمعته قيم «حلم النجاح» الاقتصادي، والليبرالية السياسية.. وحتى هذه القيم «حُلم النجاح الأمريكي»، فإنها تتعرض للتآكل بعد «قارعة» سبتمبر سنة ٢٠٠١م.

يضاف إلى هذا أن «رحم» العالم تتخلق فيه الآن أجنة مشاريع مراكز قوى

والقصاص، لن يكون عسيرا حتى تقضي على الحلم الأمريكي بتحقيق مقاصده في التفرد والانفراد.

وتأتي هذه الحقائق أن حالة تستمر اليوم ليست كحالتهم مع مطلع القرن العشرين، عندما أخضعوا لمشاريع هيمنة الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية الإنجليزية والفرنسية واليهودية. فقد بدأ القرن العشرون والأمة الإسلامية خامدة، خلافها عثمانية في شكل تخصرها سياسي وإداري وتخصصي، وبدأ النموذج الحضاري الغربي في ذروة تألقه وبهائه، لقطاعات واسعة من عقول النخب المفكرة في البلاد، وبدت عند مقارنة هذا النموذج «بالحالة العثمانية» حتى وقد كانت هذه المقارنة من أفعل معجزات الغرب، ومن أخطر أسباب التمكين لهيمنة تلك الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية في بلاد الإسلام.

أما الآن، ومع مطلع القرن الواحد والعشرين، فإن الوضع مختلف اختلافاً «نوعياً» و«الحدثة» فالقرن العشرون، وإن كان قرن كتمان وعموم سوء استعمار وركوب للعالم الإسلامي، فقد كان أيضاً قرن استعادة الإسلامية بقصد العقل والاجتهاد والتجديد، وبقصد الوعي بالحركة في مسيرة الإسلام. وقرن التحرر الوطني، الذي نهض فيه الإسلام بدور ريادي في تحقيق التحرير «للأرض» ومن «الاستغلال الحضاري» الأمر الذي ذهبت بشهد ذلك القرن تصفية الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية جميعها.

كما كان القرن العشرون قرن إعلان الإفلاس للمشروع الحداثي الغربي، فسقطت فيه «الحداثة» التي أرادت إقامة قطيعة معرفية كبرى مع الموروث الديني، وجعل الإنسان سيداً للكون، لا خليفة لسيد الكون. ومع نهاية هذا القرن العشرين، ماتت - أيضاً - في مهدها عثمانية وعلمانية وتفكيكية ما بعد الحداثة العربية!.

وهكذا نجد أنفسنا - في العالم أجمع وخاصة في العالم الإسلامي - مع مطلع القرن الواحد والعشرين أمام «تغير نوعي»، يتقارب في حجمه مع ما حدث في مطلع القرن العشرين..

لقد سقط النموذج الغربي في التقدم والنهوض والتحديث، وانتهت قواه علامات الاستفهام حتى في بلاده.. ولم يبق من مقومات الهيمنة العربية، على المشروع الأمريكي، إلا «الجنون بقوته الغرعونية» و«الوحش الأمريكي» وتلك مقومات «مأساة درامية» من فصل واحد.. ولا يمكن أن تكون مقومات مشروع حضاري مقبول، أو قابل للحياة.

ومع سقوط المشروع الغربي للتحديث، وانكشاف وانهيار عملائه في بلادنا، أصبح معالم المشروع الإسلامي في الشعور، والتجربة لدى الجماهير الأمة، هي الخيط الذي أسفرت عنه انتفاضات الجماهير وخلاصة المتناقضات السياسية ونتائج «صناديق الاقتراع» حيث تكون هناك حرية في الاقتراع!

* * *

ولا أكن هنا من الشك في صدق هذه الحقيقة فيما يرتبط بها من ملابسات أو شروط أمام شدة ضربات «الجيوش المعادية الأمريكية» على امتداد القطر العربي الإسلامي، وفي أعقاب النكسة والهزيمة تتوارد هذا اليأس والقنوط.

● فشدة الضربات الاستعمارية تكاد تعني أن الأمة في حالة تمدد وتمزق ونقطة، وليست في حالة نوم أو سبات أو موت.. ولا هي كانت منذ بدأت إليها أحد، ولا ضربها ضارب، بـ«الضرب في سبيل حرام»!.. ولا يستهين جهد الضاربين ولا تفقد الضربات!..

● ثم إن المعيار الفارق بين «اليقظة والحيوية والصعود» وبين «السبات والموت» هو «الإرادة». وليست «الخسائر المادية» في المعارك والتضحيات الباهظة، قد انكسرت إرادتها منذ أن ضرب أمريكا في سنة ١٩٤٥م. وبعد ذلك التاريخ لم يعد ليابان مثل أكثر من «مصنع» نشط في إنتاج مادي يبدو أنه الإسلامية تزايد صلابة وتماسكا، وتتعاظم كرهتها بسعي الأمريكي، وتتصاعد رفضها للصلح والخور، حتى ليخشى تيارها الوسطي التعريض من نمو فصيل العنف والعصب والاحتجاج والانسحاب والانكفاء في مواجهة التحديات التي فرضتها عليها قوى الهيمنة الأمريكية!

● ثم إن الجهود الخيرية في هذه الأمة الإسلامية حاشا، مرتبطة بجهود بناء

العظيم القرآن الكريم، وتكون أمة برسالة خاتمة، وبشريعة خالدة، وبارتباط تجددها الحضاري بالدين المطلق والخالد. ويجعل الله، سبحانه وتعالى، هذه الأمة شاهدة وشهيدة على العالمين. وصدق الله العظيم: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ [يوسف ٨٧].

* * *

أما الحقيقة الثالثة، من حقائق الإجابة على هذا السؤال:

- هل نحن أمام قرن أمريكا؟.. أم أمام قرن الإسلام؟؟..

فإنها تقول: إن هذا السؤال خاطىء من الأساس!

ذلك أن الإسلام - وهو يرفض الهيمنة الأمريكية، وكل هيمنة استعمارية أو حضارية - لا يقدم نفسه بديلاً للآخرين، ولا يسعى كي يحل محل الآخرين. فالرؤية الكونية للإسلام ترى العالم «منتدى حضارات»، تتفاعل فيما هو مشترك إنساني عام، وتتمايز في خصوصياتها العقدية والقيمية والثقافية. ولا تريد هذه الرؤية الإسلامية العالم حضارة واحدة، حتى ولو كانت هذه الحضارة هي حضارة الإسلام. فمنطقة الرؤية الإسلامية تكون أن الواحدية والأحدية هي فقط الذات الإلهية، ومن عدا الذات الإلهية، وكل ما عداها - في كل عوالم المخلوقات - تقوم على التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف.. في الأمم والشعوب، وفي الشرائع والملل، وفي المناهج والثقافات والحضارات، وفي الألوان والأجناس، وفي الألسنة واللغات والقوميات. وكما رفض الإسلام أن تكون الشيوعية العربية هي البديل للرأسمالية العربية، فهو يرفض أن تكون الهيمنة الأمريكية هي الوارثة للثنائية القطبية. ويريد العالم «منتدى حضارات»، تعيش فيه وتزدهر كل الحضارات.

إن الإجماع الإسلامي منعقد على رفض الهيمنة الأمريكية على العالم، وعلى رفض إحلال «الأمركة» محل النماذج الحضارية غير الأمريكية والعالمية.

ومع هذا الرفض، وعلى ذات مستواه، فإن الرؤية الإسلامية، التي تجعل التعددية سنة كونية لا تبديل لها ولا تحويل، ترفض كذلك أن يكون النموذج الحضاري الإسلامي بديلاً لحضارات الآخرين.

يريد الإسلام بعالم «منتدى حضارات»، تركي بتعددية حضارية فيه التدافع والتنافس والتسابق بين الحضارات. إذ لا تنافس ولا تسابق ولا تدافع بدون تعدد وتمايز واختلاف. ولا إصلاح ولا صلاح بدون هذا التدافع والتسابق بين الثقافات والحضارات ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥]

وفي ظل عالم متعدد الحضارات والثقافات، يريد الإسلام أن تقوم العلاقات بين هذه الحضارات وأممها على توازن قطبي «الاشتراك» و«التمايز» معاً. وفي إطار يعتمد «توازن المصالح» لا «توازن القوى».

وبهذه الرؤية الإسلامية المتميزة تميُّز الإسلام - فإن الإسلام يريد القرن الواحد والعشرين قرن النموذج الأمريكي لأمريكا، وقرن النموذج الصيني للصين، وقرن النموذج الهندي للهند، وقرن النموذج الياباني لليابان. كما يريده قرن النموذج الإسلامي في داخل عالم الإسلام. وذلك حتى تتسابق الحضارات العالمية في ميادين التفاعل لا التقاتل، والتعايش لا التناحر، والتعارف لا التخاصم.. والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

إننا عندما نقول إن هذا القرن هو قرن الإسلام في العالم الإسلامي، لا نطلب أكثر من أن يفتح التفاعل الحضاري أبواب استفادة الآخرين مما نراه متميزاً للنموذج الإسلامي. كما نريد - في ذات الوقت - أن نفتح هذا التفاعل الحضاري الأبواب أمامنا نحن المسلمين للاستفادة من تميزات النماذج الحضارية الأخرى. فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها. والحكمة في المصطلح الإسلامي - هي «الإصابة في غير نبوة» وهي «لطف» إلهي، لم يحرم الله فرداً ولا أمة ولا حضارة من نعمتها، على امتداد التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فلدى كل حضارة ما تعطيه للآخرين، وما تفيد الآخرين.

تلك هي حقيقة الإجابة على السؤال المطروح بإلحاح على الساحة العالمية، مع مطلع هذا القرن الواحد والعشرين:

- هذا القرن، هو قرن أمريكا؟.. أم قرن الإسلام؟؟..

وبذلك، فإن الاجتهادات الإسلامية التي تعمل على بلورة معالم مشروع حضاري إسلامي، والتي تحاول تقديم إجابات إسلامية لأسئلة هذا القرن الواحد والعشرين، إنما تعمل على تقديم إجابات إسلامية للنهضة الإسلامية في العالم الإسلامي، ولا تقدم بديلاً إسلامياً للحضارات غير الإسلامية. فنحن نريد إقامة النموذج الإسلامي في عالم الإسلام، وبعد ذلك فلينظر فيه من يريد وليستفد منه من يريد..

إننا نجتهد لتقديم معالم مشروع ثقافي وحضاري للعقل المسلم أولاً، ولإنهاض العالم الإسلامي بالدرجة الأولى. ثم نقول - بعد ذلك - للآخرين: هذا هو إسلامنا، الذي به نؤمن، وإليه ننتمي، وفي سبيل سيادته لبلادنا نجاهد، والذي لا نكره عليه أحداً. فقرآننا الكريم يعلمنا أنه ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦]. كما يعلمنا أنه لا إكراه بل ولا وحدانية في المناهج والشرائع والثقافات والحضارات، لأن التعددية فيها سنة إلهية كونية، لا تبديل لها ولا تحويل. وليست مجرد حق من حقوق الإنسان. ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ [المائدة: ٤٧].

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [المائدة: ٤٨].

أما ظهور الإسلام على الدين كله، وهو ما نؤمن به انطلاقاً من قرآننا الكريم، وانطلاقاً من الواقع الذي جعل لهذا الدين حادثته المشهودة، حتى مع استضعاف أهله. ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [التوبة: ٣٣]. ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ [الفتح: ٢٨]. فهو ظهور الحلول الإسلامية والنماذج

الإسلامية، في عالم الإسلام أولاً، ثم تأثيراتها وإشعاعاتها الملقاة بأمتنا النموذج والقدوة، في إطار التفاعل الحضاري لدى الآخرين.

فمعركة الإسلام الكبرى، في هذا القرن الواحد والعشرين، هي:

١ ـ إزالة طاغوت الهيمنة الأمريكية، وأية طواغيت لأية هيمنة استعمارية أخرى.

٢ ـ وبعث الحضارة الإسلامية، كمنهاج شامل في التقدم والنهوض، وذلك ببلورة معالمها وسماتها وقسماتها..

٣ ـ ثم إقامة هذه المعالم الحضارية في أرض الواقع والممارسة والتطبيق لعالم الإسلام، وتلك مهمة كل فصائل اليقظة الإسلامية في هذا القرن الواحد والعشرين...

وذلك حتى نقول للعالم أجمع: هذا هو إسلامنا، وهذه هي حضارتنا الإسلامية، وذلك هو إسهامنا المتميز في ميدان التسابق على طريق الخير والتقدم والتحضر والنهوض نحو عصر أكثر إشراقاً وأخف قيوداً من عصور الهيمنة والقهر والاستعمار والاستغلال.

فمهمة الإسلام هي الإحياء والتحرير والتكريم لكل بني آدم، من مختلف الأمم والقوميات والحضارات والديانات: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾ [الأنفال: ٢٤]

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [الأعراف: ١٥٧]

تلك هي رسالة الإسلام للعالم وللعالمين، وهذه هي مهمة اليقظة الإسلامية في هذا القرن الواحد والعشرين.

* * *

# صورة الإسلام فى التراث الغربى

بعض الناس يختزل - ومن ثم يسطّح ويزيّف - موقف الغرب من الإسلام، وذلك عندما يرده إلى خوف الغرب من ظاهرة «التشدد والعنف»، بتدبير تمارسهما بعض الجماعات باسم الإسلام، أو إلى وجود بعض النظم المستندة إلى نشر الاستبداد بشعارات ورموز الإسلام.

لكن أصحاب هذه النظرة يتجاهلون - ولا أقول يجهلون - أن هذا الموقف العدائى لدى كثير من مؤسسات الفكر والدين والسياسة فى العالم الغربى، هو موقف قديم، وسابق بقرون كثيرة على ظاهرة العنف ونظم الاستبداد التى ترفع شعارات الإسلام.

● فالقائد والكاتب الإنجليزى «جلوب باشا» الذى ظل قائدًا للجيش الأردنى حتى سنة ١٩٥٦م - والذى كتب عن الفتوحات العربية، قد كشف عن كبد حقيقة عندما أرجع تاريخ مشكلة الغرب مع الإسلام إلى ذات اللحظة التى ظهر فيها الإسلام، فقال: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»!

وهى عبارة جديرة بإيقاظ الجاهلين وردع المتجاهلين.

● وأكبر وأخطر مؤتمرات الكنائس العربية، الذى انعقد فى «كولورادو» - بأمريكا - سنة ١٩٧٨م، لتنصير المسلمين، قد أرجع هذا العداء الغربى المحموم للإسلام، إلى ما رآه «الطبيعة الإسلامية المناقضة للنصرانية» - كما فهمتها الكنائس العربية - فقالت مقررات هذا المؤتمر: «إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية، وإن النظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا، إنه حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطًا يفوق قدرة البشر. ولابد من مئات المراكز، التى تؤسس حول العالم، بواسطة

الحضاري، متركز على الإسلام، بمفهومه، ومتعارض معه، وخوفه في صدق ودهاء»!

● ونفس الموقف الذي تتخذه قسوسه بتصدر من الإسلام، تجده لدى واحد من المفكر الاستراتيجي الغربي من عينة صمويل هنتنجتون الذي وصلت حدة عدائه إلى الإسلام هو العدو، الذي حل محل الاتحاد السوفيتي بشر الشيوعية»، والذي توجه إليه ولي عهده وأمة قوة حضارية شمولي الأطلسي وأمة حرية، عندما يحدد هذا الخطر بوصفه «الأرض المشتركة» لأعدائه، أو ما يسميه «المصالح المشتركة» لهؤلاء الأعداء! وقد نهده حينما حينما أعداء الغرب الإسلام بعد تراجعهم من ضفة الإسلام، التي سيطرت وستسيطر على «العالمية»، التي على الغرب في نموذج الحضاري الغربي، وسعية لسيطرة الحضارة الغربية وقد عبرت مجلة «الشؤون الدولية» البريطانية - في عددها الصادر سنة ١٩٩١م - عن هذه الحينما عندما قالت: «لقد شعر الكثيرون في الغرب بارتياح في كشف تهديد يحل محل التهديد الشيوعي. وقد كان للإسلام حضوراً في الشؤون العالمية مفهوم للعدالة، وسيطرته على المؤمنين به قوية، وهي قوى لا تزال كامنة في هذه الحضارة، ولكنها قوى - من بين ثقافات العالم - تهدف بشكل مباشر لتحدي الغرب الحديث، ليس بسبب سوء النية بقدر ما هي نتيجة حتمية لاختلاف وحيد في توجه كل منهما العالمي والحقيقي للمجتمعات الغربية»!

● ويفكر الاستراتيجي الأمريكي الرئيس السابق ريتشارد نيكسون - يذكر في كتابه «الفرصة السانحة» أن العداء للإسلام هو الأمر الأكثر شيوعاً، والأسوأ صورة لدى جمهور الأمريكيين «فكثير من الأمريكيين يتصورون أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير متعلمين، ويعتقدون أن الدين الذي يعتنقه واتباعه هي سبب في انتشار الدين الإسلامي في شتى أرجاء العالم، وحتى وراء ولذلك، فإن كثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء. وليس هذا تصوراً خاطئاً في ذهن وضمير الجمهور الأمريكي، عن صورة العالم الإسلامي»[٩]!

وهكذا.. فعداء المشروع الغربي للإسلام - وهو موقف معلن من كثيرين في

دوائر ومؤسسات صنع القرار، وليس وهم صنعته الأدمغة المؤامرة» - إنه يمثل مشكلة أسبق وأعمق من الوضع الراهن ولأسبابه التي أثمرتها حركات العنف والتشدد باسم الإسلام أو نظم الاستبداد العربية والإسلامية بعدة حقوق الإنسان أو حتى لاحتكاك العنف - في العصر الحديث - بين الاستعمار الغربي وعالم الإسلام

إننا أمام موقف عربي قديم، متجذر في بدهيته العربية، ومتجسد وشائع في ثقافة العرب الشعبية، والأدبية، والتاريخية، والسياسية، وحتى في «الفلكلور» وهذا الموقف بعده الاقتصادي والعسكري أيضاً

إنهم يعودون به أولاً إلى ظهور الإسلام، وانتشاره الذي دخلت به شعوب بصراعاته في دين الإسلام والتي فتوحات الإسلامية، التي حررت بشراً من الاستعمار الغربي «الإغريقي - الروماني» الذي دام عشرة قرون من الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٤ق م) وحتى هرقل (٦١ - ٦٤١م) وفي حروبه الإسلامية التي قضت لاستعمار الأسطوري الصليبي، الذي دام قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١م)، وفي حركة التحرر الوطني العربية التي جعلت الشمس تغرب عن الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية وأخيراً في حروب العرب من القضية الإسلامية المعاصرة، التي تسعى لتحرير ثروات العالم الإسلامي من قبضة الاستغلال الغربي وفي استقلال حضاري، وللتكامل السياسي للعالم الإسلامي تلك هي أبعاد وأعماق موقف العربي من الإسلام

* * *

وقد كان من العبث أن يتوهم المستشرقون في موقفهم من الإسلام، أن يعيش كلٌ منهم وحده ضمن برج عاجي، وأن ينعزل عن أن في العرب علماء ومفكرين وتيارات فكرية وسياسية، بل ومؤسسات، تحاول أن تتفهم الإسلام، وأن تتخذ موقفاً مضاداً من قضايا المسلمين ومن البحث في كتابات هؤلاء العلماء والمفكرين، عن خلفيات فكرة موقف العرب من الإسلام هو واحد من مهام جهود الاستشراق الفكرية، التي لا يتربص بها العقل العربي والمسلم في واقعه الفكري الراهن.

فحتى تفهم البعد الحقيقي لموقف الغرب من الإسلام والمسلمين وحتى تفهم أصول «الصورة» التي «اصطنعها» الغرب لنفسه لم لإسلام وحتى تحكم في تعاملك مع الغرب وفي تحديد موقفك منه لابد «للعقل المتحضر» في ثقافة الغرب وضميره الغربي وحتى من وراء هذه السطحية والاختزال والتزييف قد تنجح في «شهادات الغرب» نفسه عن «تحضر» هذه «العقلية» التي نحن بصدد الحديث عنها وفي تحليل وتفكيك ـ من قبل المؤسسات «الغربية» ـ لواقعة في قضية تهمة الغرب بالعداء للسامية وفي دعوى اتهاد الإسلامي خطورة لغرب وحتى نتعرف على أسباب الأساسية لهذه الحساسية المرضية عن «صدام الحضارات» و«نهاية التاريخ» وذلك فضلا عن موقف الإسلام وأمته وعالمه في مختلف وسائل الإعلام الغربي

ولقد كان لابد لنا من أن نقف لا يسمح بالإطالة في بعض نماذج من هذه «الشهادات الغربية» على حضارة وشيوع هذه العقلية الغربية الإسلام والمسلمين فوقفنا أمام دراستين أساسيتين، كتبهما «المستشرق الفرنسي» و«الخبير الدولي» وهما من خيرة المفكرين الألمان المعاصرين.

● فبدلا من أن ينظر الغرب إلى الإسلام كدين سماوي.. وإلى القرآن كوحي إلهي.. وإلى محمد ﷺ كخاتم الأنبياء والمرسلين، مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل والرسالات السابقة، وبدلا من أن ينظر إلى الفتوحات الإسلامية باعتبارها تحرير الشرق وشعوبه من الاستعمار الإغريقي الروماني والغربي المتكرر الذي بدأ منذ سحق الشرق وشعوبه عشرة قرون من الغرب وقبل ميلاد وحتى الغرب المسيحي بثلاثة قرون على الأقل ـ بدلا من ذلك نرى الأوربيين ـ وعلى رأسهم في هذه الحروب الإسلامية عندما فتح الشرق من عالم المسيحية وكنيستها، قامت به الكنيسة المتحدة بمؤسساتها تزعم أن الإسلام انتشار هذه المؤسسات الأساسية «قد دعى الأوربيين أن محمد ﷺ كان في الأصل كاردينالا كاثوليكيا، تحولت كنيسته في بعض البلدان التي قام بتأسيس طائفة منحرفة في الشرق تتألف من الكنيسة وعشرات أوربا المسيحية، في الغرب الوسطى، محمدا ﷺ أراد الأكثر من المسيحية، الذي يحمل وزر نفسه نصف البشرية عن الديانة المسيحية!»

فهذه شهادة أدبية، هي في تعبيرنا «الشهادة الإنجيلية» خلوت بالشاعر عن أن مشكلة العرب مع الإسلام بدأت تعود إلى القرن السابع للميلاد وليس إلى ظهور حضارات عنف وعنو إسلامية أو استعمار غربي الحديث لعالم الإسلام بل ولا حتى لحروب الصليبية فالجذور أكثر بعداً في بطون التاريخ!

● وقد كان ريتشارد بيكسون قد عبر «أنه حمت هذا صوره في ذهن وضمير مواطن أمريكي أسود من صورة عالم الإسلامي» فإن «الصناعة هذه الصورة» - في الثقافة الغربية والضمير الغربي سابقة على قيام إسرائيل وحقبة النفط وضرب العنف الإسلامي و«الشهادات الأدبية» تحدث عن أن «الإفريج» هذه الحروب الصليبية أي غير بحوالي ألف عام - كانوا يطلقون على العرب والمسلمين صفات «حسن الخلق الحقير والكلاب الخبيثة»[11] وهي مصطلحات التي لا تزال شائعة في صحافة الغرب المعاصر، وفي أفلام هوليوود!.

● وهذه «الصورة النمطية والشائعة» - للإسلام والمسلمين - لم تنبع عن تصورات العامة وتوهمات وقد شاركت الخاصة والنخبة من رجال الدين والفلاسفة والشعراء بل إنهم هم الذين صنعوا هذه الصورة، تستجيب بعد ذلك إلى ثقافة شعبية مسيطرة على تصورات الجماهير.

● فمارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) زعيم الإصلاح الديني، وراس الكنيسة البروتستانتية هو الذي تحدث عن القرآن الكريم قائلاً «إن كتاب بغيض وقبيح ومنحوس هذا القرآن، مملوء بالأكاذيب والخرافات والفضائح»[12] قال ذلك، بعد أن قرأ ترجمة لمعاني القرآن، الذي تحدث عن التوراة والإنجيل فقال فيهما هدى ونوراً!.

كذلك تحدث مارتن لوثر عن نبي الإسلام ﷺ فوصفه بأنه «أحمق ساخر، وشاذ ومتعصب»[13] هذا ما عرفه عن القرآن عن صفات تعظيم و عصمة التي جاءت بها عن عيسى وأمه ومعجزاته، وكل الأنبياء و الرسل، عليهم السلام.

فقد كتب مارتن لوثر «صديق صورة» من الأكاذيب العربية، يهدف من ورائه شحن نفوسهم بالأحقاد ليتحولوا إلى وحوش في حربهم ضد الأتراك المسلمين ومن أجل ذلك قال في إحدى «مواعظه» «أرى أن مقدسة عليهم أن يحطموا لأن أمام الشعب عن قصائد محمد، حتى يردد المسيحيون عبارته، ويصبح بقوى بمعتقداتهم المسيحية، وستضاعف حماستهم وتسابقهم في حربهم، ويضحوا بأموالهم وأنفسهم!!»

● ولم يكن حظ الكاثوليكية أفضل من حظ البروتستانتية في صنعة هذه الصورة المحرفة عن الإسلام والمسلمين، فالقديس «توما الأكويني» (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) أعظم فلاسفة المسيحية الذي استفاد من الفلسفة الإسلامية لم تهدأ هذه الفلسفة من بغضه للإسلام ولنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام - فزعم في كتابه (الشامل في الرد على الكفرة) أن «محمداً قد أغوى الشعوب من خلال وعوده لهم بالمتع الشهوانية، وأنه قد حرّف جميع الأدلة التي أوردها في التوراة والإنجيل من خلال الأساطير التي كان يتوهم على أصحابه، ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من العشائر الذين كانوا يعيشون في البادية!!»

● أما الفيلسوف الأشعري «الجويني» (١٧٤٩ - ١٨٣٢م) الذي عده المستشرقون والمنصرون من أعظم رواد الفكر الديني الإسلامي لم يسلم من كيده وأحقاده، فزعم أنه «قد نصب حول العرب علاقاً دنيئاً كثيفاً، وعرف كيف يحجب عنهم الأمل في أي تقدم حقيقي»!!

● وكذلك صنع «الغزالي» (١٢٦٥ - ١٣٢٢م) الشاعر الإسباني عندما وضع رسول الإسلام ﷺ وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجحيم لأنهما في نظره «هما شخص وشقاق، وبذلك قطعت أجسامهم وشوهت أجسادهم هنا في دار السعير»!!

كل ذلك وأكثر من ذلك، صنعته أحبار من الكنيسة الأوروبية بصورة الإسلام والمسلمين، حتى لقد تحولت هذه الصورة المشوهة المكذوبة والمكذوب شيئاً فشيئاً في ثقافة شعوب أوروبية تحكيها وتتوارثها وترسخت أشباحها و«الأساطير» في وجدان العامة والجماهير.

● تعبر «الكوميديا الإلهية» لدانتي دشت «صحة رواية» حربي سنة م بسقوط شرق الشتات بتصريحي على عمدة التوحيد الإسلامية، وعصب مسلمين بعبدة ثلوث أصنام «بولس APOLLIN وتيرفاجانت FRVAGANT ومحمد MAHAMET وأن المسلمين يعصمون يوم جمعة؛ لأنه يوم سبت اليهود!! سمه بعطلة نصارى يوم لأحد؛ لأنه يوم الله!! وذلك بتقص في مقاصد من «اصنع هذه الصورة الثلاثة» وهي شحن وجدان العامة بحقد على يدعى في قارة محاربة مسلمين. ففي هذه الصحة بدل الأساطير «كرن لأنترا - الشر مرتل» جدوده، كي يصحو مسلمين، فيقول «تطرق في هذا الشعب المغلوب» أنه شعب صحة، لا علاقة له بالله، سوف يمحى سمهم من فوق الأرض وجه الحياة؛ لأنهم عبيد، لأصنام لا يمكن أن يكون بينهم وبين الله خلاص، فالله حكم عليهم قبل أن يخلق حكم بسم الله» ثم تبدأ المذبحة!!

تلك هي صورة الإسلام في تراث الغربي كما عرضنا هذه الصورة الأساسية - وهي تمثل جذور الصورة الإسلام المعاصرة في الإعلام الغربي وهي التي يتحدث ولا يتوقون بتحيزها. فالغربيون الذين يصورون أن حل هذه المشكلة لا يتطلب أكثر من «تحسين الإسلام» يكون مسئولاً من يعتقد الغربي، وهذه المعرفة «العلاقات العامة» بصحة تسوق هذا الإسلام ملائم لشكل الغربيين!

ولهؤلاء الغربيين الذين يعبرون عن تصوراتهم عن الإسلام بهذه الصورة المشوهة لا يدركون أن وضعهم وتحيزهم في مواجهة الشرق والمشرق لا يدرك لدونيته. وعندما يكون في «وضع المحترم»، يتطلب الغرب - بحضارته وجماهيره - أن يغير تصوراته عن الشرق هي الحرية الغرب مع الشرق وتصحيح. وكذلك حرية مع صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ - ١١٩٣م) فقد أصبح في الثقافة الغربية نموذج «البطل - الإنساني - النبيل»، لأنه قد أصبح - قبل ذلك بقليل - سبيل في صدين التسامح والتسامح. وصدق الله العظيم ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١].

* * *

## • الهوامش

(١) انظر كتابنا (العمارة الجديدة على الإسلام) ص٨٥، ٢٩، ٣٤، ٣٥ طبعة القاهرة [illegible] سنة ١٩٥٨م

(٢) انظر في هذه الوقائع والنصوص، هوبرت هيركومر، وجيرترود رو [illegible] الإسلام في الشرق العربي) ترجمة لبنى عبد [illegible] د. محمد عمارة ص١٨، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٤٣ طبعة القاهرة دار نهضة مصر سنة ١٩٩٩م

* * *

# منهجية التنوير الغربي
# وتجديد العلوم الإسلامية

لقد كانت ثورة التنوير الغربي [illegible] من فلسفتها الوضعية والمادية [illegible] على اللاهوت الكنسي النصراني، وعلى الثقافة الغربية عموماً. فالفلسفة الوضعية لهذا التنوير الغربي قد «أنسنت» الدين وأصوله، فنزعته من محتواه الجوهري والحقيقي - أي من «الدينية» - ووقفت بنطاق «العلم» عند حقائق «الكون» لا «الغيب وما وراء الطبيعة». ورأت الدين طوراً مرحلياً [illegible] طفولة العقل البشري، تلته ونسخته مرحلة «الميتافيزيقا»، التي تلتها ونسختها المرحلة «الوضعية».

كذلك، جعلت ثورة التنوير الوضعي هذه الإنسان «طبيعياً»، إن لم يكن حيوانياً، لا «ربانياً» نفخ الله فيه من روحه. ثم نزعت القداسة عن الدنيا والحياة والدولة والثقافة والاجتماع، عندما جعلت الإنسان «سيد الكون» بدلاً من أن يكون «خليفة لسيد الكون»، وبذلك عزلت هذه الفلسفة التنويرية السماء عن الأرض، وانفلتت بالإنسان من رعاية الله.

ولذلك، كانت تأثيرات هذا التنوير الوضعي الغربي - التي جاءت إلى عالم الإسلام في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة - تأثيرات سلبية، [illegible] أن تصنع مع العلوم الإسلامية وأصول الدين الإسلامي ما صنعه التنوير الغربي مع اللاهوت الكنسي النصراني، وأن تصنع مع ثقافتنا الإسلامية ودولتنا وعلومنا الاجتماعية والإنسانية ما سبق وصنعه هذا التنوير الغربي مع الحياة والعلوم والثقافة في أوروبا منذ عصر نهضتها. فتخلقت لدينا مشكلات «مستوردة ومفتعلة» بين «العقل» وبين «النقل»، بين «الدين» وبين «العلم»، بين «الدولة» وبين «الدين»، بين «الوطنية» وبين «القومية» و«الجامعة الإسلامية»... إلخ... إلخ

ذلك، فإن من أسس فلسفة نقد العقل العربي وضع علم جديد وخاص في دراسة العلوم الإسلامية وأصول الدين الإسلامي، هو كما أشرنا مختلفا، لتحقيق التميز الحضاري الإسلامي الذي قام فيه علم التوحيد الإسلامي مؤسسا على علم غيب متعلم لكوني في عالم شهادة، بينما النموذج الغربي يجعل العلم الكوني في عالم شهادة مجعل العلم الإلهي علما غيبا، فيقول:

كما أن تأسيس هذه الفلسفة النقدية الوضعية العربية يتحقق أيضا على أصول الدين الإسلامي على سابق "العقل" و"النقل"، لأن "العقلانية الإسلامية" فرضية إلهية وتكليف شرعي جاء به «النقل الإسلامي»، فنحن نقرأ النص بالعقل، ثم نعود فنحكم العقل بالنص، أن نحكم "النسبي" "المتغير" بالكلي و"المطلق" ولقد تعقل عبد بالنقل، وهذا هو "الخطوة" الأولى، وهو الذي يجعل العقل حرا في تكييف الواقع، وهذا هو طريق "السعادة"، والعقل هو الحاكم والقاضي في فهم هذا النقل، وفي نفس الوقت محكوم عن متشابهه كما هو الحال في التكليف بإقامة الدين، وهو طريق إلى معرفة الله بالنظر والتدبر في آياته سبحانه وتعالى، لأن صدق «النقل» متوقف على صدق «الرسول» الذي جاء به «النقل»، وصدق "الرسول" متوقف على وجود الله الذي أرسله، فلا بد من الإيمان أولا، وبالعقل، بوجود الله، سبحانه وتعالى، بما في ذلك التصديق بالرسول وبما جاء به من كتاب.

فالخطر الشديد من تأثيرات فلسفة النقد الغربي على تجديد الفكر وعلى التجديد لعلم الكلام وأصول الدين - هو شرط نقدية هذا العلم، وبقاء أصول الدين، وهذا هو أيضا حضارية وشرعية نقده عن نسخ وتسخ وتشويه.

* * *

وبذلك فإن مع كل الاعتراضات التي يمكن أن تقال لاستخدام فلسفة العلم الغربي وتأويل تجديد الغربي تأسيسا وتوظيفا لعلمية وتاريخية النصوص الدينية - كما صاغتها المناهج المعرفية الغربية.

أن مع الاعتراض الشديد على استخدام هذه الآليات والمناهج الغربية في تجديد العلوم الإسلامية، وخاصة علم أصول الدين، وذلك انطلاقا من أن هذه

لاستخدام وهذه لاستعاره يتحدهلان جميعاً خصوصيات حضارية وثقافية في المعرف لإنسانه ولمنهجيات بحثية لأمر الذي يحتاج بعض "الطابع الحضاري"، وهو مفهوم يستخدم في نطاق "تشعيبه وتعقيد" وذلك فضلاً عن جوهر الفروق - في التفكير - بين ما هو "مشترك إنساني عام" وبين ما هو "خصوصية حضارية وثقافية". وقد سبق وكرّست لهذه القضية العديد من الدراسات والكتب - منها، على سبيل المثال (نحو تفكير وعلم "م حضاري") و (الاستقلال الحضاري).

## ولإيضاح هذا الموقف أقول

● إن فلسفة التعليم العربي - وخاصة تلك التي سادت في العرب لما يزيد على عشرة هي فلسفة وضعية تجريبية، ترى أن الواقع المادي هو المصدر الوحيد للعلم والمعرفة. وترى العقل والحواس هي الأدوات الوحيدة لتحصيل العلم والمعرفة. بينما الفلسفة الإسلامية في نظرية المعرفة ترى في عالم الغيب والشهادة مصدراً للمعرفة، يرى العالم شهوده، والأدوات التكوينية المتوفرة في الإنسان والتي فطره سبحانه وتعالى، كأدوات مهمة للعلم والمعرفة، أحدهما مقصور والثاني متطور. وهذه الفلسفة الإسلامية، تعترف في "مصادر المعرفة" بالمصدر الذي في "أدوات المعرفة"، فلا تقف بها عند العقل والحواس، وهذا ما يفسر الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) "عندما يتبع"، هي عقل وأنفس وتجربة ووجدان تتكامل وتتعاون على نسج معرفة متكاملة ومتوازنة للإنسان.

وإذا كان العرب - منذ نسبة "أينشتين" (١٨٧٩ - ١٩٥٥م) قد أخذ يراجع نظريته المادية في المعرفة، ويتراجع عن فلسفة مادية العلم. إذ كان هذا هو حال الغرب مع فلسفة مادية العلم والمعرفة، فهو متصور ولا معقول أن يكون نهجه فلسفة مادية للعلم تكون عند في حاجة لتفكير إسلامي، وخاصة في تجديد علوم الدين!

● ونفس الموقف مع "تأويل غربي" لخصائص الذهنية التي تعكس هذا التأويل مع بعض المذهبي جهودي ومصري بطلاق من فلسفة مادية وضعية -

وهي مرفوضة إسلامياً ـ كما تعدل هذه التأويل مع نصوص محرفة ولا علاقة في كثير من مقولاتها، ومن ثم فهو غير صحيح يكفي أن تتعارض مع نص الإسلامي، القطعي الثبوت، والدلالة حتى تعد على العقل نفسي لأنه فهو لا يأتي بما يناقض العقل أبداً .

ونهاية حقيقة من حقائق النصرانية الإسلامية، كان التأويل الإسلامي الذي هو خروج دلالة اللفظ من دلالة الحقيقة إلى دلالة المجاز قد يحل ذلك العقدة التي تعترض في الحوار [صورة مجردة عن التأويل العربي صاغه على نحو دقيق وعميق حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م) في كتابه المنهجي الفاصل المعروف بـ الإسلام والزندقة] عندما تحدث عن "أقسام الوجود خمسة وجود حسي ووجود خيالي ووجود عقلي ووجود شبهي" وقد تبعه في ذلك ابن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م) في كتابه الفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال]

وقد كان التأويل العربي الوضعي والدلالي قد أوتي حظه من العناية، فإن التأويل العربي الإسلامي قد وضع له قواعد محددة يحكم ويحول التأويل فيستطيع شروط فيما يجوز فيه التأويل، وبهذه التأويل شروط تقصره على نصوص وتشابه دون حقائق ومحكمات فهو وارد في نوعين "تسمية الشيء بشبهه، واسمه، أو لاحقه، أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عدلت في تعريف أصناف الكلام المجاز" وهو وارد عندما يتعارض القطعي من ظاهر النقل مع حقائق البرهان، وكل ذلك مشروط بشيء بنصوص محكمة، التي خصائص ثبوت الإسلام وأصوله، بمقاصد الشريعة بعيدة عن أي تأويل. ويعتبره ابن رشد "فقد أجمع المسلمون على أنه ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل" ابن رشد على أن الشرع قد جعل من النصوص المتشابهة لإمكانية هذا التأويل "فمن المتفق عليه في الشرع، أنه قد عدل عن ظاهره في كثير من المواضع، وصنفت بسبب ذلك، وجد في أكثر الشرع، وشبيه بظاهره، أنه يجب أن يؤول، ويقرب أن يشهد[٥].

أما التأويل بمعنى «الذي أخرج كل نصوص الدنيا من حقيقة إلى المجاز، فيه شبيه بتأويل علاة لنصه في مرثية، وبث فيه حقد كل شاعر على شاعر، ولكل تنزيل تأويلاً.. بتعميم وإطلاق!

● ولا نعرف شرائع الرسالات السماوية التي سبقت الرسالة المحمدية وشرعتها الإسلامية كتب موقوتة - ليست جامدة وحاقة فيها «تاريخية» و«تاريخية» وردة في هذه المعارف التي في شريعة الإسلامية الخاتمة الخالدة - فيها «تاريخية» غير واردة في النصوص الإسلامي المقدس، خصوصاً وأن هذه النصوص قد وقفت في التشريع - عند قضية التشريع وقوعه وكيفيته، ولم ترد فيه تفاصيل التشريع وتعسيره - أي أنه جاء بالثوابت وترك المتغيرات للبشر - فهم شروع - متطور ومتغير دائماً - وليست هي عكس شريعة السماوات الموقوتة للبشرية، التي كانت تأتي بالتفاصيل، حتى إذا جاء وقت الموقوت، عدت «تاريخية» وحلت محلها شريعة جديدة!

فالشريعة «التاريخية المعرفة» - كما صنعتها فلسفة التنوير العربي - تنعتق من هذه الشروط التي شرعته خاتمة - الخالدة - وبين الشرائع الموقوتة السابقة وبينها بين شريعة التي وقعت عند الأحكام الثوابت، وعند قضية التشريع وكيفيته، قواعده وتطريقه - فكانت «الوضعية التاريخية» - وتركت فيه الواقع متطور بالاجتهاد لتقوم هم أنفسهم بالتشريع وتكون - هذه الاستعارة «التاريخية المعرفة» - بين الشريعة الإسلامية وبين التشريع هي أنت بالأحكام التفصيلية للواقع المتغير، فيما تطور هذا الواقع فتصبح بعيدة وتسبب فجوة عجز عن صنع حركة هذا الواقع وتحقيق مصالح الذين يعيشون فيه

ولو أنها طبقت «التاريخية» على الشريعة الخاتمة، وعلى أصول الدين الذي ثبت كما جاء في النصوص الموصوفة والمدونة والتي لا تقبل أي تحوير بين عقيدة وشريعة وقيم - بتحويله إلى رموز وفكر نسبي، أو في تفاصيل حلال إلى «حلال حرام» وفي ذلك إزالة لكمال وختام حجة الله على عباده بدين الإسلام!

* * *

ويكفي أن نشير هنا إلى تطبيق المؤلف - تطبيقاً واعياً وأصيلاً - لمفاهيم وأدوات نظرية - على العقائد والشرائع والقيم التي جاء بها القرآن الكريم في مشروع تفكيري للدكتور نصر حامد أبو زيد. وللمشروع تفكيري للدكتور حسن حنفي - الذي كان قد بدأه قبل هذه الاستعارة إلى التراث الإسلامي من منظور ثوري وتحرري قبل موجة ما يسمى

● فالدكتور نصر أبو زيد يقول عن القرآن - الذي يؤمن المسلمون بأنه نتاج السماء العظيم، والمنزل من لدن حكيم عليم بما يصلح الناس ويصلح ثقافتهم - لا قداسة له، وهو في نصوص عبارته تماماً عن القرآن الكريم:

«من الواقع تكوّن النص (القرآن) ومن بعده وثقافته صيغت مفاهيمه. فالواقع هو الذي أنتج النص. الواقع أولاً. والواقع ثانياً. والواقع أخيراً».

لقد تشكل القرآن من خلال ثقافة شفاهية. وهذه الثقافة هي العرب. والنص منتج ومصنوع. فالنص القرآني في حقيقته وجوهره منتج ثقافي. والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاماً. فهو ديالكتيك صاعد وليس ديالكتيك هابطاً. ولا يمكن الوصول إلى الحقيقة. والفكر الرجعي في تيار الثقافة العربية هو الذي يحوّل النص من نص لغوي إلى شيء له قداسته..

والنص القرآني منظومة من مجموعة من النصوص. وهو يشابه في تركيبته ذلك مع النص الشعري، كما هو واضح من المعلقات الجاهلية مثلاً. ويفرق بين النوعين وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل في مدى الرسمي الذي يتعرفه تكوّن النص القرآني. فهناك عناصر تشابه بين النص القرآني والنص الثقافة عامة، وبينه وبين النص الشعري بصفة خاصة. وسياق محاطة أساسية في القرآن، بمعايير سياق مخاطبة الرحمان، هو بحيار منه النصوص لصعاليك «...»

ويقول الدكتور نصر أبو زيد عن النبوة والوحي: «هذه هو ظاهرة إنسانية، وثمة «نبوة محمدية» لإنسانية، وليس فيها عنصر ولا صفة تجعل الرسول شيئاً استثنائياً والمتصوفة، مع الفارق في درجة قوة المخيلة، فقط لا غير يقول:

«إن الأنبياء والشعراء والعرافين قادرون دون غيرهم على استخدام لاشعورهم

« لحيـة» في ايتطة و سوم علـى لسوء وس حيث قدره « محـمد» ودعيـه.
فسبي يأتي على رأس قمة لترتيب، يليه نصوفي لعارف، ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب

وتفسير سوه اعتمادًا على مفهوم «الخيال» معناه أن ذلك الانتقال من عالم بشر إلى عـالم ملائكة انتقال تم من خـلال دعسة « لحيـة» الإنسانيـة، التي تكون في «الأنبياء» أقوى منهـا عند من سواهـم من البشر. إنها حالة من حالات التعـمية الخلاقـة، والمبدعة، في ظل هذا التصور، لا تكون ظاهرة فوقية مفـارقة. وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحي ـ بقرآن ـ لم تكن ظاهرة مفـارقة للواقع، أو تمثل وثنـا عليه وتجاوزًا لقوانينه، بل كانت جزءًا من مفاهيم الثقافة وتابعة من مواضعاتها [٧]

أما عـقائد الإسلام، فقـد تأولها الدكتور نصـر أبو زيد، فأصبحت «تصورات أسطورية»... وعنها قال

«وما العقائد إلا تصورات مرتهنة بمستوى الوعي وتطور مستوى المعرفة في كل عصر. وإن النصوص الدينية قد اعتمدت في صياغة عقائدها على كثير من التصورات الأسطورية في وعي الجماعة التي توجهت إليها النصوص الدينية بالخطاب..»[٨].

أما استعاضة «التاريخية المعرفية» كما صاغها الدكتور نصر أبو زيد، فتتصف على المعارف القرآن وحقائقه وأحكامه.

فهو قد جعل للدكتور نصر أبو زيد يحكم التاريخية على كل ما في القرآن من عـقائد وشرائع وقـصص، ويجرد القرآن من أي معنى ثابت وجوهري فالتاريخية قد تحورت وسحت كل ما فيه. وعن هذه «الكارثة» يقول

«والقرآن خطاب تاريخي، لا يتضمن معنًى مفارقًا جوهريًا ثابتًا. وليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة في النصوص. فالقرآن قد تحول منذ لحظة نزوله من كونه (نصًا إلهيًا) وصار فهمًا (نصًا إنسانيًا)، لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل

وهذه التاريخية تنطبق على النصوص التشريعية، وعلى نصوص العقائد والقصص. وهي تحرك دلالة النصوص وتنقلها في كثير من الحالات إلى النقيض

وليس من المقبول أن يقف الاجتهاد عند حدود المدى الذي وقف عنده الوحي"

وإذا قرأت نصوص الأحكام - في القرآن - من خلال التحليل العميق لبنية النصوص، فلربما قادتنا القراءة إلى إسقاط كثير من تلك الأحكام، بوصفها أحكامًا تاريخية، كانت تصف واقعًا أكثر مما تصنع تشريعًا "

هذه هي نماذج للثمرات "المرة" و"الكارثية" التي نجمت عن "استعارة" منهج تنوير الغربي في التعامل مع النص الديني، وتمثل هذه المنهج على القرآن والنبوة والوحي وعقائد الإسلام وشرائعه وقيمه. كما تجلى في مشروع الفكري للدكتور نصر حامد أبو زيد

● أن الدكتور حسن حنفي، فقد أثمرت استعارته لفكرية لتنوير الغربي - بوصفي وبالتالي تجريد الإسلام من "الدين" و"العبادة" التي تشريعه هو مبتغاه - قد دعته إلى الاجتهاد لتصفية نصوص الدين - عدم الكلام كمجرد أوعية، مع وضع المضامين والمفاهيم الإنسانية في هذه الأوعية - بدلاً من مضامين ومفاهيم دينية - بسبب "نسبة الدين" بتحويله أولاً إلى "الأيديولوجيا" ثم تحويل "الأيديولوجيا" إلى "فكر إنساني بحت".

وبذلك، أصبح الله - في المشروع الفكري لحسن حنفي - هو "الأرض والخبز والحرية والعدل والوحدة والعدة وصرخات الألم وصيحات الفرح والكفاح المسلح" بدلاً من "تعبير أدبي أكثر منه وصف لواقع، وتعبير إنشائي أكثر منه وصفاً حرفياً" ولذلك، وجب - في رأيه - التخلي عن ألفاظ ومصطلحات كثيرة في علم أصول الدين - من مثل "الله" و"الرسول" و"الدين" و"الوحي" و"النار" و"الثواب" و"العقاب" لأنها قطعية، ولأنها تحور الحس والمشاهدة ولأنها تشير إلى مقولات غير إنسانية" "فعلم الله إلا وعي الإنسان بذاته وبصفاته وأسمائه، لا مثال الإنسان وعنايته التي يصبو إليها وكل صفات الله - العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة - كلها صفات الإنسان الكامل وكل أسماء الله الحسنى تعني مثال الإنسان وعنايته التي يصبو إليها فالحقيقة هي الإنسان والواقع الذي يعيش فيه ولذلك، فتعبير الإنسان الكامل أكثر تعبيراً من لفظ الله.."[11]!!

"والتوحيد ليس توحيد الذات الإلهية، كما هو الحال في علم الكلام الموروث، وإنما هو وحدة البشرية، ووحدة التاريخ، ووحدة الحقيقة، ووحدة الإنسان، ووحدة المجتمع، ووحدة الأسرة. فالمفهوم هو الذي يحدد الدلالة المعاصرة للموضوع القديم، وتحليله من شوائبه اللاهوتية.

فليس للعقائد صدق ذاتي، ولا توحيد في ذاته، والتوحيد هو الذي المثالي للعالم، والمصلوب هو تحويل التوحيد إلى أيديولوجية، وإلى علم إنساني، والعلمانية هي أساس التوحيد، فالتوحيد علماني في جوهره، والعلمانية طارئة علينا من صنع التاريخ، تظهر في لحظات تخلف المجتمعات وتوقفها عن التطور، والتراث قضية وطنية لا دينية ومادة التراث نستمدها كلها من الحاضر، ونستدل بها على مادة أخرى جديدة من واقعنا المعاصر، والإلحاد هو التجديد، والتحول من القول إلى العمل، ومن النظر إلى السلوك، ومن الفكر إلى الواقع به وعي بالحاضر، ودرء للأخطار بل هو المعنى الأصلي للإيمان

والمصلوب هو الانتقال من العقل إلى الطبيعة، ومن الروح إلى المادة، ومن الله إلى العالم، ومن النفس إلى البدن، ومن وحدة العقيدة إلى وحدة السلوك، ومن العقيدة إلى الثورة.."[١٢].

فهل هناك "فكرة فكرية" يمكن أن تضع مضمون "الدعوة" الكامنة في "الفكر" الدكتور نصر حامد أبو زيد وأساتذته الكتاب الحسن حنفي، عندما يتعارضان وقد يختلفان حتى يضع منهجية لتأويل تعرض "الوضعي" الذي في النص مع "النص الديني" اللاهوتي العصري، يستعيد به وظيفته على مقولة التكريم، وعقائد وشرائع وقيم الإسلام؟!

إنه منزلق خطير.. بل إنه هو أخطر المنزلقات

* * *

وقد كان هذا هو مضمون "الفكرة" في وضع منهجية تأويل تعرض للتعامل مع "النص الديني" الذي يضع هذه المنهجية لتعرض الإنسانية فيه لقدر كبير من المفهوم الإنساني الذي يطلق "الخصوصية" الخاصة به والتي تكثر من دخوله في "المشترك الإنساني العالمي"

وإذا كان واردو وجب فقه العلوم الإنسانية العربية، والاستفادة من جهد العربية في تطوير هذه العلوم، فمن نتركم معه في الموقف الذي شهدناه، لأنه وجب أيضاً حذر شديد من منهج وضعي يتعامل مع هذه العلوم الإنسانية تعامله مع العلوم الطبيعية والتجريبية - علوم المادة... الدقيقة والمحايدة - فسوى - هذا المنهج الوضعي سيهمل في «موضوعيته وحياده» ذلك أن علوم «العقل الإنسانية» متميزة عن علوم الطبيعة بوقع ذاتي» صحيح أنها كلها علوم، لكن درجة «الموضوعية والحياد» - ومن ثم درجة شيوع النهج الاشتراك الإنساني فيها معيارة تتفاوت في العلوم الإنسانية وتصبح ذلك عند استعارة منهج ما لكي نتحقق في مدى ملاءمته للعلم الذي نستعيره له. فمنهج التعامل مع النص الأدبي، ليس هو منهج التعامل مع علوم الفلك والفيزياء. وسنجد خللاً في منهج التعامل مع النص الديني، ومع العلوم الإنسانية والاجتماعية ثم إن «البعد التعميمي الوقعي» الذي رأيناه يغرب مدرسة التعامل مع «اللاهوت الكنسي» اللاعقلاني لا يمكن أن يكون ملائماً للتعامل مع علم الكلام الإسلامي مثلاً - الذي هو إنتاج عقلاني إسلامي، مثل فلسفة استمدت في هذا المجال - وقد كان التعامل مستمداً في قرون الانفتاح الثقافي والتفاعل الحضاري، مع المعارف اليونانية ومع تراث المدرسة الإسكندرية ومع حضارات فارس الفلسفة والهند القديمة. كيف منهج التعامل هذه تتفق لهذا الموقف الذي شرحناه في أصول المعاصرة [وهذا ما فصلناه في كتاب «التغريب والمركزية وهم أم حقيقة؟»]

فالمستشرقون الأوائل قد جدوا في الإغريق وبيونان العلوم الطبيعية والتجريبية والمحايدة ولم يأخذوا الإلهيات، ولا الآداب التي ارتبطت بهذه الإلهيات وصراعاتها الآلهة الإغريقية وأساطيرها. وهم قد ترجموا للفلسفة اليونانية العقلانية، وذلك بعد أن تطورت فلسفة المسلمين في علم التوحيد علم الكلام في القرن الثاني من الهجرة بحيث لا - أو قبل ترجمة هذه الكتب - وهم قد ترجموا هذه الفلسفة العقلانية اليونانية لا لتكون فلسفة للإسلام أو المسلمين، وإنما لاستخدامها سلاحاً يوجه ضد «الدينية - الموضوعية» التي مثلت خطراً أكبر

على الإسلام. كما سبق ومثلت الخطر الذي نزل النصرانية فحوّل توحيدها إلى عنوصية الاتحاد والحلول[١٣].

وكذلك أخذ المسلمون عن فارس القديمة «الترتيب الإدارية» لا المذاهب الفلسفية ولا العقائد الدينية، وأخذوا عن الهند الفلك والحساب، وليس المذاهب الدينية أو الفلسفية. وأخذوا عن مدرسة الإسكندرية «علوم الصنعة»، التي بدأ ترجمتها الأمير الأموي خالد بن يزيد (٩٠هـ-٨٠٧م)، كما أخذوا عن الرومان «تدوين الدواوين» أي المؤسسات والآليات والخبرات الإدارية، لا «القانون الروماني».

وهكذا فلابد من الحذر الشديد من استعارة فلسفات المعرفة الغربية في العلوم الإنسانية مع فتح الأبواب للتفاعل الحضاري فيما هو «المشترك إنساني عام». فحقائق وقوانين علوم المادة لا تتغير بتغير المعتقدات عند الباحثين فيها، ونتائج التجارب فيها لا تختلف باختلاف الحضارات والثقافات. والذي يتمايز في هذه العلوم هي فلسفات التطبيق لحقائقها وقوانينها، فهناك التطبيقات التي تُضبط بضوابط القيم والأخلاق، وهناك التطبيقات التي لا تعرف ضوابط القيم والأخلاق.

أما ثقافة «عمران النفس الإنسانية» - وفيها العلوم الإنسانية والاجتماعية والشرعية - فإنها - مع مناهج البحث فيها - واقعة في صلب «الخصوصيات الحضارية»، لا «المشترك الإنساني العام».

وإذا كان «الانغلاق الحضاري»، برفض كل ما لدى «الآخر»، يؤدي إلى ذبول «الذات الحضارية» وتآكلها، فإن «السعة الحضارية»، بتقليد كل ما لدى «الآخر»، تعطل ملكات الخلق والإبداع، فتنتهي بعقل الأمة كالانغلاق الحضاري إلى الذبول والموات!

* * *

## • الهوامش

(١) انظر كتاب (العلم في منظوره الجديد) تأليف روبرت م أغروس، جورج ستانسيو، ترجمة كمال جلايلي، طبعة الكويت، سلسلة عالم المعرفة - سنة ١٩٨٩م

(٢) ابن رشد (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص٣٢ دراسة وتحقيق محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م

(٣) أبو حامد الغزالي (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص٤ - ٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م

(٤) (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص٣٢

(٥) المصدر السابق ص٣٣

(٦) (نقد الخطاب الديني) ص٢٩، ٢٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م و(مفهوم النص) ص٩، ٩، ١٠، ٢، ٢٧، ٢٨، ١٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م و(إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني) مجلة «القاهرة» يناير سنة ١٩٩٣م

(٧) (مفهوم النص) ص٥٦، ٣٨

(٨) (إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني) مجلة «القاهرة» يناير سنة ١٩٩٣م

(٩) (نقد الخطاب الديني) ص٨٣، ٩٤، ٨٢ - ٨٤، ١٩٨

(١٠) (إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني) مجلة «القاهرة» يناير سنة ١٩٩٣م

(١١) د. حسن حنفي (التراث والتجديد) ص١٢٨، ١٣٠، ١٢٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٣، ١٥٤، ١٨٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م

(١٢) المرجع السابق ص ٧٦، ١٧٧، ٦٦، ٢٢، ١١٤، ٢٠٣، ٢٠٨، ٦٩، ٢١، ١٧٣، ٦٧، ٦١

(١٣) انظر بيكر (كارل هنبرش) (١٨٧٦ - ١٩٣٩م) «وارث ووارث» ترجمة د. عبد الرحمن بدوي - ضمن كتاب (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) ص٧، ٩، ١١ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م وكذلك بيكر ١٨٧٢ - ١٩٣٨م [illegible] السابق - ص٢٧٧ - هامش (١)، (٢)

* * *

# حوار الأديان.. هل هو حوار طرشان؟!

في الإسلام، الحوار ليس مجرد فضيلة، وإنما هو فريضة..

ذلك أن الإسلام يجعل التعددية، في كل معتقد ومن عند الله الإلهيه، قانون وسُنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل

فالناس، ليسوا جميعهم لله، سبحانه وتعالى، من نفس واحدة، قد جعلهم شعوبًا وقبائل ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾ [الحجرات ١٣]، وجعل اختلافهم في ألسنة وألوان بآية من آياته ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم ٢٢]، فهو سبحانه وتعالى، خالق التعددية في المجتمعات ثم هو سبحانه قد شاء لهم التعددية في المناهج، أي الحضارات والثقافات والعادات والتقاليد والأعراف وفي الشرائع، التي هي من وحي السماء ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ [المائدة ٤٨] وقضت مشيئة الله، سبحانه وتعالى، أن يكون البشر جميعهم شيئًا واحدًا ولا يزالون مختلفين

وحتى نتأكد من هذه المشيئة الإلهية، بهذه التعددية في كل عوالم الخلق في الإنسان والحيوان والنبات والجماد والأفلاك والأحياء، دعا الإسلام إلى منهج «التدافع» بدلاً من «الصراع»، في معالجة التناقضات التي تفرق الجماعة بين الفرقاء المتعددين ذلك أن الصراع يعني أن يصرع طرف الطرف الآخر، فيجرحه من الساحة، وذلك ينافي التعددية، ويهدد مصير البلد ﴿صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ فهل ترى بينهم من باقية؟ [الحاقة ٧، ٨]. بينما التدافع هو عكس ذلك تمامًا، فالحرث والسباق يعتمدان على التحاور بين الفرقاء المختلفين ليعيد العلاقة بينهم إلى مستوى الحوار، وصولاً إلى ذلك الحد الذي يمكن أن يكون الحوار بين الفرقاء المتعددين ونجاح التعددية من صوت الصراع إلى

بصرع به صرف عشره من الأطراف ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ [فصلت: ٣٤].

ولأن التعارف هو غاية التعددية، ولأن الحوار هو سبيل هذا التعارف بين بني الإنسان، كان الحوار فريضة من فرائض الإسلام، وعلى المتحاورين بالقرآن الكريم يدركون دوره، ودور الحوارات المتعددة والمتنوعة المبثوثة في سوره وآياته، في صياغة «الروح الحوارية» عند الإنسان المسلم، تلك التي تجسدت في علاقات الإسلام وأمته وحضارته مع الآخرين.

تلك هي حقيقة موقف الإسلامي كما أومن به في رؤيته «للآخرين» وفي فريضة الحوار مع «الآخرين».

* * *

ومع كل ذلك، فتجربتي مع الحوارات السياسية وخاصة مع ممثلي المعسكر الغربي تجربة قاسية، لا تبعث على رجاء أمل تذكر من وراء هذه الحوارات، التي تقام لها الكثير من المنتديات والمؤسسات، وتعقد لها الكثير من المؤتمرات والندوات واللقاءات.. وينفق عليها الكثير من الأموال.

ذلك أن كل هذه الحوارات، التي دارت وتدور بين علماء الإسلام ومفكريه وبين ممثلي الحضارة الغربية، قد افتقدت ولا تزال مفتقدة لأول وأبسط وأهم شرط من شروط أي حوار من الحوارات، وهو شرط الاعتراف المتبادل والقبول المشترك بين أطراف الحوار. فالحوار الذي يدور بين «الذات» و«الآخر»، ومن ثم بين «الأنا» و«الآخر» وبين «الداخل» و«الخارج» وبين «الإسلام» و«الغرب» على أمل التفاعل بين طرفيه، فيؤدي الحوار ثمرته هو حينما لا يكون هناك طرف يعترف بالآخر، وآخر لا يعترف بمن «يحاوره»، كان حواراً مع «الذات»، وليس مع «الآخر»، ووقف عند «الإرسال» دون «الاستقبال»، ومن ثم يكون شبيهاً - في النتائج - بحوار الطرشان!

إن الإسلام، والمؤمنين به يعترفون بالتعددية الحضارية كحقائق سماوية، و

رسالات وشرائع في دين الإلهي الواحد، ويؤمنون بتصديق جميع كتبهم ورسلهم عليهم الصلاة والسلام، ويرون في صدق كتبهم وحيهم الله على هؤلاء الرسل والأنبياء، ويعتقدون بأنهم بالصلاة والسلام على موسى وأمه، وعيسى وأمه، وسائر الأنبياء والمرسلين في بني إسرائيل ويرون في شرائع تلك الرسالات، التي لم ينسخها التطور، جزءاً من الشريعة الإسلامية الخالدة

فهم - المسلمون - يعترفون بالآخرين، على النحو الذي تقتضي به العقيدة الدينية، وتصنف اختلافهم معهم في صور هذه الكتب، على أنها تعددية في الشرائع الدينية السماوية

إن عقد أهل المسلمون - بعد الفتوحات الإسلامية - لعقود من الزمان على «الوصاية» في فارس والهند والصين، ضمن الديانات الكتابية، وقد بعض الفقهاء بأنها كانت بهذه الديانات كتب أنبياء الله، فعاملوا «البوذية» وليس فقط «الوقعة» بهذا الاعتبار الديني، وحفظوا على أتباعها وشعوبها قاعدة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» التي سنها رسول الإسلام ﷺ، معتمدين من سنته الأخرى التي دعا فيها أمته إلى أن يسلكوا في التعامل مع أهل هذه «الديانات» سنة التعامل مع أهل التوراة وأهل الإنجيل

هذا هو موقف الإسلامي، الذي يعترف بالآخر السابق، ويؤمن بكل الكتب والرسالات السابقة ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [البقرة: ٢٨٥] و«الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد، ومسلم يرى بإسلامه الامتداد المكمل لدين الله الواحد، ومحمد خاتم لكل الشرائع والرسالات، ومع أنه هو «المكافئ لله الذي قد سواه»، فمحمد أقر لكل صاحب دين على دينه، معتبراً التعددية في الشرائع والاختلاف في سبل سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل، وحساب المختلفين إلى هو الله، سبحانه وتعالى، يوم الدين، ولا ينقص هذا الاختلاف أحداً من أطرافه حظ من حظوظه في هذه الحياة الدنيا

لكن موقف الآخرين من الإسلام والمسلمين هو موقف لا كتابي، وعدم الاعتراف أو الصدود، فلا الإسلام في عرفهم دين سماوي، ولا رسوله صادق في

رسالته، ولا كتابه وحي من السماء، حتى تتصل المفارقة، في عالم الإسلام، إلى حيث تعترف الأكثرية المسلمة بالأقليات غير المسلمة، على حين لا تعترف الأقليات بالأغلبية!

فكيف يكون.. وكيف يثمر حوار ديني بين طرفين، أحدهما يعترف بالآخر، ويقبل به طرفاً في إطار الدين السماوي، بينما الطرف الآخر يصبح كمجرد «واقع»، وليس كدين، بالمعنى السماوي لمصطلح الدين؟!

ذلك هو الشرط الأول والضروري المفقود، وذلك هو السر في عقم كل الحوارات الدينية التي تمت وتتم، رغم ما بذل ويبذل فيها من جهود، وأنفق وينفق عليها من أموال، ورصد ويرصد لها من إمكانات!

* * *

أما السبب الثاني لعزوفي عن المشاركة في الحوارات الدينية - التي أُدعى إليها - فهو معرفتي بالمقاصد الحقيقية للآخرين من وراء الحوار الديني مع المسلمين. فهم يريدون التعرّف على الإسلام، وهذا حقهم، إن لم يكن واجبهم. لكن، لا ليتعايشوا معه - وفق السنة التعددية في الملل والشرائع - وإنما ليحذفوه ويطووا صفحته بتبصير المسلمين! وهم لا يريدون الحوار مع المسلمين بحثاً عن القواسم المشتركة حول القضايا الحياتية التي يمكن الاتفاق على حلول إيمانية لمشكلاتها وإنما ليكرسوا - أو على الأقل يصمتوا - عن المظالم التي يكتوي المسلمون بنارها، والتي صنعتها وتصنعها الدوائر الاستعمارية، التي كثيراً ما استخدمت هذا الآخر الديني في فرض هذه المظالم وتكريسها في عالم الإسلام.

فحرمان كثير من الشعوب الإسلامية من حقها الفطري والطبيعي في تقرير المصير، واغتصاب الأرض والسيادة، في القدس وفلسطين، والبوسنة والهرسك، وكوسوفا، والسنجق، وكشمير، والفلبين، إلخ إلخ كلها أمور مسكوت عنها في مؤتمرات الحوار الديني.

بل إن وثائق مؤتمرات التبشير بتبصير المسلمين، التي تتسابق في ميادينها كل الكنائس الغربية، تعترف - هذه الوثائق - بأن الحوار الديني - بالنسبة لهم - لا يعني

التحلي عن «الجهود القسرية والوعية والمتعمدة والتكتيكية لخلق نفس من مجتمع ديني مسيحي حر» بل رغم كان الحوار مرحلة من مراحل التنصير!

وقد كتب نصرانية تبشيرية تبرعيه كيسنجر، كاثوليكية وبروتستانتية لإحياء قيام الفاتيكان الكاثوليكية - التي قام مؤسسات محور مع المسلمين، ودعا إلى كثير من مؤتمرات هذا الحوار - هو الذي رفع شعار «الفاتيكان بعد المائة سنة ٢٠٠٠م» فمتى يُرفع الموعد، ويتم تحقيق الوعد، فيتم هذا «التطلع» إلى سنة ٢٠٢٥م؟!

وهو الذي عقد مع الكاثوليكي الصهيوني البريطاني المقدس وفستيجر، معاهدة في ٣ ١٢ ١٩٩٣م - تحدثت عن العلاقة الفريدة بين الكاثوليكية والشعب اليهودي، واعترفت بالأمر الواقع بالاغتصاب، وأخذت كنائسها في القدس تستجر نفوذها وقفًا مفتوحًا للإسرائيلي الذي صنعه السنة إلى بسبب سنة ١٩٦٧م!!..

بل لقد ألزمت هذه المعاهدة كل الكنائس الكاثوليكية في العالم أن تهيئ دعاة وتدعو كل المسلمين بسلطة الفاتيكان المقدسة حتى ولو كانوا مواطنين في وطن المعروف وعدم الإسلام - إلى جنة قصدهم الوطنية والقومية!

وبهذا هذه الكاثوليكية أعلن بابا الفاتيكان أن القدس هي الوطن الروحي لليهودية، وشعار الدولة اليهودية - بل وصف المعترف من اليهود - وذلك بعد أن ظلت كنيسته قرونًا متطاولة تبيع صكوك الغفران!

أما الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية العربية، فإنها هي التي فكرت ودبرت وقررت في وثائق مؤتمر كولورادو سنة ١٩٧٨م».

«أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصدره الأصلية أسس النصرانية وإن النظام الإسلامي هو أكثر النظم المدينة المتماسكة اجتماعيًا وسياسيًا إنه حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطًا يفوق قدرة البشر ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، تؤسس حول العالم، لمواجهة النصارى، للتركيز على الإسلام، ليس فقط لخلق فهم أفضل للإسلام، ولتعامل النصراني مع الإسلام، وإنما لتوصيل ذلك

الفهم إلى المنصرين من أجل اختراق الإسلام في صدق ودعة!!»

ولقد سلك هذا المخطط - في سبيل تحقيق الاختراق بالإسلام، وتنصير المسلمين - كل السبل إلا الأخلاقية - التي لا تليق بأهل أي دين من الأديان - فتحدثت مقررات هذا المؤتمر عن العمل على اجتذاب الكنائس لتدرجه ضمن خطة شعوبية، وتصدرت في مخطط اختراق الإسلام والثقافة الإسلامية للشعوب التي هي جزء وطني أصيل فيها، فقالت وثائق هذه المقررات:

«لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة في العالم الإسلامي، إن النصارى البروتستانت، في الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا، مهمكون بصورة عميقة ومؤثرة في عملية تنصير المسلمين.

ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات مسلمين لديها تسعى إلى تنصيرهم. وعلى المواطنين النصارى في البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معاً، بروح ثابتة، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين»!

فهم يريدون تحويل الأقليات النصرانية في البلاد التي شرعت في هذا النشاط التنصيري «المعادي لشعوبهم وأمتهم»!

كذلك قررت «الفاتيكان» هذا المؤتمر تدريب وتوظيف العناصر النصرانية الأحسن، التي تعمل في البلاد الإسلامية، بحربه الإسلام وتنصير المسلمين وفي ذلك قالوا:

«إنه على الرغم من وجود منصرين بروتستانت، من أمريكا الشمالية، في الخارج أكثر من أي وقت مضى، فإن عدد الأمريكيين النصارى الذين يعيشون فيما وراء البحار يفوق عدد المنصرين بأكثر من ١٠٠ إلى ١. وهؤلاء يمكنهم أيضاً أن يعملوا مع المنصرين جنباً إلى جنب لتنصير العالم الإسلامي، وخاصة في البلاد التي تمنع حكوماتها التنصير العلني»!

كذلك، دعت قرارات مؤتمر كولورادو إلى التركيز على أبناء المسلمين الذين

يدرسون أو يعملون في البلاد العربية، مستغلين عزلتهم عن المناخ الإسلامي، لتحويلهم إلى «مزارع ومشاتل للنصرانية»، وذلك لإعادة غرسهم وغرس النصرانية في بلادهم عندما يعودون إليها.. وعن ذلك قالوا:

«يتزايد باطراد عدد المسلمين الذين يسافرون إلى الغرب، ولأنهم يفتقرون إلى الدعم التقليدي الذي توفره المجتمعات الإسلامية، ويعيشون نمطاً من الحياة مختلفاً - في ظل الثقافة العلمانية والمادية - فإن عقيدة الغالبية العظمى منهم تتعرض للتأثر.

وإذا كانت «تربة» المسلمين في بلادهم هي بالنسبة للتنصير «أرض صلبة ووعرة»، فإن بالإمكان إيجاد «مزارع» خصبة بين المسلمين المشتتين خارج بلادهم، حيث يتم الزرع والسقي والتهيئة لعمل فعال عندما يعاد زرعهم ثانية في تربة أوطانهم كمنصرين»!

بل إن بروتوكولات هذا المؤتمر التنصيري لتبلغ قمة اللا أخلاقية، عندما تقرر أن صناعة الكوارث في العالم الإسلامي هي السبيل لإفقاد المسلمين توازنهم، الذي يسهل عملية تحولهم عن الإسلام إلى النصرانية! فتقول هذه البروتوكولات:

«لكي يكون هناك تحول إلى النصرانية، فلابد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس، أفراداً وجماعات، خارج حالة التوازن التي اعتادوها.

وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعي المتدني.

وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة، فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية. إن تقديم العون لذوي الحاجة قد أصبح عملاً مهماً في عملية التنصير!

وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدّلت موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيري، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى»!!

فهم - زعم مسوح رجال الدين - يسعون إلى صنع الكوارث في بلادنا، لتحيل توازن المسلمين، وذلك حتى يبيعوا إسلامهم لقاء مأوى أو كسرة خبز أو جرعة دواء! وفيما حدث ويحدث لضحايا المجاعات والحروب الأهلية والتطهير العرقي -

في البلاد الإسلامية ـ التطبيق العملي لهذا الذي قررته البروتوكولات . فهل يمكن أن يكون هناك حوار حقيقي ومثمر مع هؤلاء؟!

* * *

تلك بعض من الأسباب التي جعلتني متحفظاً على دعوة ومؤتمر وندوة الحوار بين الإسلام والمسيحية الغربية . وهي أسباب دعمتها وأكدتها التجربة الحوارية" التي استهلها في لقاء تم في «قبرص» أواخر سبعينات القرن العشرين ووجدت، بوضوح، أن الكنيسة الأمريكية التي ترعى هذا الحوار وتنفق عليه ـ قد تحدث من خلال اللقاء التي عقد بقبرص بأن حروبهم ضد المسلمين «أفغانستان» ومهرا لإدارة هذا الحوار؟!

ومؤتمر الحوار، الذي حضرته في عمان، بمقر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ـ مع الكنيسة الكاثوليكية ـ في الثمانينيات ـ وفيه جاءت ـ على لسان كلمة البابا تتصدر قضايا المسلمين المعاصرة في القدس وفلسطين فذهبت الجهود أدراج الرياح! على حين كان يدعو إلى «العلمنة» العدو الإسلامي» على الصعيد الإسلام كمنهاج للحياة الدنيا، عهداً على صفحته المتصدرة كمنهج للحياة الآخرة!

وقد كانت الفرصة سانحة لي لأعرض في جلسات المؤتمر «المسرح» لهذا «الحوار» الذي عندما دعيت من المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية» وهو من أشرف المؤسسات في عالم «الإسلام المسيحي» مع تحدد الكنائس الإنجيلية في الفترة ما بين ٢٩ ذي القعدة ـ ٢ ذي الحجة سنة ١٤١١هـ / ٩ ـ ١٤ أيار سنة ١٩٩٧ م ـ لعمان ـ لم أتردد في سنة الدعوة، لا لأني قد غيرت رأيي في مثل هذه اللقاءات، وإنما لطبيعة الموضوع الذي كان محور هذا اللقاء

فقد كان الموضوع عن «الدين والعلمانية» فأحببت أن أستمع إلى الكنيسة العربية في تجربتها مع العلمانية التي صارعت المسيحية الغربية حتى صرعتها وهي العلمانية التي صدرتها أوروبا المصنع مع الإسلام المصنع مع المصرية العربية

ورغم حماسي لحضور هذا اللقاء، لكنني اعتذرت عن البحث من بحوث

● ولقد سعت العلمانية من التنوير الغربي وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، و انتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشري، يتلاشى باطراد في مسار التطور الإنساني.

● ومن نتائج العلمانية فقدان المسيحية لأهميتها فقدانا كاملاً وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإصدار الشرعية على القانون و النظم والسياسة و التربية و التعليم بل وزوال أهميته أيضاً كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هي التي تصنع القانون وهي التي تمنح الحرية الدينية

● ولقد قدّمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينا حل محل الدين المسيحي، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هي العقل والعلم.

● لكن وبعد تلاشي المسيحية سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان التي كان الدين يقدم لها الإجابات فالقناعات العقلية أصبحت مستقرة إلى لبقين وعندت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتفكك أساسها ـ العقلية والعلمية ـ عدميةُ ما بعد الحداثة فدحضت ثقافة العلمانية في أزمة، بعد أن أدحضت الدين المسيحي في أزمة فالإلحاد الذي أصاب مسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلماني الحديث وتحققت نبوءة نيتشة (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م) عن «إفلاس التطور الثقافي الغربي لأناس يفتقدون «نجمهم» الذي فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بُعد و حد، لا يعرف الواحد منهم شيئًا خارج نطاقه» وبعبارة «ماكس فيبر» (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠م) «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم»!

● «ولأن الاهتمام الإنساني بالدين لم يتلاش، بل تزايد وفي ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوروبا لتصدير من «روحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة ـ من التنجيم إلى عبادة القوى الخفية و خارقة و لاعتقاد بالأشباح وطقوس لهنود الحمر وروحانيات الديانات الآسيوية والإسلام، الذي أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا في المجتمعات الغربية.

لقد أرادت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا، ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلماني على الإنسان الأوروبي، عندما أصبح معبدها العلمي عتيقًا! ففقد الناس «النجم» الذي كانوا به يهتدون، وعد الخلاص المسيحي، ثم وعد الخلاص العلماني!..».

* * *

تلك بعض من عبارات الدكتور «كوبرلن»، التي قدمها في بحثه عن «عملية العلمنة والمسيحية العربية»، ولو أن الكنائس العربية لم تخن نصرانيتها، لركزت جهودها ضد العلمانية في بلادها، وعملت على إعادة تنصير أوروبا، بدلاً من هذه الحرب التي تشنها لتنصير المسلمين.

ولو أن هذه الكنائس أخلصت لمنظومة التدين، مطلق التدين، وللقيم الإيمانية، مطلق القيم الإيمانية - لسعدت بصمود الإسلام في وجه العلمانية، ونجاة المسلمين من هذا الذي أحدثته العلمانية بالإنسان العربي والمجتمعات العربية. لكن الغريب والعجيب، أن هذه الكنائس لم تصنع شيئًا من ذلك، وإنما صنعت العكس، فزاد شعار حقدها على الإسلام، لأنه قاوم ولا يزال يقاوم العلمانية، محافظًا على سلطان الدين والتدين في قلوب المسلمين. فكأن هذه الكنائس تريد أن تزرع في الجسم الإسلامي ذات الجراثيم القاتلة التي قتلت بدين المجتمعات العربية!

بل إن هذا الصمود الإسلامي - وفي ذلك مدعاة للغرابة والاستغراب - هو الذي جعل دوائر القرار الاستراتيجي في الغرب، تعلن بعد انهيار منظومة الشيوعية، أن الإسلام هو العدو الذي حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية، لأنه - من بين كل الثقافات غير العربية - سيتعصى على العلمنة، وأنه سيقف ليقدم لأمته مشروعًا للنهضة ملتزمًا بمعايير الدين وقيم الإيمان.

وعن هذه الحقيقة تحدثت مجلة «شئون دولية» INTERNATIONAL AFFAIRS فقالت:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي، وبالنسبة لهذا الغرض كان الإسلام جاهزًا في المتناول. فالإسلام رافض لأي تمييز

بين ما لله وما لقيصر. وهو لا يسمح لمعتقديه أن يصبحوا مواطنين في دولة علمانية. إنه استثناء مدهش وتام جداً من النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يحل العلمنة محل الإيمان الديني. فلم تتم أي علمنة في عالم الإسلام، وسيطرة هذا الدين على المؤمنين به هي سيطرة قوية، بل إنها أقوى الآن مما كانت عليه من مائة سنة مضت. إنه مقاوم للعلمنة، في ظل مختلف النظم السياسية - راديكالية وتقليدية. وبين بين - وعمليات الإصلاح الذاتي تتم، في العالم الإسلامي، باسم الإيمان الديني، وليس على أنقاض هذا الإيمان. ولأن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي للثقافة العلمانية الغربية، كان - من بين الثقافات الموجودة في الجنوب - الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة..»!

فرفض الإسلام والمسلمين للعلمنة - ومن ثم السعي للنموذج الغربي - هو السبب الجوهري لإعلان الغرب أن العدو الجديد - الذي حل محل الشيوعية - هو الإسلام.

وهو السبب الذي جعل الحوارات الدينية مع الكنائس الغربية - حوارات طرشان(١)، لأن هذه الكنائس بدلاً من أن تتعلم من الإسلام كيفية الصمود ضد العلمانية، نراها تستهدف - حتى من وراء حواراتها الدينية - ليس فقط علمنة المسلمين - كما تريد الدوائر العلمانية الغربية - وإنما طي صفحة الإسلام من الوجود.

* * *

● **الهوامش**

(١) انظر في حقائق هذه الدراسة: وثائق مؤتمر كولورادو - الترجمة العربية - طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي مالطا سنة ١٩٩١م وكتابنا «العبادة الجديدة على الإسلام» طبعة دار الرشاد القاهرة سنة ١٩٩٨م و(مآزق المسيحية والعلمانية في أوربا) للقس الألماني جوتفرايد كوبرلن - طبعة نهضة مصر - سلسلة في التنوير الإسلامي - القاهرة سنة ١٩٩٩م

* * *

# الإنسان والمجتمع
## بين الرؤية الإسلامية.. والعولمة الغربية

الإسلام دين الجماعة..

ولأن الوسطية الإسلامية هي «زاوية رؤية» التي بدونها يفقد سدى و لأفكار و لأشياء حقيقة إسلاميتها، فإن «الجماعة» في الرؤية الوسطية الإسلامية، هي تور ن وعدل يجمع بين «الفرد» و«الأسرة» و«الأمة»، على النحو الذي تتفتح فيه طاقات «الفرد» وملكاته، تتحول هذه الطاقات والملكات إلى دعم وتنمية لطاقات وملكات «المجموع»، فلا تنمحي «الفردية» و لأثرة والاستئثار على روابط الاجتماع. ولا تنمحي «الجماعية» على ملكات وصفات وحريات الأفراد و لجماعات بقرعه في الأمة والمجتمع.

تلك هي رؤية الإسلام للاجتماع الإنساني، وعلاقة الإنسان بالمجتمع و لاجتماع و لجماعة تميزت وتتميز عن نظائرها حرص حضارة الإسلام

● فالإنسان - في الرؤية الإسلامية - خليفة الله سبحانه وتعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ البقرة: ٣٠ وهو مكلف ومسئول وحر ومؤتمن لأمانة عمران هذه الأرض وصاحب استطاعة وقدرات وبه سخر الله ما في السموات و لأرض، ليتمكن من أداء أمانة الاستخلاف ورسالة التعمير.

لكن فلسفة الخلافة والاستخلاف تجعل مكانة الإنسان وسطا، فلا يصح لقدراته ومكانته أن تذهب به إلى حيث يظن نفسه سيد هذا الكون، المكتفي بذاته، و لمؤله لعقله ومكانته، و لمستغني عن رعاية ومعونة من خلقه و سخرته و سننه، سواء أكان هذا لاستغناء من «الفرد» أو من «لطبقة لاجتماعية» أو حتى من «لجماعة وأمة وحضارة» ضد غيرها من الجماعات والأمم و لحضارات فقد يؤدي لاستغراد

و لاستعداء هذا هو مقدمة لطغيان ... وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى ﴿٦﴾ أن رآه استغنى﴾ [العلق ٦، ٧]

كذلك لا يصح لهذا الإنسان أن يتمرد على ما حوله من طاقات ومكنات وقدرات، فيعطيها بالجبرية أو التوكل أو الاستسلام والخضوع بتصور مصير وقهر مستبدين فيتخلى عن مكانة خليفة مستولٍ، وعن رسالته وأمانته ليتحمل بدلاً عنها تبعة سلبية وتعدي، فتلك هذه الجبرية مائلة تمام بنفس، وتبسط في عنقه جبرية لإلهي للإنسان جبارين يوقفهم بملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ [النساء ٩٧].

فالخلافة والاستخلاف: وسط بين الفردية الاستعداء والطغيان، وبين الجبرية التهميش والذلة والاستضعاف.

● وحتى تتحقق هذه الوسطية الإسلامية من وراء جهل الإنسان وقصوره الاستخلاف، جاءت رسالات سماوية برعاية الله وتسديده لهذا الإنسان، وذلك حتى تستقيم مسيرته على صراط الوسطية المستقيم، صراط خيرية، التي لا يتعالى فيها نخصص لسيادة بطشه في الكون ولا يتحلل من أمانة الخلافة وتفريط فيما خلق الله له وسخر من طاقات ومكنات ومكنات.

وحتى تتحقق هذه الوسطية الإسلامية - سواء في المجتمع الواحد أو في العلاقات الدولية بين الدول والمجتمعات - ترسم الشريعة الإسلامية خطة تعالج من خلالها وتضبط وتقنن الأحكام التي تمنع وتمثل الأمراض الخطيرة للأفراد في أممهم والأمم في تقدم إنساني وذوبي مع مراعاة تفرض تنوع الخصوصيات الفردية في إطار جماعة الأمة والمجتمع والاجتماع، وتنوع خصوصيات حضارية وثقافية للأمم في إطار تقدم إنساني وتعاون دولي فعلى مستوى المجتمع الإسلامي هناك ثوابت جوهرية، هي التي تمثل قواعد الخطة، التي تجعل من الأفراد أمة وجماعة ومجتمعاً وحتى عالم، حتى تكتب "الموحد اللاصقة" التي تجعل أفراد الأمة "الإسلامية" هي الثوابت الجوهرية، غير المتغيرات وخصوصيات ومعايير القرون والأقاليم والعادات والتقاليد... فهي

حو مع تسمح « الأفراد » في « لأمة » و مجتمع و لاجتماع وفي ذات الوقت تتيح مساحات من حرية متفردة و خصوصيات متغيرات و تتميزات التي تتطلب تطور و تستصحب متغيرات متطور و لأقاليم و لتقاليد و لعادات

فثوابت الهوية هذه هي « جواهر الثابتة والدائمة » لكل أمة، و هي هي مثابة « البصمة » التي تميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم، كما تميز « بصمة اليد » الفرد عن غيره من الأفراد وكما يسمو الفرد، فتتغير فيه أشياء و تبقى أشياء، عبر مراحل عمره وتطورات فكره، دون أن يفقد ثوابت و مستمرات بصمته، كذلك الأمة و جماعة، تتغير فيها، عبر قرون مسيرتها الحضارية، وباختلاف أقاليم شعوبها، وتعدد ألسنتها ومن ثم قوميات هذه الشعوب، وتغاير عاداتها وتقاليدها تتغير فيها أشياء وأشياء، ولكنها دون أن تفقد هويتها، هي الجوهر الثابت و الدائم و المستمر الذي يحفظ عليها شخصيتها الحضارية، وبصمتها الذاتية التي تميزها عن غيرها من الأمم والجماعات

وكما يقر الإسلام ويتيح هذا التنوع في إطار وحدة الهوية داخل الأمة الإسلامية يقر ويتيحه أيضاً على مستوى الأمم والإنسانية فهو لا يريد أن يصب المجتمع في قالب مفرد، ولا في صيغة واحدة ولا يفسر الله و أراد عالم الإسلام على سلطة مركزية واحدة متفردة، وإنما يتيح المساحات الواسعة لتنوع الشعوب و الأمم، و الألسنة و اللغات و القوميات، و الأقاليم و الأعراف، و العادات و التقاليد، تاركاً جميع ذلك وجميعه يدخل في إطار المجتمع الإسلامية الخمسة جامع بعقيدة موحدة و شريعة واحدة و لغة و ثقافة واحدة و حضارة واحدة و تاريخ الإسلام

* * *

● وحتى يستكمل الإسلام « الفرد » في سياق « الأمة و الجماعة »، جعل « الأسرة » حلقة وسيطة، ودرجة متوسطة بين « الفرد » و « الأمة ». فالأمة تتكون من الأسر و القبائل، و العشائر و العشائر، وكل واحدة من هذه الوحدات الوسيطة تتكون من أفراد وذلك يتيح « الفرد » على « المجتمع » ولا في إطار « الأسرة » تمهيداً لممارسة « المجتمع العام » على مستوى « الأمة »، التي هي

«شعوبًا» و«قبائل» تمثل هي أيضًا ـ جنبًا وسيطة بين «الأسرة» وبين «الأمة» بمعناها الواسع والعام

● وقد ولى الإسلام عنايته المتميزة «للمجموعة الصغيرة» الأسرة» عندما قدسها على رأس «المقدس ـ والفطري» اسمه «الزوج الكريم» فيما عبر عنه: «وقد قضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا» [النساء ٢١]، وعندما جعل رباطها الفطري هذا سكنًا وسكينة ومودة ورحمة تتحقق من الزوج وإلى الزوجة «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» [الروم ٢١]، وعندما جعل من أولويات «الإنفاق في إطارها» والقوامة والرعاية شئونها، وحصر التوارث بين أعضائها «ويوصيكم الله في أولادكم» [النساء ١١]، جعل من كل ذلك أقوى عناصر «التماسك» وأوثق ومشاعر سكنه ومودة ورحمة فيها، أيضًا، عندما جعل الأسرة «المسئولة» لأمة «المتعاونة على البر والتقوى» وجعل «الشورى» و«التشاور» في تدبير شئونها ركنًا من أركان ذلك «البناء» الذي تجمع الأسرة على أساسه، كما تجمع «الدولة» مجموعة من الخصوصيات أو الرموز، بمكونة منها أقوى وأكثر أجزاء الشامخ والكبير

إن الإسلام بذلك ورعايته «للشريعة» التي هي «المنظومة القيمية» التي «تصنع» الأمة الإسلامية في «المدينة» المتميزة، هذا العصر «سعيه» والتي لا تزال معتصمة به وتناضل عنها حتى الآن

* * *

● ولتأكيد هذه الحقيقة من حقائق الرؤية الإسلامية لعلاقة «الإنسان الفرد» بمجتمع «الأمة» و«الجماعة» جاءت فرائض الإسلام وتكاليفه، لا «فردية ـ عينية» فقط، ولا «جماعية ـ كفائية» فقط، وإنما جاءت فيها «فرائض وتكاليف» «فردية ـ عينية» مع الفرائض والتكاليف «الكفائية ـ الاجتماعية» التي يتوجه الخطاب فيها إلى الأمة، ولا تقوم وتتحقق وتكتمل إلا في «جماعة ونظام» «مجتمع وجماعة» فسير الإسلام بذلك عن «المنظور» مثلا ـ ذلك الذي يوجب «الصلاة» على «الفرد» وعلى «المجتمع» هذا «الفرد» يتحقق على «مستويات» تتعين بها «هويته» «المتعينة»

ورهب في صومعة دير أو شعب من شعاب جبل أو مغارة من مغاراته، لا علاقة له بالمجتمع أو الأمة أو النظام أو الاجتماع. عندما أصبحت إقامته، وأصبح تحقيق كامل تكاليفه الاجتماعية والكفائية مرهونا بإقامة الدولة والنظام والأمة والاجتماع.. فكان دين الجماعة.. وكانت عبادته فريضة جماعية ومجتمعية هي «الجهاد في سبيل الله». وكان صلاح «دنيا» أمته مرهونا بصلاح «الدين»، وصلاح «الدين» فيه مرهون بصلاح «النظام الدنيوي» الذي يعين على معرفة الدين وإقامة شعائره في أمن وأمان.

* * *

● وعلى المستوى الدولي والأممي، يريد الإسلام تحقيق وحدة عالمية، وذات المقاصد.

■ فهو يريد لعالم «المنتدى الحضاري» وثقافته وعلمه واختراعه وأنواعه وما هو شرائع وسبل تتعارف وتتعاون وفق نوع «مصالح» لا «أهواء» فيما هو مشترك إنساني عام - وخاصة فيما يؤدي إلى عمران واقع مادي لهذا الكوكب الذي يعيش عليه الإنسان مع تدبير هذه الأمم والحضارات في شرائع ومنظومات قيم ومعارف ومعلومات وبرامج وثقافات أي فيما هو من «عمران النفس الإنسانية».

■ وهو يسمح - في النظام الاجتماعي الدولي المعاصر - شرعة، تنظم وتضبط علاقات الجماعات الاجتماعية ومصالحها عند درجة العدل والتوازن الكفيل اجتماعي بين أعضاء الجماعة الواحدة - لأنه لا وحدة - في منظمة لا تكون متناسب وقدرات الأعضاء، وأيضا لا تفرط في وحدة وتكفل وتضمن سائر الأعضاء.

يتعذر النظام الاجتماعي الإسلامي تحقيق هذه الوسطية، عندما تكون الفئة السياسية أو تلك الزمرة في الأمة وثرواتها هي الحاكمة المتحكمة وتعتبر أن سائر المجتمع مسخرون في هذه الأموال والثروات، تتكفل فرصهم في ملكه وحيازته والاستئثار، وتتفاوت قدرتهم أيضا في هذه المجالات، مع ضرورة ضمان هذه التفاوت عند وسطية العدل والتوازن الكفيل الاجتماعي لأعضاء الجماعة

ه، سبحانه وتعالى، هو الذى وضع الأرض - كل الأرض - للأنام - كل الأنام ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ [الرحمن ]. وفى القرآن الكريم، يضيف الله "الذى" إلى ذاته ﴿وأتوهم من مال الله الذى آتاكم﴾ [النور ٣٣] لأنه هو الخالق له، وهو الذى وهبه له. كما يضيفه إلى ضمير "المفرد" فى سبع آيات، لإقامة الدليل على مشروعية خصائص الإنسان الفرد الخيرة والملكية الاجتماعية - الملكية المقيدة - والاستثمار والاستمتاع بهذه الملكية. ثم يضيف القرآن الكريم "المال" إلى ضمير "الجمع" فى سبع وأربعين آية، ليدلنا على أن المال للأفراد هو فى الحقيقة والنهاية - ملك للأمة والجماعة، وليوحى بأن التكافل بين أعضاء الجسد الواحد - الأمة - هو أصل منحة من الخير المال وتسخيره وحركته إلى الأمة بين قلة من الأغنياء المستغلين، فيعودهم ذلك - مع تعاظمهم الاجتماعى - إلى التطفل والاستبداد.

■ كذلك يمسح الإسلام للملكية الخاصة فى المال والمشروع الذى تكون كل دين وما يتبعون به، وفق عقائدهم، مع إبقاء الأمة كلها - على اختلاف مللها وشرائعها الدينية - إلى المرجعية "الإسلامية - المدنية" التى تسلك المال فى أمة والطوائف فى مجتمع ودولة ونظم، أى تسلك النوع الدينى فى مرجعية "إسلامية - مدنية" واحدة، تحفظ على كل النوع فى إطار توحيدها، فلا عبرة فيها بمعتقد وتنصيص فتتركه يتشرذم وتتفصت التى تبغى وحدة الأمة والدولة والمجتمع.

■ وهو يشرع للتغيير فى الأنفس والملكات - ومن ثم فى القوميات - وذلك بالتغيير فى الأذهان والإحساس ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾، فى ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم ٢٢]، وذلك فى إطار ثوابت دينية، ومنظومة القيم الإيمانية، وجوامع الإسلام فى الحضارة والثقافة ووحدة الأمة.. واتحاد دار الإسلام.

* * *

● وكما سبق وسمح الإسلام فى داخل أمته وحضارته وعالمه - هذا النوع فى إطار الوحدة.. يريده كذلك على مستوى الأمم والدول..

فبعالمنا قد أصبح "المتغير الحضارى" كبيرا، يعرف قيمه وتحولات

وتعيشت خصوصيات ثقافية وعقدية وتنموية تحت خصائص وكل «الدفع» الذي هو حرث حضاري وفكري، بُعدٌ موقف وتوقع، وتحسس تنافس وتسابق، دون أن يتأتى لي سكون لواقع، ويصادون يتصاعد في درجة الصراع، الذي تصنع فيه طرف تتبنه الأطراف، فيهيئ التعدد والتنوع، ومكرسًا للوحدة والانفراد.

فسوء التصالح» يحفظ جميع - جميع الفرقاء - على مصالحهم المشروعة - وليس تتوارث «الفوضى»، التي يجعل العالم عليه يعتاش فيها الفوضى الصغرى، وفق «شرعة الغاب» الجديدة، التي ترى القوة معيار الصلاح، ومن ثم معيار البقاء!

فبدلاً من صدام وصراع فرقاء النوع البشري، على طريقة «فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية» فهل نرى لهم من باقية»، [الحاقة ٦، ٨]. يرد الإسلام الحنيف مشكلات النوع في إطار وحدة المصالح تدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» [فصلت ٣٤]. فيكون التدافع تعديلاً للمواقف والتوقع، يضطلع الجميع بالتعاون والتحاور للمسابقة على فعل الخيرات أمام كل الفرقاء.

تلك هي معالم الرؤية الإسلامية للإنسان والمجتمع، التي تلهم المسلم في تفكيره ومعاشه، ومجرد شعوره ولا شعوره، والإحساس بالمصير والشهود والمآلات، التي يعتقد ويحفظها عقله، فضلاً عن أهل الاختصاص.

* * *

وقد كانت هذه هي أبرز معالم الرؤية الإسلامية للإنسان والمجتمع، فهل تحمل رياح «العولمة الغربية» لمعالم هذه الرؤية الإسلامية؟

في البداية، نود أن نبين أن مفهوم «العولمة الغربية» معاصر، بل ومناقض لمفهوم «العالمية الإسلامية». فالعالمية الإسلامية هي نوع وكم وكيف في الوحدة، على مستوى «الأسرة» و«الأمة» و«الإنسانية»، تتحقق فيها وبها سنة الله أن لا يكون بين الناس ولا تحاور سنة النوع في شعوب وقبائل

و لأسم و خصائص واسهج و ثقافات و لعات و قوميات والألوان و لأجناس و لشرائع و ملل و عقائد و مذاهب و لفلسفات، وديث في إطار جوهر لإنسانية والفطرة التي فطر الله الناس عليها.

أن «لعولمة»، فيها، بدأت من لصبغة غربية مصطبغة، و بهيمنة أمريكية حتى ومؤسساتها وشركاتها، هي قسر غربي، تريد صب لعالم في قالب غربي و حد يجب عليه الآن لتبع لأمريكي - فهي، على «مقرئسة» و«لأمركة» تريد صب جميع لحضارية والقيمية والثقافية و لاجتماعية متنوعة في قالب واحد، هو لأن لغرب لغربي لعلاب، متفوقة، فرصة لعالم قوة خصمة عرمة، يعدون لتقص لاجتماعي لدى مرغيها - على حد سواء - عقود في عشر لعشرين - تقص لمبرالية رسمالية مع شموية بشموعة وعستقة من ثورة لعلمي في تقنيات وسائل لاتصال - في مجتمع متدين هذا لاتصال ينبئ بـ تصعيد قوة على خلق نقيضه، و خبيث لاقتصادية، وخطوط لتغيير لديني و لثقافي، محاولة اجتياحها وإزالتها.

فلعولمة في تصاعد قوي صعيد وتيرة سلعة غربي وخاصة لأمريكي على لنظم و سلوكات غير لغربية وخصائصها وهكوناتها وقيمها وفضاءاتها تصاعد قوي هذا لصعيد، وخوله لمرحلة لتي عاشها في ظل لاستعمار لمباشر، مرحلة «غزو عسكري وترهيب» - إلى مرحلة «لاجتياح»!

إنها «اجتياح في ميادين الاقتصاد - صناعة وتجارة و زراعة - واجتياح في ميدان عسكري، يتمثل بآلة حربية لأمريكية من خلال تدفق عن «أرضي» لحلف شركة في هذا لحلف - كما كان عليه عند تأسيسه في أبريل سنة ١٩٤٩م - على وفي لدفاع عن «مصالح» لحلف وشركة فيه - التي يكن لعالم كله تنظر في مؤتمره بالذكرى لخمسينية لتأسيسه - في أبريل سنة ١٩٩٩م!

***

ولم كان لمطلوب - من هذه لصفحات هو لوقوف على بعض مخاطر هذه لعولمة لمعممة على تدمير ثقافي و قيمي لمجتمعات لإسلامية و لأمة لإسلامية، فإنه لابد لنا من لتنبيه على أن عولمة لعالم بدلاً من عليه - التي لسعى إليه في

قيب و حد ، والعمل على بعث نوعه حضاري و ثقافي و لقمي ، مصرف نظر عن السعي إلى هذه العولمة ، وعن نموذج الذي يريدون ، خلاله محو تنوع ، هو معجزة لسنن الله الكونية و شكونية في تنوع وتعدد وتغير واختلاف كل عوالم المخلوقات ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [المائدة ٤٨] ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴿ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ [هود ١١٨، ١١٩]

فالوحدانية و لأحادية هي التي تقف وراء الإلهية ، ومنها و من عدم تعدد الإلهية يقوم على سنة وقبول تنوع و تغاير و تعدد و لاختلاف . فكل سعي عولمي يريد فرض نظام قيمي قيمي واحد ، هو مضاد ومعاند لسنن الله في تنوع عوالم الثقافات والقيم والملل والفلسفات والمعتقدات

● ويزيد هذا الأمر خطورة وسوءا ، أن هذا النوع من التحكم لعلاقات القوى في واقعنا العالمي الراهن ، يحجز من تحول قيم العولمة بها من الغرب إلى الشرق ، ومن الشمال إلى الجنوب ، كما يجعل نموذجها في الأساس أمريكيا غربيا . أي أن هذا الاجتياح الذي يسعى فرض نظامه في قلب الثقافة الحداثية الغربية ، التي تمثل بالخصوص الأوروبية ، قامت قطيعة معرفية مع موروثها الديني ، و جعلت محل مقدساته الموروثة - الله و الملائكة و النبوة - لأنها لوضعية بثقافة الحداثة العقل والعلم و فلسفة ورعت القداسة عن العالم ، وعن السماء عن الأرض ، بالعلمانية ، التي جعلت العالم مكتفيا بذاته عن الرعاية الإلهية ، وجعلت الإنسان مكتفيا بذاته عن التدبير الإلهي ، وأنهت بعقل عقله ثقافة الأنوار على العقل بالعقل - جعلته " نسبي " المطلق ، ومستبدله به بالعلم الإلهي الكلي والمطلق والمحيط ومقررة أن الإنسان هو سيد الكون ، وليس خليفة سيد الكون وخالقه ، سبحانه وتعالى ! هذه هي ثقافة الحداثة التي يريد العولمة لغربية تعميمها ، وضرب العالم في قالبها

بين هذه قطيعة في هذه ثقافة غربية ، قد من الكثيرين منظومات " هذه حداثة - في تعميم و تعقل و تقنية - فحاولوا هي تفكيك وقطيعة ، عدمية

وعشية ولادته لما بعد حداثة» ووضع هذه «مصنعة» ضمن شوارع تجتاح بها العولمة ثقافات أمم وحضارات الجنوب

فحين أمم جتاح ثقافة حداثية، ستلت لإرث الله، وتمحوت حول ذاته محرره من روح، وأبدت مقطوعة صلته بالآخرة، وبدأ تحول مطهر دون ذلك وحي مستقر حتى لقد تُلتبس شبهة في قلوبهم عن ذاته وبأن وأمام ثقافة «ما بعد حداثية» تبث هي تعتقد فيها كل مصادر معنى وقيم فيها كل شيء من نفس ومعنى وحتى لإنسان، وصبح مُفككة ومُعدمة واللاأدرية والعبثية هي «الأكفان» «لما بعد حداثية» لهذا الإنسان

ذلك هو لمهيمن على شاشات الإعلام ثقافة بوسطة «مصنعة» تعتمر والنقل.. والعيب والشهادة.. وآيات الله المسطورة وآياته المنظورة وتفرد والأسرة والأمة والإنسانية والحب والحق والخير والجمال والوحدة.. ولشك المنهجي الموصل إلى اليقين

● وفي المنظومة الاجتماعية، يريد الاجتياح العولمي أن يجعل من انتصار الليبرالية الرأسمالية على شمولية نشوءه نهاية تاريخ بمعناه الذي وبمعنى وحيد، ويُعدد إلى يجب أن يُصبح العالم في قالبه الوحيد.. وهو مذهب في جعبته منه حتى الشركات متعددة الجنسيات، عابرة القارات وحتى كبرى، تجتاح رؤوس أمواله المالية «التيارات الساخنة»، أسواق العالم ومصارفه وبورصاته، موجهة ٩٧ من رأس مال المالي العالمي في مسيرته وتقلباته ومتاهاته، وصدمة على رأس مال الخدمي، المحاربين في تجارة السلاح ومخدرات ودعارة في الأنفس ومحكمة قوى عولمة الاقتصاد السوق تتحاش على رقاب بقية سكنة الأرض ٨٠ من سكان العالم وتهيمنة كل تجارة وتتاجر بأنفسهم في عالم خيرات الأرض والإنسان، ومحتكرة ٨١ من ثروات العالم وتجارته ٢ من سكان أهل الشمال، وواقعة تحت «صدام حضارات» وصراعها، تأديب متاجر حضارة المنعتقة على وجه الأرض «ما بعد الحداثة» بقيادة الأمريكي في الأساس ـ حتى لقد أعلن أحد الأباطرة مقدوم المنظمة ـ عولمة ـ حرب ـ في سلامه وعلانيته، كما تتحدث محمد إمبراطورية الشر الشيوعية!».

● وفي موقف من المؤسسة لأسرة" وقيمها، شنت عولمة وتشن حرب شعثة ضد مفهوم لإسلامي - النموذج مدني للأسرة، وضد منظومة لقيم شاملة ولاسيما في تحكمها وهي تشن هذه حرب على لأسرة مستعدة لهم" لأمم لمتحدة، ولاحتفال" منتدى لعالمي للمرأة" في نيروبي سنة ١٩٩٥م، وفي مؤتمر "بكين" سنة ١٩٩٥م في مؤتمر "بكين + ٥" في مقر لأمم لمتحدة - نيويورك - سنة ٢٠٠٠م

فتحت أعلام لأمم لمتحدة، وتسمية يعقوبي عرب منظومة لقيم في تلك لأسرة، عندما ترى فيها قيداً على حرية المرأة، فتدعو إلى تغيير هذه لأسرة، على نحو يعاند منظومة لإسلامية، وفي دمج لمرأة في مجتمع دمجاً كاملاً ودمج لرجل في نمط وتحويل لإنسان إلى "حيوان جنسي" تفوق حريته جنسية طريقة لدى حيوانات غير لناطقة، بمعزل عن شتى حدود لقيمية وحقوق لجسد، كاعتداء وقع، بتصرف بطرف على ضوابط منظومة وشرعته لمشتركة! وذلك بعد أن حول عرب هذا لإنسان، ذا لقيمية متوحشة، إلى حيوان مستهلك، لا تتناهى احتياجاته لاستهلاكية!

وقد كانت وثيقة مؤتمر "بكين" و"لقمة" لقاهرة سنة ١٩٩٤م في مثلث أولى وأخطر وثائق عولمة منظومة لقيم عربية ثم سن عنها وأكدتها مؤتمرات في حينها بعد ذلك. فإن موقف هذه لمنظومة من مفاهيم وقيم لإسلامية - بل ومطلق مفاهيم وقيم لإنسانية - سيدة لأسرة، يمكن أن يحاط هذا بحر نصوص في نصوصها، ومناقشتها، ومناقضتها نظرة بعد نظرة.

● فبدلاً من حفاظ على لأسرة بمفهومها "لإسلامي" و"لعربي"، وبضوابط شرعية في تحكم بنائها ومنظومة قيمها، فسرعان ما تبنى دكر وأنثى، قائم على مشاق بمعزل عن توافر شروط شرعية للاقتران، وذلك لتحقيق سكن ومسكينة ومودة ورحمة، وتنمية بشرية مصاحبة لأمة متضامنة. بدلاً من ذلك تسعى هذه لوثيقة في عولمة منظومة قيم عربية معاصرة

للأسرة، فهو عو - عبر حة - و«إيحاح الحكومات وانظمات الحكومية الدولية، وانظمات غير الحكومية المعية، ووكالات التمويل، و المؤسسات البحثية بي عطاء أولوية للبحوث الحيوية المتعلقة بتغيير الهياكل الأسرية»

ولا يخ هذه الوثيقة أمر «تغيير الهياكل الأسرية» للمغرب و لجهات. وهي تتحدث عن «اقتران» لا يقوم على «تروح» وهو ما يشيع في العلاقات بين الجنسين دينيًا بين رجلين أو امرأتين، عند الشواذ - بن وتتجاوز «إباحة» ذلك بي ترتيب «حقوق» لهذه الأنواع من «الأسرة». فتقول «ويسعى بمقتضاه على أشكال التمييز في المؤسسات المتعلقة بالزواج وأشكال الاقتران الأخرى» و«تحرص في عدد لا يحدد من الحالات على «الأعداد الكبيرة من الأفراد غير المتزوجين والناشطين جنسيًا»[٢]

فنحن أمام عولمة مفهوم «الأسرة» لا يقف به عند حدود «الزوج» و«الأزواج»، بل يتجاوز فيه كل «الأفراد» الناشطين جنسيًا، وهو كل الأعضاء، وهو مفهوم غربي، أصبح متعارفًا عليه في كثير من البلاد العربية، بسبب الاختلاط، بل وبسبب الكاسيت، وقد رأينا من أن امرأة له «الأهلية.. لا دينية»!!

● وقد كان الإسلام قد جعل سبب «المساواة» بين الأنثى والذكور، في الحقوق والكرامة والتكليف والحساب والجزاء، مع الحرص على توزيع يتعامل يحافظ على فطرة التمايز بين الذكورة والأنوثة، فجعل هذه المساواة هي «مساواة الشقين المكاملين، وليس شقين متماثلين»، حتى على دواعي الاقتران والتشوف والتعلق النوعي الإنساني. فإن وثيقة مؤتمر بكين تسعى إلى انقلاب في علاقات المرأة بالرجل، فبدلا من التي مصطلح «المساواة» تتحدث عن «تمكين المرأة» وبدلا من توزيع يتعامل بين الرجل والمرأة وفق فطرة وطبيعة الذكورة والأنوثة، وهي التي أشار إليها حديث رسول الله ﷺ «أنكم ناقع وأنكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية في بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» وهو يُجري تعميم لأمر أجنبي بدلا من هذا التوزيع المتوازن يتعامل مع الجنسين والرجال، تدعو الوثيقة إلى دمج الرجل في المنزل، ودمج المرأة في المجتمع

دمجاً كاملاً، وتقول «ويتعين على الحكومات والزعماء الوطنيين والمجتمعيين أن يشجعوا مشاركة المرأة الكاملة في تنظيم الأسرة وتربية الأطفال والعمل المنزلي وتمكين المرأة واستقلالها وإدماجها بشكل تام في الحياة المجتمعية»[1].

● وقد أثبتت تجربة قيمة من تقدم الإسلاميين في السودان، أن الحصول على الزوج الشرعي هو السبيل الوحيد لتحرير الجسد والأشواق العاطفية في حياة سعيدة ورفيعة في المجتمع السوي. فهي وثيقة المؤتمر تتحدث عن «المتعة الجنسية المأمونة والمسئولة»، وليس عن «المتعة الجنسية الشرعية والمشروعة والحلال» فمصطلح «الصحة الجنسية» الذي هو أكثر المصطلحات تكراراً في هذه الوثيقة، يعني «تكامل الجوانب الجسدية والعاطفية والعقلية والاجتماعية للوجود الجنسي، بأساليب تثري الشخصية وتقوى التواصل والحب». وفي نهج إيجابي تجاه النشاط الجنسي البشري»[2].

مع اعتبار هذا النشاط الجنسي البشري حقاً طبيعياً وبعيداً عن حقوق الجسد، كما نعلم، وغير مقصور على المتزوجين (وهو شرعاً كذلك) فهو ـ بنص الوثيقة ـ «حق لجميع الأرواح والأفراد [لاحظ «الأفراد»] سواء كان امرأة أو رجلاً أو مراهقاً أو مراهقة. ويسعى أن تسعى جميع البلدان إلى توفير هذه الحقوق لجميع الأفراد، من جميع الأعمار، في أسرع وقت ممكن، وفي موعد لا يتجاوز عام ٢٠١٥»[3]!

أي والله! هذا هو نص الوثيقة، يستهدف تعميم توفير حقوق الإنجاب الجنسية بكل النشاطين الجنسيين، من كل الأعمار، في أسرع وقت ممكن، وفي موعد لا يتجاوز سنة ٢٠١٥م حتى لطفل المهد، وهو يمثل أحد الاستهدافات الأساسية على التهديد الأخطر للسلام العالمي!.

وبهذه الرؤية المريضة، تحدثت الوثيقة عن «السلوك الجنسي المسئول»، وليس عن «السلوك الجنسي الشرعي، أو الحلال» «وذلك من أجل توفير من الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية. فالهدف هو تشجيع [لاحظ «تشجيع»] تطوير أساليب للنشاط الجنسي المسئول مما يسمح بوجود علاقات المساواة والاحترام المتبادل بين الجنسين ويسهم في تحسين نوعية حياة الأفراد..»[4].

قاسمة الحسبة عالية استوى واشروعه، هي حق للمجتمع، بشرط أن تكون المدرسة الحسبة مسئولة، وقائمة على التقصي والاحترام، حسب موهبة كل الأفراد.

● وإذا كان الاحصاء، بروح سكرة، هو الذي يحافظ على قيمة العقد، ويسمح للاستمتاع بشرعي وحلال للعلاقات الحميمية والجنسية بين الأزواج، فإن وثيقة مؤتمر السكان تسعى لتعويمة مفهومه القيم العربية، التي عبرت تحرم وتحرم بروح السكرة، وتدعو إلى عقد «البدائل» التي تصرف عن هذه الروح السكرة. «فالهدف هو الحيلولة دون حدوث تريحات سكرة وعلى الحكومات أن تزيد من الأدبي عند الزواج حيثما اقتضى الأمر ولاسيما بإباحة بدائل تغني عن الزواج المبكر..»[٧].

وفي ذات الوقت، تتيح المرنا كبديل لهذا الزواج المبكر ... فقد أفردت هذه الوثيقة حيزاً كبيراً وهاماً للحديث عن حقوق المراهقين والمراهقات الذين تتراوح أعمارهم ما بين عشر سنوات وثمانية عشر عاماً، بل وفي بعض الحالات تصل إلى الثلاثين، وتتضمن الأسرة «فالهدف هو الوفاء بالاحتياجات الخاصة للمراهقين والشباب وخاصة الشابات والخدمات عالية الجودة في مجال الرعاية الصحية والجنسية والتأهيل كما يتعاملوا مع شخصهم الجنسي بطريقة إيجابية ومسئولة وحماية وتعزيز حقوق المراهقين في التربية والمعلومات والرعاية المتصلة بالصحة الجنسية والتناسلية وأن تخفض عدد حالات حمل المراهقات تخفيضاً كبيراً. فالمراهقون النشطون جنسياً يحتاجون نوعاً خاصاً من المعلومات والمشورة والخدمات فيما يتعلق بتنظيم الأسرة كما أن المراهقات اللاتي يحملن يحتجن إلى دعم خاص من أسرهن ومجتمعهن المحلي خلال فترة الحمل ورعاية الطفولة المبكرة ولذلك، يتعين على البرامج إشراك وتدريب كل من يمكنه توفير التوجيه للمراهقين فيما يتعلق بالسلوك الجنسي والتناسلي المسئول، وبخاصة الأبوين، والأسر، وأيضاً المجتمعات المحلية، والمؤسسات الدينية، ووسائل الإعلام، وجماعات الأقران ويسعى أن تعمل الحكومات على محاربة التمييز ضد الجنسين ...[٨].

إن وثيقة تدعو وثيقة مؤتمر السكان في مصر [illegible] في ذلك المؤسسات

مدينة"، بتوفير "الحقوق" التي تضمن حياة كريمة، وكذلك حقوق الحرية، والإنتاج الحر، وتنصيب الأسرة [illegible] من "روح مكرم".

* * *

● [illegible] الإسلامية، التي انطلقت من "ربانية" ومن "إنسانية"، عندما رأت الإنسان خليفة الله، خلقه الله ونفخ فيه من روحه، واستخلفه عمران الأرض [illegible] هذه الثقافة قطيعة معرفية مع الله والدين والقيم الإنسانية، ويتضح ذلك من ظهور [illegible] وقيمها وربطها [illegible] هذه الثقافة التي نرتبط بالوسطة الخادعة من الثنائيات المتناقضة، تريد للعولمة أن تعمم في كل ثقافة حداثة علمانية [illegible] تعتبر تطوير الأديان الوضعي العلماني [illegible] وعلى رأسها الحضارة، وتريد على الحضارة الإسلامية أن تحرر نفسها من الدين، وحتى قبل وصولها إلى مرحلة الخروج العولمي

■ وأحد "الخيرين" (١١٦٧ ـ ١٢٣١ هـ ـ ١٧٥٤ ـ ٨٢٢ م) "الذهبية" لا تعترف أنها تأتي بتعاليم دينية من الأديان [illegible] وذلك عندما سخر من دعوى "دوبريت" (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) وجمعيته المرسلة عندهم بالإسلام، فقال: "إن إسلامهم نصب فلقد حاشو المصري و[illegible]، ولم يتمسكوا من الأديان بدين، وهم دهرية معطلون، ولمعاد والحشر منكرون، ولنبوة والرسالة جاحدون".

■ ولذلك رفعه [illegible] المتخصصون (١٢١٦ ـ ١٢٩٩هـ / ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) [illegible] من ثقافة الحداثة الأوروبية في باريس.. فرآها دنيوية صنعها لا دينية يعيشها أهل باريس، لدرجة "ليس لهم من دين النصرانية إلا الاسم فقط، فهم لا يحيون، يقولون إن كل عمل يأذن فيه بعقل صواب، ولذلك لا يصدقون شيئاً مما في كتب أهل الكتاب، خروجه عن الأمور الطبيعية، وهم في شمسية جنوب صلالية محسوسة سائر الكتب السماوية، وإن كانت بلادهم من أحكم بلاد الطب وديار العلوم البرانية.. علوم التمدن المدني..".

■ وزاد [illegible] الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) [illegible]

بلده خسية، يبعث من جديد مذهب «يقور» الكلبي (٣٤٠ ـ ٢٧٠ ق م) مذهب السذة والدهرية على أيدي فلاسفة التنوير الوضعي الألماني، من مثل «فولتير» (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨ م) و«روسو» (١٧١٢ ـ ١٧٧٨ م) اللذين «مرعمال حماية العدل ومعاداة الظلم و لقيام بإثارة الأفكار وهداية العقول، فشن قر أبيقور الكلبي، وأحيا ما بلى من عظام الدهريين، وبدا كل تكليف ديني، وعرسا لدور لإباحية والاشتراك، ورعما أن الآداب الإلهية جمعيات خرافية، كما رعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص لعقل الإنساني، وجهر كلاهما بإنكار الألوهية، ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الأنبياء (برأهم الله مما قالا) وكثيراً ما ألف «وولتير» من الكتب في تحطئة الأنبياء والسخرية بهم و لقدح في أنفسهم وعيب ما جاءو به، فاحدث هذه الأراضل من نفوس الفرنساويين، وبالت من عقولهم فسدوا الديانة لعيسوية وبضعو منها بأيديهم وبعد أن أعقوا أبوابها فتحو على أنفسهم أبواب لشريعة المقدسة (في زعمهم) شريعة الطبيعة "

* * *

● وعندما ذهب في بلاده ـ بوساطة المثقفين من ذوية ـ إلى صيغة عن ثقافتهم في مدارس الإرساليات التبشيرية ـ مؤسسات ثقافية ، صحف ومجلات احترفت لتبشير بثقافة حداثة الغربية ـ وفي مقدمتها مجلة «المقتطف» (١٢٩٣ ـ ١٣٧ هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٥٣م) ـ التي أحدثت تسرب هذه الحداثة الأدبية تحت لافتات «العلم» و«المعارف العصرية» كشف «عبد الله العروي» (١٣٠١ ـ ١٣٨٣هـ / ١٨٨٣ ـ ١٩٦٤م) بضع لإحدى لهذه لثقافة الحديثة، وتحدث عن هذه المدارس من كتابه «الإيديولوجية العربية المعاصرة»، وصف بعضهم بأنهم «أعداء الله وأنبيائه والأحرار الذين أشفقوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من سموا بديوا لدين، ممن يسمون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيميوية ويرجعون المكونات إلى المادة و لطبيعة، منكرين وجود الإله الخالق وقد سترو هذه الأراضل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان»[٢]

هكذا تمتع علماء الأمة، وروادها يقظتها الإسلامية بهذا العمق والحدة والوعي، فميزوا بين ثقافة الغرب في العلوم الطبيعية وتقنياتها، وبين وضعية ولادية

ثقافة الحداثية ، وهو عمق وتجذر رؤيته الفلسفية ، يجعلنا نتساءل عن موقع هذه الحداثة من مثقفينا المتغربين!

ولا يحسبن أحد أن هذا الذي تحدث عنه أئمة المقاصد، من قيام القطيعة المعرفية بين ثقافة الحداثة الغربية وبين الدين، هو مما يماري فيه المتغربون - كما يماري فيه بعض المتغربين!.. فهذه القطيعة المعرفية هي من المسلمات التي يعترف بها ويعلنها دعاة هذه الحداثة عندما يقولون: «إن أيديولوجيا التنوير قد فصلت بين عنصرين من عناصر الروح البشرية: عنصر الخلاصة اللاهوتية، وعنصر الموسوعة الفلاسفة التنوير ومنذ الآن فصاعداً راح الأمل معقوداً على أن يبرح لكي يحيى الإنسان ليتقدم عنصر العقل وهيمنته، وهكذا راح نظام النعمة الإلهية يمحى ويتلاشى أمام نظام صنيعة لقد أصبح الإنسان وحده مقياساً للإنسان»[١٣]!

بل إن الاعتراف بهذه القطيعة مع الله والدين يسبغ على الاستغراب أو على الوعي الذي يدور من الداخل، عندما يعترف أحد دعاة هذه الحداثة عند واحد من أبرز دعاتها المعاصرين - د. محمد أركون - فيقول عنها: «إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الصنيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون»[١٤]!

فثقافة الحداثة تعترف أنها ورؤيته عندها حقيقتها هي ثقافة القطيعة مع الله والغيب والدين. ثقافة الدنيا والدنيوية: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ [الجاثية: ٢٤]، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم: ٧] ثقافة الإنسان «الصنعي - الحيواني» لا ثقافة الإنسان «الرباني» الذي خلقه الله. ثقافة عبادة لطبعه، بدلاً من عبادة الله!

وهذا العقل الذي ألهه وعبده هذه الثقافة الحداثية، عندما تنسب له من «مقاصد» أي «إطلاق»، فإنما هو إطلاق على العقل لا «بالعقل»، إنه غير العقل والعلمانية في ثقافة الإسلامية المؤصلة، ذلك الذي لا يعني عنده شيئاً من ممكنات الإنسان، ونعمة من نعم الله على هذا الإنسان، وجوهر الذي يميز به الإنسان عن غيره من المخلوقات، وضابط التكليف الإنساني. لكنه ليس وحده

السبيل إلى المعرفة، وكما نرمل في هذه المهمة ويتآزر ويتآخى مع الوحي والتجربة والوجدان، لإقرار الثقافة المتوازنة.

وفي مقابل هذا التأليه الحداثي للعقل، نجد الرؤية الإسلامية التي صورها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م) عندما قال: «فمثال العقل: البصر السليم من الآفات والأذى، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء. فأخلق أن يكون طالب الاهتداء، المستغني بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء. فالمُعرض عن العقل، مكتفياً بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور».

تلك هي التحديات القيمية والثقافية، التي تريد العولمة الغربية فرضها على قيمنا وثقافتنا، مهددة بذلك رؤيتنا الإسلامية للإنسان والمجتمع، ومعاداة سنة الله في الخلق والاجتماع والفكر، سنة التنوع والتمايز والاختلاف، التي هي قانون كوني وتكويني، لا تبديل له ولا تحويل.

* * *

**● والآن.. ما العمل؟؟**

في مواجهة هذه المخاطر والتحديات، التي تمثل «واقعاً معيشاً» وليس مجرد احتمالات»؟!

● إن على قوى اليقظة الإسلامية والعروبية ـ باعتبارها قوى الأصالة في مجتمعاتنا ـ أن تميز في الغرب بين «الإنسان العربي» و«العلم العربي» و«المشروع العربي». فنحن لا مشكلة لنا مع «الإنسان العربي»، بل إنه قد يتحول إلى نصير لقضايانا عندما نحسن عرضها عليه، بل وإلى متفهم لإسلامنا، ومؤمن به إذا نحن أحسنا تبليغ الدعوة، وإقامة الحجة، وإزالة الشبهة عن الإسلام.

وكذلك الحال مع «العلم العربي»، وخاصة منه علوم التمدن، علوم عمران الواقع الحياتي. لا مشكلة لنا مع هذا العلم، بل علينا أن نسعى إلى طلبه

وامتلاك ناصيته بكل الوسائل والطرق. فهو من «حكمة» التي هي ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو الأحق بها.

والمشكلة، كل المشكلة، هي في «المشروع الغربي»، الذي يفرض علينا ما لا نريد، وما لا يناسب هويتنا الحضارية، وثقافتنا الإسلامية، وقيمنا الإيمانية، في ذات الوقت الذي يحجب عنا «العلم الغربي» الذي نحتاج ونريد!.. ويضلل - بإعلامه - الإنسان العربي؛ كي لا يتفهم حقيقة ثقافتنا ودينا وقضايانا.. فهذا «المشروع الغربي»، يريد أن نحل ما لا يناسبنا وما لا نريد محل ما يناسبنا وما نريد، فنحرمنا، بذلك من أبسط حقوق الإنسان.. حقوقه في التنوع والاختلاف، واختيار النموذج الحضاري والثقافي الذي يريد!

● كذلك، على قوى اليقظة في أمتنا العربية والإسلامية، أن تميز في مكونات ظاهرة العولمة بين التقنيات التي تحول العالم إلى قرية واحدة، والتي هي بالنسبة لنا «فرص متاحة» للتطور والتقدم والتعلم، إذا نحن أحسنا استخدامها وتوظيفها، وحمّلناها بالمضامين المتسقة مع هويتنا وقيمنا الإسلامية.. علينا أن نميز بين هذه التقنيات وبين «العولمة كأيديولوجية» تشرح وتبرر وتكرس لهيمنة الغرب على الشرق والشمال على الجنوب، بل والعالم بأسره.. وأيضاً، أن نميز بين هذه التقنيات وبين المصالح العربية غير المشروعة، التي تسعى إليها شركات الغرب العابرة للقارات من وراء العولمة.

إن تحول العالم، بتقنيات ثورة الاتصال إلى قرية عالمية، هو حقيقة وواقع. ولكن أيديولوجية هيمنة العولمة العربية لا تجعل بيوت هذه القرية وسكانها سواء، لأن أيديولوجية العولمة تريد السيادة «للتوازن القوي».. وهو مختل جملاً فاحشاً - بدلاً من «توازن المصالح» والثقافات والحضارات، الذي يحقق «العالمية الإنسانية» بدلاً من «العولمة العربية» فنحن نريد «القرية العالمية»، التي يسودها هذا التوازن في المصالح، والتفاعل في الثقافات.. ونرفض «القرية المعولمة» التي فيها القاتل والمقتول، ومن تُنزع سيادته عن أرض وطنه، ومن ينزع هذه السيادة من أصحابها، ومن يحرم من حقه الفطري في تقرير المصير، ومن يقرر مصائر الآخرين، ومن يحمي - بالقوة - طغيان الاحتكارات الرأسمالية العالمية على حساب الحمايات

الوطنية لاقتصادات الدول النامية. فموقفنا يجب أن يكون ضد «القرية العولمية» ومع «القرية العالمية».

ونحن لسنا ضد الثقافات التي تفتح الحدود وترفض الانسداد، ولكننا نريد استخدام هذه الثقافات لتفتح الحدود بين دول عالم الإسلام أولاً، لا أن يكون مفتاح فتح حدود كل بلد مسلم مع مركز الهيمنة الغربية. فالثقافات التي تفتح الحدود - رأسيًا - مع الشمال، يمكن ويجب أن تفتح الحدود - أفقيًا - مع دول المحور الإسلامي، لتحصل المنفعة التي تمكننا من تحمل ريح الشمال!

وكذلك حين يعلن العالم الإسلامي دون وعي خضوعه لحضارة الغرب، فإن هذه الحضارية مع هذه الخضوع هو جزء من ترتيب الإمكانات لتحقيق شروط الثورة في هذه المواجهات.

● كذلك على قوى المقاومة والأصالة الوطنية والقومية والإسلامية، أن تكشف عن زيف الغرب الفكري في بلادنا، ذلك الذي جعل رصيده بالعولمة، يعتبرها «واقعًا» وقطارًا.. ركوبه قضاء وقدرًا»، والامتناع عن اللحاق به سيودي بنا إلى مصير والمترددين إلى مصير الهنود الحمر!

علينا أن نكشف زيف هذا «المنطق» الغربي، بالتمييز بين «الواقع» وبين «التسليم بهذا الواقع». فالعولمة - كتطور حدث في واقع وعلاقة بالعالم الغربي، وخاصة الأمريكي، بالعالم - هي حقيقة واقعة لا ينكرها إلا واهم، ولكن المطلوب هو «التعامل» مع هذا الواقع، وليس «التسليم والقبول» بهذا الواقع.

لقد جاء على العالم الإسلامي حين من الدهر عصفت فيه قوى الاستعمار الأوروبي الحديث. ومن قبل واقع هذا الاستعمار الحديث، عاش العالم الإسلامي واقع سيطرته العثمانية، التي دامت - هي الأخرى - قرابة ثلاثة قرون [٦٩٩هـ/١٢٩٩م - ١٣٤٨هـ/١٩٢٤م]. وبالرغم من أن هذا «الواقع» العثماني، بالجهد الاقتصادي، والاستعمار الاستيطاني في مصر، كان هذا «الواقع»، قد تحولت هذه المنطقة العالمية الإسلامية - بمساحة أقصى اتساعها الجغرافي حيث «الوطن» والحرمين الشريفين قلعة من قلاعه - إلى [illegible] ولكن الأمة «تعاملت» مع ذلك الواقع حسب عقيدتها، ولم «تسلم

به، أو «تلحق» بقطره، فضلاً عن أن «تندمج فيه»! فالاعتراف بالواقع شيء، والقبول به شيء آخر. وتلك حقيقة يجب أن نكشف بها زيف التغريب العولمي في بلادنا!

كما لابد من كشف العمالة الحضارية للذين لم «ينبهروا» بالعولمة فقط، وإنما رحبوا بها باعتبارها الاحتياج للقيم والثقافة الإسلامية التي يكرهون!

● كذلك، على قوى اليقظة الإسلامية والعربية أن تتخذ سبيلها لمواجهة مخاطر العولمة وتحدياتها، وهو سبيل ترتيب البيت العربي الإسلامي، لتعظيم إمكاناته الهائلة.

إن عالم الإسلام، ومعه حضارات الجنوب، تملك من الإمكانات ما يغري المخلصين الواعين بترتيبها وتعظيمها، لا للعزلة بها والانغلاق عليها، فذلك وهم غير ممكن وغير مفيد، وإنما لتعديل موازين القوى الدولية، وتحقيق العالمية الإنسانية، بدلاً من العولمة الغربية.

فعالم الجنوب يستورد «المواد المصنعة» من الشمال - وأكثرها متخلفة، والحديث منها استهلاكي لا إنتاجي - يستوردها الجنوب بأعلى الأسعار، بينما يصدر للشمال - بأرخص الأسعار - ٤٠٪ من المعادن - و٣٥٪ من النفط - و٩٣٪ من القصدير - و٦٥٪ من الخشب - و٤٠٪ من القطن.

والعالم الإسلامي وحده، يملك وطناً مساحته ٣٥ مليوناً من الكيلومترات المربعة.. تعيش فيه أمة يبلغ تعدادها نحو ربع البشرية ١,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، بينما في الصين قرابة هذا التعداد على مساحة هي ١ : ٩ من مساحة العالم الإسلامي!

وغير الإمكانات الروحية والحضارية والثقافية التي يملكها العالم الإسلامي - وحده العقيدة والشريعة والأمة والحضارة ودار الإسلام - فإن هذا العالم هو:

- العالم الأول في البترول والغاز والمنجنيز والكروم والقصدير والبوكسيت.
- وهو العالم الثاني في النحاس والفوسفات.

- وهو العالم الثالث في الحديد.

- وهو العالم الخامس في الرصاص.

- وهو العالم السابع في الفحم

وإذا كانت أغلب ثروات العالم الإسلامي لم تستخرج من باطن الأرض - وهي مركوزة فيه - فإن واحداً من أبواب بركة، وهو «بركة بركة» - ٢ - عن قيمة ما يستخرج من باطن الأرض - يمكن أن تقيم الصندوق بتسمية «كل العالم الإسلامي»، بالحلال وفق حديث رسول الله ﷺ «وفي بركة خمس» رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود ومالك والإمام أحمد - بعيداً عن الربا الذي وقع في فخه في الجاهلية القديمة وخارج أغلال المؤسسات الاقتصادية المعولمة الغربية - صندوق النقد الدولي.. والبنك الدولي -..

واستطاعة المكون الاقتصادي أن يجعل العالم الإسلامي حراً في مصادر غذائه، فيه أصول الثراء المذهب، وأقام فلاح العالم الإسلامي لأرضه، وملأت ملايين من الأفدنة التي يمكن أن تروح باستثمار فوائض النفط الإسلامية، مودعة في بنوك العولمة الغربية، والتي تتآكل هناك بالمخاطر والمؤامرات!

واستطاعة المكون الاقتصادي أن يفتح حدود العالم الإسلامي أمام التجارة البينية التي تقف الآن عند ٨٪ من حجم هذه التجارة، بينما ٩٢٪ منها تقوم مع كل دولة قطرية وليس الشمال! فاتفاقيات العولمة يمكن، وأولى بها أن تعولم العالم الإسلامي أولاً، بفتح حدوده للتجارة الإسلامية المتكاملة، ولتكامل الصناعي، وبعد ذلك يكون التعامل مع الشمال ككتلة اقتصادية واحدة هو الذي يعصر، الذي يطبق أوروبا، كفرة، وأمريكا، كفرة، ونحن أولى بتطبيقه لأنه إسلامي، وليس مجرد مساحة من الخرفان!

ومنظمات الإقليمية - العربية، والإسلامية، والإفريقية - لو نفخت فيها الروح، وتم تفعيلها، يمكن أن تمثل شكل المحاصر لوحدة أمة الإسلام وهذه الإسلام من الخلافة الإسلامية الجديدة - التي تزدهر في ظل جوامعها العامة والمزدحمة ومصانعها المشتركة للدول القطرية والقومية - هذا الشكل وهذه المصنعة التي أقول بها

مرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا [١٣١٣ ـ ١٣٩١هـ ١٨٩٥ ـ ١٩٧١م] دراسته بعنوان [فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم إسلامية] في سنة في الإشارة إليها حضرة الأستاذ في العدد الثاني عشر من المجلد الثاني الاتفاق والتصافر على تحرير الولاة الإسلامية من أشد أركان السياسة المحمدية. والاعتقاد به من أوليات معتقدات المسلمين والدول الإسلامية متصلة الأراضي، متحدة المعتقد، يجمعهم القرآن، فهم لا يتفقون على شيء ولا يقدمون كما اتفق عليهم سائر الأمم[١٥] ولو اتفقوا فليس ذلك بدع منهم، فهو من صميم دينهم لا أتمنى بقول هذا أن يكون ذلك الأمر في جميع شخصٍ واحدًا، فإن هذا ربما كان عسيرًا، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وجهتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر من استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه. ألا إن هذا بعد كونه أساسًا لدينهم، تقتضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات.»[١٦].

* * *

أما حضرة الأديب علي عبد العزيز شوقي ولد في هذا الموقع من «الفرص» ومن «المحاصر» واستخدم هذا الموقع في تجديد الفكر الإسلامي، وفي الإبداع المختلف لتدبير هذا الفكر، ليكون لأشواقه الشعرية «الدخل لعمل» الذي يسير الطلائع لأمته بطريق ويتكون بهذه الأمة الثقافة والأدب والعلوم التي تملأ النفس الإسلامية وتغذي الوجدان الإسلامي، وتروّح عنهم، حتى لا تملأ نفوسهم فراغها الثقافي والروحي بهشيم الانحلال وثقافة حداثة الملاءمة فيملأ فراغنا بثقافة انحلال وفنونها وآدابها، فإن فراغ هذا سيملئ بثقافة الانحلال.

وقد كانت العولمة تعني صب العالم في قالب الحضارة الغربية مفهومة اقتصادًا وسياسة وقيمًا وثقافة فإن العالمية الإسلامية والإنسانية تريد العالم «متعدد الحضارات» تتفاعل فيما هو مشترك إنساني عام، وتتمايز في الهويات الحضارية والخصوصيات الثقافية، لتتدافع الأمم وتتسابق وتتعارف بدلاً من الصراع والهيمنة والقهر والاستغلال.

والحذر، كل الحذر من «الوهن» و«الثقافة الهزيمة النفسية»! فالعرب المتحضر اليوم، عاش قروناً من البؤس والتخلف والرجعية والتحجر والجمود والظلام. ومأزق الحضاري الراهن، يجب ألا ينسينا ما عشنا العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون، بينما عمر العرب كعالم أول لم يتجاوز القرنين من الزمان!.

وللتقدم وللتراجع سنن وقوانين. وهي ليست خطاً صاعداً أبداً، أو هابطاً باستمرار، ولكنها دورات. وصدق رسول الله ﷺ، إذ يقول: «لا يلبث الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره» رواه الإمام أحمد.

وإذا كنا نألم مما أصابنا من القرح، فإن أهل العولمة أيضاً يألمون. ومن النهوض من مأزق الحضاري لا ييأس منها إلا القوم الكافرون. وصدق الله العظيم:

﴿هذا بيانٌ للنَّاس وهدًى وموعظةٌ للمتقين ﴿١٣٨﴾ ولا تهنُوا ولا تحزنُوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴿١٣٩﴾ إن يمسسكم قرحٌ فقد مس القوم قرحٌ مثلُه وتلك الأيامُ نُداولُها بين النَّاس وليعلم اللهُ الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴿١٤٠﴾ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴿١٤١﴾ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم اللهُ الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [آل عمران: ١٣٨ ـ ١٤٢]

﴿ولا تهنُوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان اللهُ عليماً حكيماً﴾ [النساء: ١٠٤]

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق.

* * *

## • الهوامش

(١) (مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المنعقد في ٥ ـ ١٣ سبتمبر سنة ١٩٩٤م ـ الترجمة العربية الرسمية ـ الفصل الثاني عشر ـ الفقرة ٢، طبعة سنة ١٩٩٤م

(٢) المصدر السابق الفصل الخامس الفقرة ٥ والفصل الثاني الفقرة ١، والمصدر السابق الفقرات ١ ـ ١٢، ١٤، ١٧، ١٨، ٢١

(٣) المصدر السابق، الفصل الرابع، الفقرات ١١، ٢٦

(٤) المصدر السابق، الفصل السابع الفقرة

(٥) المصدر السابق، الفصل السابع، الفقرات ٢، ٣، ٥، ٤

(٦) المصدر السابق: الفصل الثامن، الفقرات ٣٥، ٣١ والفصل السابع الفقرة ٣، ٣٤، ٣٢

(٧) المصدر السابق الفصل السادس الفقرة ٧ والفصل الرابع الفقرة ٢١

(٨) المصدر السابق الفصل السادس الفقرة ٧، والمصدر السابق الفقرة ٢، ٥، ٩، ٤٣، ٤٦، ٤١ والفصل الحادي عشر الفقرة ٨

(٩) (مظهر التفسير بروح دولة التريس) ص٣٤ تحقيق حسن محمد جوهر الطبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م

(لأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده المجلد الرابع ج ٢ ص٥٩ دراسة وتحقيق محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م

(١١) ( لأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص١٦١، ١٦٢ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(١٢) مجلة (الأستاذ) القاهرة العدد ٣٩ ـ ص٩٢٣، ٩٢٤ في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٠٥ هـ يناير سنة١٨٩٣م

(١٣) هاشم صالح مجلة (الوحدة) المغرب عدد فبراير ـ مارس سنة ١٩٩٣م ص ٢، ٢ وهو بعنوان كتاب (من بولا (خريف) الحضارة حديث شهري فرنسا وعدا جديد) منشورات سوي باريس سنة ١٩٨٧م.

(١٤) د. علي حرب (صيرورة التقدم والحداثة بين أنصاف (بتردد وأشباه أركون) صحيفة (الحياة) بتاريخ في ١٨ ـ ١١ ـ ١٩٩٦م.

(١٥) ( لاقتصاد في الاعتقاد) ص٢، ٣ طبعة مكتبة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ

(١٦) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) جـ٢ ص٢٧ ـ ٢٩ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٨١م

* * *

# فلسفة المشروع الحضارى

في القرآن الكريم يقترن الحديث عن «الإيمان» بالحديث عن العمل.

وفي النشأة والسلوك والنمو للعلوم الإسلامية، الشرعية منها والاجتماعية والطبيعية، كانت [illegible] للتطبيقات، ومنها [illegible] وبعد تراكمها [illegible] استخلصت القواعد والمناهج والنظريات [illegible] الحضارة الإسلامية قد [illegible] بالاقتصاد الشديد في التأليف التي تفردت [illegible] والتجريدات والنظريات [illegible] هذه الجهود الفكرية، العالية المستوى، في ثنايا العلوم التي توجهت إلى ميادين الممارسة والتطبيق. وهذه الميزة والخصوصية يحسبها البعض [illegible] النموذج اليوناني [illegible] الذي [illegible] فيه العمل الذهني عن العمل [illegible] الفكر النظري عن الممارسات العملية - يحسبها هذا البعض [illegible] تعكس فقرا في الفكر المنهجي والتجريدي لحضارتنا الإسلامية، بينما هي ميزة وخصوصية [illegible] حضارتنا الإسلامية من «العمل» مزج الذهني منه بالعملي، على النحو الذي [illegible] فيه الوحي الإلهي بين العمل وبين الإيمان.

* * *

وفي العقود الأخيرة، برزت كثير من الدعوات التي تطلب من الفلسفة أن تبرز من «الأبراج العاجية» لتعالج مشكلات الأمة وتنتظم الناس. وعقدت مؤتمرات فلسفية عالمية تبحث دور الفلسفة في حياة «رجل الشارع». لكن أحدا لم يلتفت إلى أن هذه «المشكلة» التي تداعت هذه المؤتمرات إلى البحث فيها إنما هي «مشكلة يونانية» المنشأ، منذ أن كان كل «الشرف» [illegible] من الأحرار الذين يحترفون العمل الذهني، وكل «الدونية» لجماهير الأرقاء الذين يحترفون [illegible] ويسحبون في العمل اليدوي! وأن الحضارة الإسلامية قد تميزت، انطلاقا من القرآن الكريم [illegible] الإلهي - الذي [illegible] بيانا [illegible] عمليا [illegible] من النظريات

والممارسات، حتى لقد اقتصد تراثها في التأليف التي سارت بتحريرات نظرية عن العلم التطبيقي لهذه النظريات

* * *

وإذا كان الاحتكاك الحضاري بين عالم الإسلام وبين الغرب [illegible] والسلمي في القرنين الأخيرين قد طرح على العقل العربي والمسلم ضرورة «النهضة» كطوق نجاة من المأزق الحضاري - الذي يمثل «الجمود» [illegible] والتخلف الموروث» عن عصور التراجع الحضاري، [illegible] «التبعية» والتقليد للنموذج الغربي في التحديث» [illegible] حتى لقد أصبحت قضية «النهضة» المنشودة، ومعالم مشروعها الحضاري، هي محور الاتفاق وبؤرة الاختلاف [illegible] من كل [illegible] في [illegible] العروبة وعالم الإسلام [illegible] مركزيتها في [illegible] مع هذه المتغيرات الفكرية التي شهدتها وتشهدها الساحة العربية والعالمية في العقود الأخيرة، والتي سقطت فيها فكريات وفلسفات [illegible] وتراجعت فيها أيديولوجيات ونظريات وزادت فيها علامات الاستفهام ومساحات المجهول مع زيادة الإجابات ومساحات ما هو معلوم للإنسان؟!..

إذا كانت هذه إحدى الحقائق الكبرى في حياتنا الفكرية المعاصرة [illegible] البحث في «فلسفة مشروع النهضة العربية الإسلامية»، قد غدا ويغدو الصورة المعاصرة لإنزال الفلسفة من أبراجها العاجية لبحث المشكلة المحورية للأمة - مشكلة «النهضة» [illegible] طريق الأمة وهي تواجه المأزق الحضاري الذي يأخذ منها بالخناق

وفي محاولة للإسهام بهذه المهمة [illegible] مهمة [illegible] «فلسفة المشروع النهضوي للأمة»، تأتي هذه الصفحات..

* * *

لقد واجهت أمتنا العروبة الاستعمارية الغربية الحديثة [illegible] كشفت [illegible] وعمق الهوة بين تخلفنا الحضاري وبين النهضة الغربية الحديثة [illegible] واجهتها بالدعوة إلى «التغيير» طلب «النهوض» [illegible] وكانت كلمات العالم المجدد الشيخ حسن العطار

[١١٨٠ ـ ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ ـ ١٨٣٥م]. «في بلادنا لابد أن نتعبر، ونتحدث بهذا
لعموم والمعارف ما ليس فيها» ... بدأ يطرح مشكلة «التعصب» و«التحديث
والنهضة» ـ في إلحاح على عقل عربي ومسلم، قبل قرنين من الآن.

لكن هذه الحروة لاستعادة عربية حديثة، قد تأخرت عن سابقتها المؤسسة
الموسعة [٨٩ هـ ٦٩ ـ ٩٦ هـ ٧٠٨ ـ ٧١٤م] مقاصد جديدة. فهي لم
تقصد تحصيل الأصل، «تهيب بروة، وإنما أرادت تأسيس حلال عقلي
يعرب لفكر، كي تكون نهضة لتفكير عربي، حتى لا يكون حلال
جيوش الاحتلال!» ولذلك، جاءت هذه المحروة مع الدفع والمساهمة
وشركات الاستغلال والنهب الاقتصادي ـ بمكاتب التعليم والتبشير
ومؤسسات التعليم والثقافة والإعلام التي تعمد لصناعة العقل وتوجهه في البلاد.
فصياغة النموذج العربي هو أولا وقبل كل شيء، كان مركز الخطاب
النموذجي الفائد والوحيد!

ولهذه «الثورة» التي طرأت على الساحة الفكرية في بلادنا، ثم تعد المرجعية
الإسلامية كما كانت عند السلف الصالح ـ هي المقصد الوحيد لكل دعوة
وحركة وأعلام للتحديد والنهوض والتغيير. ولما ازدوجت المنطلقات، وتعددت
المرجعيات، وصبح «النموذج العربي» بتياراته ومدارسه ومذاهبه ـ يرجع
«المرجعية الإسلامية» في شتى المنطلقات والفلسفات... أو في المقاصد والغايات
لدى التيارات الفكرية والسياسية الساعية إلى النهوض والتغيير.

وبدلا من جدة الصراع حول «قسمة المشروع الحضاري» بين دعاة التغريب وبين
أنصار الإحياء الإسلامي، نقد السلطة الاستعمارية التي تملك وسائل الحكم
والحكم الأمر وصناعة القرار في صوت التعليم الإسلامي وعرضته ... نقد هذا الحي
تغريب مشروع نهضته وتحديثه حتى لقد تتبع الأمر إلى حد "تأثيم" بعض
المحاولة.. ولتابعة ـ بأن تسير سيرة الغرب في «الحكم» و«الإدارة» و«التشريع»
وشبهه بها. [أثم» شائعة من أشهر فكتب تكفير الحضارة ـ ٣ ـ
٣٩٣ هـ ٨٨٩ ـ ١٩١٣م، يقول: «لقد ترسما أمام أوروبا أن تذهب مذهبها في
الحكم، وتسير سيرتها في الإدارة، وتسلك طريقها في التشريع لترقى كما رقيت أمم

أوروبا وهل كان إمضاء معاهدة لاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا الترامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم لحصر مأل سير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع؟ فلو أننا همنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيي النظم المتفقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولوجدنا أمامنا عقبًا لا تُحس ولا تدس، عقبا تقيمها نحن وعقبا تقيمها أوروبا؛ لأنها اعتمدناها على أن نساير بها ولجاريها في طريق الحضارة الحديثة»[٣٩]!

لقد تعمد الإنجليز والفرنسيون على اختيار النموذج الغربي المتحديث، سبيلاً متقدماً في بلادنا، من مؤسسات المشروع الاستعماري الغربي ومن سحب الثقافة الغربية والسيطرة التي صنعها الاستعمار في البلاد على غيره، وصنع عقولها ووجداناتها وتوجهاتها وفق تصورات مرجعيته الفكرية الغربية الليبرالية والشيوعية والرأسمالية والاشتراكية، ووضعيتها، ووحدتها، ومثاليتها... إلخ... إلخ... عند تلك الأصول ومذاهبها الغربية التي تعد صنعة من صنع الفكر الإنساني الغربي، التي تفتقد عند اختلاف الروح والممكنة النفسية، وذلك حتى تكون «العدالة» و«الديمقراطية» و«التعمير» تحت مظلة «العلمانية» التي تعزل السماء والشريعة والدين عن هذه المدين؟

لكن قد تحكم النموذج الغربي المتبنى «المرجعية» في البلاد، ثم يستطيع إخلاء «النموذج الإسلامي» من هذه البلاد بل عند استقرار هذا الحكم دعوت الإسلام الإحياء والتجديد الإسلامي الاجتهاد والإبداع في صورة المنظومة الإسلامية المشروع النهضة، وصناعة المعالم والمؤسسات المتحددة والمميزة للخصوصية الإسلامية في هذا المشروع

● فمن رفاعة الطهطاوي [١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] الذي نقض «الوضعية الغربية» مقررًا «أن تحسين النوامس الوضعية لا يُعتد به إلا إذا قرره الشارع ويسعى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة» والذي رفض القوانين الوضعية الغربية، ودعا إلى تحكيم فقه المعاملات الإسلامي «لأن بحر الشريعة الغراء لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري»[٤٠]

● إلى جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) الذي دعا إلى اتخاذ الإسلام مرجعية لمشروع النهضة، لأن «الدين قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها، وهو النظام المدني الحقيقي، والسبب المفرد لسعادة الإنسان، يرفع أعلام المدنية لبطلانها، بل يفيض على المتمدين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين».

والذي حذر من تقليد نموذج «التمدن الغربي»، لأن فيه «نفيا لثروة الأمة إلى غير بلادها، وإماتة لأرباب الصنائع من قومنا، وخدعًا لألف الأمة يشوه وجهها ويحط نشأتها. ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغابس وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم»[٥].

● إلى الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] الذي قطع بعشية وفشل أي مشروع للنهضة الإسلامية لا يكون الإسلام هو مرجعيته ومنطلقه، وذلك «أن سبيل الدين، لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا. وإذا كان الدين كافلاً لتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا المام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!..»[٦].

● إلى الإمام محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥م] الذي حدد تميز مشروعه النهضوي، في ضوء العلاقة بين «خصوصيته» وبين «التفاعل» مع النموذج الغربي، فقال: «إننا في أشد الحاجة إلى الصناعات الإفرنجية وما تتوقف عليه من العلوم والفنون العملية، وإلى الاعتبار بتاريخهم وأطوار حكوماتهم وجماعاتهم، ولكن يجب أن نقوم باقتباس ذلك جماعات منا يجمعون بينه وبين حفظ مقوماتنا وشخصياتنا، وأركانها: اللغة، والدين، والشريعة، والآداب.

فمن فقد شيئًا من هذه الأشياء فقد فقد جزءًا من نفسه، لا يمكن أن يستغني عنه بمثله من غيره، كما أنه لا يستغني بعقل غيره عن عقله ولا بجسم سواه عن جسمه، وإنما نستفيد من العبرة بحالهم، كيف نرقى لغتنا كما رقوا لغاتهم، وكيف ننشر ديننا كما ينشرون دينهم، وكيف نسهل طرق العمل بشريعتنا وآدابنا كما سهلوا طرق شرائعهم وآدابهم..»[٧].

● إلى الإمام حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ٦ - ١٩ - ١٩٤٩م] الذي تحدث عن إفلاس الخيار الحضاري الغربي، حتى في بلاده، وعن انفتاح الباب وانفساح الأفق أمام إسلامية مشروع النهضة، فقال: «إن مدنية الغرب، التي رهت بجمالها العلمي حينا من الدهر، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه، تفلس الآن وتندحر، وتدك أصولها وتنهدم نظمها وقواعدها. فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات، ويشهد ضدها ملايين البائسين من العاطلين والجائعين، وأصولها الاجتماعية تقضي عليها المذاهب الشاذة والثورات المندلعة في كل مكان، وقد حار القوم في علاجها وضلوا السبيل والإنسانية المعذبة في أشد الحاجة إلى عذب من سؤر الإسلام الحنيف يغسل عنها أوضار الشقاء، ويأخذ بيدها إلى السعادة.

لقد كانت قيادة الدنيا، في وقت ما، شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها النبوات الموسوية والعيسوية والمحمدية إلى الشرق مرة ثانية. ثم عفا الشرق عفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة، فكانت سنة الله التي لا تتخلف، وورث الغرب القيادة العالمية. وها هو الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط، فلم يبق إلا أن تمتد يد «شرقية» قوية تظللها لواء الله، وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوي المتين، فإذا بالدنيا مسلمة هانئة، وإذا بالعوالم هاتفة: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾[٨]. ليس ذلك من الخيال في شيء، بل هو حكم التاريخ..»[٩].

* * *

هكذا، دار وحتدم الصراع بين تيارات الفكر في وطن العربية وعالم الإسلام، على امتداد القرنين الماضيين، حول «فلسفة المشروع الحضاري» والمرجعية

والنموذج للنهضة المنشودة لإخراج الأمة من هذا المأزق الذي يسد عليها طريق التقدم والارتقاء والانعتاق

* * *

## ● الهوامش

(١) الإشارة إلى معاهدة سنة ١٩٣٦م (الإنجليزية - المصرية)

(٢) إلى معاهدة (مونترو) لإلغاء الامتيازات الأجنبية في مصر - تدريجيًا - سنة ١٩٣٨م

(٣) (مستقبل الثقافة في مصر) جـ١ ص٣٦، ٣٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م

(٤) (الأعمال الكاملة) ج٢ ص١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧، جـ١ ص٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠ دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م

(٥) (الأعمال الكاملة) ص١٣١، ١٧٢، ١٧٣، ١٩٥ - ١٩٧ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م

(٦) (الأعمال الكاملة) جـ٣ ص٢٠٨ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م

(٧) مجلة (المنار) المجلد ١٧ جـ١ ص ١

(٨) الأعراف ٤٣

(٩) (مجموعة رسائل الإمام الشهيد) [illegible] ص٥٩ [illegible] طبعة [illegible] الشهاب [illegible] بدون تاريخ

* * *

# الشيخ سعد زغلول باشا: ابن الأزهر الشريف

كثيرون هم الزعماء والقادة الذين أنجبتهم مصر، والذين فتح الشعب لهم أبواب العقول والقلوب، غير أن سعد زغلول قد تميّز وامتاز من بين هؤلاء الزعماء والقادة بأنه لم يكن زعيمًا لنحلة أو صفوة، ولا قائدًا لحزب أو طبقة، ولا فقيهًا لمذهب ومُنظِّرًا «لأيديولوجية» وإنما كان القائد المحبوب - وليس فقط المقبول - من الأمة والكافة والعامة والجمهور، على اختلاف مذاهب وطبقات وديانات الكافة والجمهور. لقد فتحت له الأمة عقولها، وأسكنته في قلوبها، واحتضنته في ضمائرها. ورأت فيه «غزال البر» فتطلعت إلى «عين الشمس»؛ كي تظلله في الغدوات والروحات!

وكما علقت عليه الأمة آمالها، فلقد منحته الحب والاحترام معًا، وكانت تخاف عليه من كل سوء، وتغار عليه من المنافسين، فضلاً عن الخصوم.

لقد تنازعت انتسابه إليها وانتسابها إليه كل الطبقات والتوجهات والديانات: المسلمون والنصارى المثقفون والعامة، المعممون والمطربشون، الطبقات «العليا» والفلاحون والعمال «الصنايعية» حتى لقد افتخر هو بانتمائه إلى «الرعاع» فقال وهو يخطب في العمال: «إنني أفرح كثيرًا، وأُسر كثيرًا، كلما شعرت أن هذه الحركة - [الثورة والنهضة] - ليست فيما يسمونه بالطبقة العالية فقط، بل هي منبثة أيضًا وعلى الأخص في الطبقة التي سماها حسادنا «طبقة الرعاع» وأفتخر بأني من الرعاع مثلكم!» فانخرط العمال في هتاف متكرر: «ليحيى سعد زعيم الرعاع»[1]!

ولعل سعدًا كان الزعيم الوحيد بين زعماء مصر الحديثة، الذي تعلقت به الجماهير التي لا علاقة لها بالسياسة أو الحزبية، فتحالفت العواطف مع الوعي

على جعل الفطرة الشعبية تتعلق به وكأنه أسطورة من الأساطير في حياة هذه الجماهير.

لقد ولدتُ بالريف - بعد وفاة سعد زغلول بأربع سنوات، ولقد وعت بذاكرتي مكانة سعد زغلول كبطل أسطوري تُحكى حوله الكرامات وخوارق العادات، في مناخ تطغى عليه الأمية، ولا يوجد فيه تنظيم لحزب الوفد، بل لا يوجد فيه سوى فطرة الناس البسطاء. فتحيى أصوات الحيوانات تهتف «بحياة سعد»!! وتحيى أوراق المزروعات تنبت وتتفتح ومكتوب عليها «يحيا سعد»!! وذلك فضلاً عن الأغاني الشعبية التي تعبر - بالحب لسعد زغلول - عن مكانته المتفردة في قلوب الكافة من الناس.

ولعل هذه الحقيقة، من الحقائق تميز وتمتاز زعامة سعد زغلول، أن تجد من الدارسين الدراسات التي تكشف عن أسبابها وأسرارها.

فهو لم يكن الفلاح الوحيد الذي يقود الأمة، ولم يكن الأزهري الوحيد الذي تتعلق به آمال الكافة، ولم يكن السياسي الوحيد الذي يتصدى للاحتلال والاستعمار، وإنما كان المتفرد بين هذه الزعامات بالمكانة التي خصته بها الأمة من بين مواكب الزعماء والقادة الذين أنجبتهم مصر الولود.

أما هذه الصفحات المحدودة، فإن مقاصدها المحددة هي الكشف عن الأثر الإسلامي للتعليم الأزهري على هذا الزعيم الشيخ سعد زغلول باشا، ابن الأزهر الشريف.

* * *

لقد ولد سعد زغلول [١٢٧٣ - ١٣٤٦هـ ١٨٥٧ - ١٩٢٧م] في قرية «إبيانه» مركز «فُوَّة»، محافظة «الغربية» «كفر الشيخ» حاليا - إبان حكم الخديوي سعيد [١٢٣٧ - ١٢٧٩هـ ١٨٢٢ - ١٨٦٣م] لمصر، وكانت مصر - يومئذ - ولاية لها استقلالها الذاتي في إطار الإمبراطورية العثمانية.

وكان والده - إبراهيم زغلول - عمدة القرية، فوهبه للعلم الديني، والدراسة بالأزهر الشريف.

● فأدخل سعد كُتّاب القرية، وهو في السابعة من عمره، وقضى به خمس سنوات، حفظ فيها القرآن الكريم.

● وفي سنة ١٢٨٧هـ سنة ١٨٧٠م عيّن أخوه الأكبر «الشناوي أفندي» رئيساً لمجلس مركز «دسوق» المجاور لمركز «فُوّة» فاصطحب الشناوي أفندي معه أخاه سعداً، وألحقه «بالجامع الدسوقي» - التابع للأزهر الشريف - فبدأ فيه تجويد القرآن الكريم.

وأذكرُ أننا ونحن طلاب «بمعهد دسوق الديني الابتدائي»، نيرّ سنة ١٣٠٤هـ سنة ١٩٤٥م وسنة ١٣٦٨هـ سنة ١٩٤٩م، أننا كنا نمر على منزل ظهرت عليه آثار القدم، فقالوا لنا إنه المنزل الذي كان يسكن فيه سعد زغلول، عندما بدأ رحلته الدراسية في الأزهر الشريف - بمدينة «دسوق».

● وفي سنة ١٢٩٠هـ سنة ١٨٧٣م انتقل سعد زغلول من الدراسة «بالجامع الدسوقي» إلى الدراسة بالجامع الأزهر، بالقاهرة وبدأ تلقي دروس الفقه - على مذهب الإمام الشافعي - في «زاوية العدوي» بالقرب من الجامع الأزهر، ثم انتقل إلى الدراسة في ذات الجامع الأزهر.

وكان الطالب، في ذلك التاريخ، هو الذي يختار شيخه والحلقة التي يتلقى فيها دروسه، ويختار أيضاً العلوم والكتب التي يريد مواصلة دراستها والتخصص فيها.

● وفي ذلك التاريخ، كان جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] قد استقر به المقام في مصر، وانتظمت دروس علمه وتجديده وثوريته في منزله - قريباً من الجامع الأزهر. وكان الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] الطالب الأزهري، الذي يكبر سعد زغلول بعشر سنوات، قد أصبح أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغاني، حتى كان - قبل تخرجه من الأزهر - يعقد حلقة درس - بالجامع الأزهر - يعيد فيها على الطلاب ما سمعه من أستاذه الأفغاني، من علوم وفنون كانت غريبة عن المناهج الأزهرية في ذلك الحين.. فستلمذ عليه في هذه الحلقة - الطالب سعد زغلول - وقادته هذه التلمذة إلى دروس موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني.

وكما كان محمد عبده أنجب تلاميذ الأفغاني، وأقربهم إلى قلبه، أصبح سعد زغلول أنجب تلاميذ محمد عبده، بل لقد صار محمد عبده بالنسبة له أبا وشيخا ورائدا ومربيا.

● وعلى يدي جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده أصبح «الشيخ سعد زغلول» طالب الأزهر واحدا من دعاة الإصلاح، وواحدا من الذين تعلموا فن الكتابة وصناعة الإنشاء وتحرير المقالات. وبتشجيع من الأفغاني نشرت له صحيفة (التجارة) التي كانت إحدى الصحف التي أصدرها الأفغاني «بالإسكندرية» ورأس تحريرها «أديب إسحاق» (١٢٧٢ - ١٣٠٢هـ ١٨٥٦ - ١٨٨٥م) «وسليم نقاش» (١٣٠١هـ ١٨٨٤م) نشرت للشيخ سعد مقالا عن «الحرية»، علق عليه أستاذه الأفغاني فقال: «إنه مما يدل على أن الحرية ناشئة في مصر أن يحيد الكتابة عنها هذا الناشئ» - سعد زغلول - فكانت الحرية هي الباب الذي ولج منه الشيخ سعد إلى عالم الإصلاح والإبداع!

● ولأن هذا الحزب الإصلاحي، كان يعوّل - في الدعوة الإصلاحية - على تجديد مناهج المؤسسة العلمية الأم - الأزهر الشريف - كطريق لإصلاح وتجديد دنيا المسلمين. كتب الطالب الشيخ سعد زغلول «منشورا» يدعو فيه إلى إصلاح الأزهر الشريف، ونسخ منه سبع نسخ، وعلّقها - ليلا - على أعمدة جامع الأزهر؛ ليقرأها الطلاب في الصباح!

● ومع التحرير في الصحف والانخراط في الدعوة إلى الإصلاح التعليمي والفكري والوطني، توجه الطالب الشيخ سعد زغلول إلى حقل التأليف، فكانت باكورة تأليفه كتابا في [فقه الشافعية] ولقد طبع هذا الكتاب، ونفدت طبعته الأولى.. «وكان الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ ١٨٨١ - ١٩٤٥م) يحتفظ في مكتبته بنسخة منه، وذات يوم كان لطفي السيد باشا (١٢٨٨ - ١٣٨٢هـ ١٨٧٠ - ١٩٦٣م) يزور الشيخ المراغي بداره في «حلوان» وجرى الحديث بينهما في العلم والفلسفة والزعماء. فقال لطفي السيد:

- إن بين الزعماء السياسيين نوابغ لو تفرغوا بعض الوقت للتأليف والإنتاج لأفادوا فائدة عظيمة

وهنا ابتسم الشيخ المراغي، وقال له

ـ هل تعلم أن المرحوم سعد زغلول باشا ألّف كتابًا في الفقه؟

فشغف لطفي السيد للاطّلاع على هذا الكتاب، فقام الشيخ المراغي إلى مكتبته، وأحضر الكتاب، فتناوله لطفي السيد في نهم، وقلّب صفحاته، وهو يقول

ـ عجيبة!..

وأزاح لطفي السيد غلاف الكتاب وقرأ اسمه، وقد كتب ناشر الكتاب تحت عنوانه ما يلي: «ألّفه الفقير إلى الله تعالى الشيخ سعد زغلول، الشافعي المذهب، من طلاب الأزهر الشريف»[2].

● وبينما كان الشيخ سعد زغلول في عام التخرج من الأزهر الشريف، وقبل أداء امتحان العالمية، تولى شيخه محمد عبده رئاسة تحرير صحيفة «الوقائع المصرية»، فترك الشيخ سعد الأزهر، وأصبح محررًا في «الوقائع» منذ ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٠م وفيها تجلت مواهبه في الكتابة والتحرير. ولقد استمر فيها شيخًا معممًا إلى ٣ مايو سنة ١٨٨٢م، حين عُيِّن أيام وزارة محمود سامي البارودي باشا (١٢٥٥ ـ ١٣٢٢ هـ ١٨٣٩ ـ ١٩٠٤م) ـ «معاونًا» لنظارة الداخلية، فأصبح الشيخ سعد «سعد أفندي» منذ ذلك التاريخ. وإن ظل في نظر ولعة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده «الشيخ سعد» دائمًا وأبدًا.

● وفي ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٢م بإبان المقاومة الوطنية للغزو الإنجليزي لمصر ـ انتقل سعد زغلول إلى وظيفة «باشمعاون»، وتولى نظارة قلم القضايا بمديرية الجيزة.

● وظل الموقع الأول، والوظيفة الأساسية «للشيخ سعد زغلول» هي وظيفة المريد والتلميذ لوالده وشيخه ومربيه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وانخرط معه في الثورة العرابية، والمقاومة للغزو الإنجليزي، ونادى «بالجهاد الديني» ضد الإنجليز.. ولعب دورًا في نقل الرسائل بين محمد عبده وقيادة الثورة ـ بالقاهرة ـ وبين زعيم الثورة وقائد الجهادية أحمد عرابي باشا (١٢٥٧ ـ ١٣٢٩ هـ ١٨٤١ ـ ١٩١١م) في جبهة القتال..

● وبعد هزيمة الثورة العرابية في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م [illegible] سعد زغلول ما زال الثوار [illegible] فصل من وظيفته في ٢ أكتوبر سنة ١٨٨٢م.. وصدر بحقه قرار «الحرمان المدني» فالتجأ إلى العمل الحر، واشتغل بالمحاماة، وفتح «مكتب للدعاوى» ثم قُبض عليه في ٢ يونية سنة ١٨٨٣م بتهمة عضويته لجمعية سرية معادية ومقاومة للاحتلال الإنجليزي - سميت «الجمعية الانتقامية» وقضى في السجن ثلاثة أشهر، حتى برأته المحكمة، لعدم ثبوت أدلة الاتهام. وبعد أن خرجت هذه البراءة سعد للاحتلال، فعبّر عن قرارها بنفسه في [illegible] كما عبّر أستاذه وشيخه محمد عبده من البلاد.

● وعندما قبض الإنجليز على سعد زغلول الأفغاني، في منفاه بالهند عقب هزيمة الثورة العرابية، غادر الهند إلى أوروبا وكتب أثناء عبوره «قناة السويس» - من ضمن قيود سعد - أول «قيود سعد» كتب بخط يد محمد عبده في مقهاه ببيروت - بتاريخ ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٣م ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٠٠ هـ طالبًا منه اللحاق به في باريس. وفي هذه الرسالة أثنى الأفغاني على سعد زغلول، فقال: «وأثنى على الشابين الأديبين السيد إبراهيم اللقاني والشيخ سعد الزغلول»[٣].

● وتوطدت بعد ذلك وجود محمد عبده بباريس، كانت الصلات والمراسلات قائمة ودائمة بينه وبين الشيخ سعد زغلول. وتشهد هذه المراسلات على مكانة سعد من الأستاذ الإمام، وهي مكانة الأب والتلميذ والمريد والسعد الأيمن والمؤتمن على الأسرار، الذي يعهد إليه محمد عبده بالخاص والعام من المهام والشئون.

وقد تناثرت عدة من رسائل محمد عبده التي كتبها الشيخ سعد في أثناء وجوده ببيروت - والتي تكشف عن مستوى هذه العلاقة. فهذه ثلاث رسائل بعث بها الشيخ سعد واحدة منها، فخاطبه شيخه محمد عبده بعبارة «المولى الأفضل، والوالد الأكمل» ونصح نفسه فيها بأن «خرّج حكم الأستاذ الإمام، وتمشّ في عمله وصنع آدابه، وتحفّظ بعاداته، وتشمّم نعل عتبته»، ولقد كتب رسالته الأولى جوابًا على أول رسالة كتبها محمد عبده من منفاه في بيروت. يقول:

«من مصر ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠[٤] بيروت

مولاي الأفضل، ووالدي الأكمل، أحسن الله معاده.

بعد تقبيل الأيدي الكريمة قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا إليه، فتلوناه ووعيناه في الفؤاد، وحمدنا الله تعالى على أن شرفتم تلك الديار سالمين، مبالغًا في إكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين، وأماجد نبهائها المؤمنين، جزاهم الله عن كل مصري يعرف مقداركم خير الجزاء.

ولهم منا معشر أتباعكم ومريديكم بما تقبلوك به من كريم الاحتفال، وعظيم الإجلال، ألسنة مرطبة بالثناء عليهم، وضمائر مطوية على مزيد احترامهم وفائق تعظيمهم.

صحتي البدنية معتدلة، أما فكري فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعاد، وتمثلت فيه بعد تلك الحقائق التي كنت تحلو مطالعها معان، تعرفها أوهامًا يضيق بها الصدر ولا ينطلق بردها اللسان، مخافة فوات مرغوب أو لحاق مكروه مما تعلمون.

توجهت إلى البيك صاحب تاريخ العرب، وسألته إعارته فأجاب بأن «محمود سامي» أخذه منه وسافر ولم يرده إليه، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام، ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم في أي شيء تريدون حسيًا كان أو معنويًا، وسأتحرى هذا الكتاب في كتب سامي عند بيعها فإذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته في الحال إلى حضرتكم أو أحضرته معي إن وافق ذلك استجماعي لوسائل السفر.

الحال العمومية على ما تركتها، غير أن الناس أخذوا في نسيان ما فات من الحوادث وأهوالها، وقلّت قالتهم فيها، وخفت شماتة الشامتين منهم، وأصبح المادحون بالإنكليز من القادحين فيهم، وبالعكس والكثير يتوقع انقلابًا أصليًا، والله أعلم بما يكون.

رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم في الكتاب تصريحًا وتلويحًا فتقبلوها بمزيد المسرة والانشراح. يسلّم على جنابكم الصادق في صداقته ومودته حسين أفندي وهو في غاية من الصحة والعافية وقد عاد من الريف فرارًا من شروره، أسفًا على

ما وقع لجنابكم أكثر من أسفه على نفسه. الشيخ محمد خليل والشيخ عامر إسماعيل والشيخ حمادة الحولي والسيد عثمان شعيب والشيخ حسن الطويل ووالدي عبد الله وأخواي شناوي وفتح الله[٧] وكثير غيرهم يقبلون يديكم، ويسلمون عليكم، ويقدمون مزيد تشكرهم لحضرات أولئك الكرام الأماجد الذين أحسنوا وفادتكم وأكرموا مثواكم، زادهم الله كرما وكمالا.

مولاي: ذكرت لحضرتك أن الضعف ألمّ بفكري فبالله إلا ما قوّيته بتواصل المراسلة، غير تارك فيها ما عودتنا على سماعه من النصائح والحكم التي نهتدي بها إلى سواء السبيل، ونتمكن بها من السير في العالم المصري الذي اختبرت حقائقه وعرفت خلائقه، وما يناسبها من ضروب المعاملة. وفقنا الله لمتابعتك، ولا أطال على بلادك مدة غيبتك، إنك إمامها وإن اقتدت بغيرك، ومحبها الصادق وإن لم تعرف بقدرك. والسلام

ولدكم سعد زغلول»

● أما الرسالة الثانية - وهي جوابية على رسالة من الأستاذ الإمام إلى الشيخ سعد - فتاريخها ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠[٨] - ونصها:

«مولاي الأفضل، ووالدي الأكمل، أحسن الله مآبه

أكتب إلى السيد الأستاذ بعد تقبيل يده الشريفة عن شكر مزيد مكارمه التي لم يمنع من تواترها على صنائعه تباعد الديار، ولا تنائي البلدان، معترفاً بالعجز عن وفاء واجب الحمد، مع الاعتقاد بأن هذا لا يثنيه عن مكرمات يوليها، ومبرات يسديها، فما يفعل الخير التماس الثناء، ولا يصدر البر ابتغاء الجزاء، إنما يحسن محبة في الإحسان، ويبر شفقة بالإنسان.

تفضّل أدام الله فضله على جريح حكَمه، الناشئ في نعمه، بكتاب هو المحكم آياته، المعجز دلالته، الشافي لما في الصدور، الكاشف لحقائق الأمور، الهادي إلى سبيل الرشد وإلى صراط مستقيم، فسر لمرآه سرور العليل بالشفاء وفاه، وبلاه متدبراً دقيق معناه، مكرراً رقيق مبناه، فازداد إيماناً بفضل مولاه، وبقينا بحكمة من أوحاه، وشكر الله على صحة من أهداه، دامت نامية وارفة الظلال

وتكرم أبقى الله كرمه ببيان بعض أسماء الكملة الكرام الذين دارسوه فضولاً من المروءة، وأبواباً من النجدة، وما لهم من كمال الفضل، وما فيهم من تمام العقل، فرسمنا أسماءهم على صفحات القلوب، وحفظنا أمثلة فضائلهم في الصدور، وتشوقنا لأن تتشرف أبصارنا برؤياهم، كما تحلت بصائرنا بمعرفة أعلامهم ومزاياهم، وما يحتاج في إقناع النفوس بضعف تلك الحجة وإن كانت تمكنت في الأذهان، إلى قوة البيان، فمعرفتهم بمقام فضله، ومقدار حكمته ونبله، كافية بذاتها في الدلالة على نزاهة نفوسهم، وطهارة قلوبهم، وغزارة فضلهم، وسمو عقولهم، ورجاحة هممهم، وسجاحة شيمهم، وفي توجيه ما ثبت من الفساد في أخلاق غيرهم، إلى أسباب أخرى نود أن يبينها الأستاذ الجليل في كتاب مخصوص إذا وجد من الوقت مساعداً، إنما نحتاج إلى قوة البيان في هذا الموضوع لنبين كيف يكون تدارس المروءة بين الأفاضل، وتداول النجدة بين الكرام الأماثل، فما رأيناك من قبل لدينا إلا فاضلاً كريماً يدرس الفضائل بين من لا يعرفون للفضل مقداراً، ولا يفقهون للكرامة اعتباراً.

ولقد زادني ميلاً في السفر، وبعضاً في الحضر، ما جاء في وصف أولئك الأماجد ذوي النفوس الزكية، والمحامد العلية، وما تلاه من بيان حقيقة عوارى الأمم، ساقطي الهمم، سافلي القيم، جاهلي مقادير النعم، غير أني عدلت عن داعية هذا الميل امتثالاً للأمر، وفي النفس حسرات لا يقاومها صبر، ولها إلى السفر أشواق لا يتناولها حصر.

وأحسن جلّد الله إحسانه على صنيع آدابه، التئم في أترابه، بحكم من مثل أنني تعوّدها غذاء للعقل، ونوراً للفكر، فتلقاها بقلب شاكر، وأقبلها بفؤاد حامد، وحفظها في الوجدان، راجياً من الله التوفيق إلى الأخذ بمعانيها، والهداية إلى اتباع ما فيها، آملاً من مكارم موليها، دوام تواليها

أسفت بل خجلت مما بلغ مقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل ثابتاً صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين، ولولا التحقق من سعة بال الأستاذ الكريم، ومن وثوقه بي فيما أرويه لكان الأسف مضاعفاً

إني كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ، وما سمعت منه ما يقصد به من

مقامكم الكريم، ولم يتكلم أحد في يوم أن سمعه خبر الاعتراف بالسيد المعروف إلا سمعه الأسف والإشفاق من عاقبة هذا الاعتراف، فلعل ما سمع السامع بشريعة من هذا القبيل، والسامعون بشدة حرقتهم ونوع الأسف من فؤادهم سمعه، تصرف خاطرهم عن رعاية مقام المقول فتوجه ذهنهم إلى مفهوم الكلام الحقيقي، وصقوا المقام على ما فهموه، ولهم العذر، فهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا في مجلس حضرتكم ولو مراد به غير حقيقة معناه، ولم تألفوا تأويل العبارات وصرفها عن ظواهرها، ولم يعرفوا عادة ذلك الشيخ في كيفية تأدية مراده، والعبارة في حد ذاتها يصعب تأويلها بغير المتبادر للأفهام منها كل الصعوبة على من لم تكن أزهريا معودًا من الشيخ سماع أقطع منها مفهومًا وأشنع تركيبًا

وكيف يتأتى له إرادة الظاهر مع علمه بكون ذلك لا يصدر إلا عن لؤم طبيعة وخراب ذمة وسفاهة عقل؟ أنسى ما أوليته من كرائم النعم وجلائل الأمم التي لا يزال مسمعًا بها متتبعًا طلائعها، وأنت المؤرق أسفًا، المحترق حزنًا، المشفق عليه يوم وجدت اسمه مكتوبًا في تقرير اتهام، حتى شغلك همه عن همك، وسعيت وأنت مسجون في تنجيته من التهمة بواسطة المحامين

ما نسي كل هذا وما قدم العهد عليه حتى ينقض ولاءك، ويكدر صفاءك، ويمس مقامك في بيت آواه، ومنزل طالما رتع في بحبوحة نعماه

فهذه العبارة إن صح النقل لا يمكن أن يكون مراد بها شيء وراء علل الأسف والإشفاق، أما كونه لم يرسل حضرة مولاي ترى أنه من الأدلة المصدقة على كون ذلك الشيخ الفاضل صادقًا في ولائه، حريصًا على دوام تذكر أوليائه، إذ لم يدعه إلى ذلك إلا تمام رغبته في المحافظة على النعمة التي عرستم أصولها، وأعظم فروعها؛ ليكون على الدوام متذكرًا لحقيقة منشئها، مصورًا صورة مشئها

أما كتاب الشيخ محمد حسن فقد علمت ما في إرسال صورته من حسن التعليل وكمال التلطف في تأديته، على ما جرت به عادتكم الشريفة وقد طالعت هذه الصورة فرأيت أنها من أقوى الأدلة على شدة ميل صاحب الأصل إلى تصدق، ورغبته عن التمويه، حيث أوضح حاله صادرًا في الإيضاح عن الحق برهانًا على شدة إخلاصه بإثبات العبارة التي بينها بين يدي حضرتكم في الدائرة

فإن إثباتها لا يصدر إلا عن تمام إخلاص لا يشوبه تمويه، ومن هنا يتبين لحضرتكم سلامة نيته، وحسن طويته

أما عنوان الجواب فما أداه إلى نسخه على ذلك الأسلوب إلا اعتماده على معرفتكم بكونه من الصادقين المعظمين لجنابكم الكريم وعلى كل حال فنحن لا نستغني عن كريم عفوك، وجميل صفحك، فإن لم تعف عنا وتصفح كنا من الخاسرين.

إن ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب، ويحق لحضرتكم السرور بما نال ولدكم [illegible]، فهو المتربي في نعمتكم، المعترف من بحار حكمتكم، المحفوف بعنايتكم، المشمول بعين رعايتكم، البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجهاتكم، وكريم تعطفاتكم، أدام الله لكل خير مبدأ

رفعت تحيتكم إلى حضرات من ذكرتم أسماءهم وأشرتم إليهم فتقبلوها بالاحترام، وهم جميعًا يقبلون يديكم، ويسلمون عليكم، وأخص بالذكر منهم منبع الصفا، ومصدر الوفا، الذاكر لفضائلكم في كل حين، والدي حسين أفندي وحضرة ولدكم الصادق في متابعتكم الشيخ عامر إسماعيل الذي امتن غاية الامتنان بما اختصصتموه به في كتابكم الشريف، وحضرة الشيخ سليمان العبد، والسيد أمين أفندي ونحن جميعًا نرفع أحسن التحيات وأزكاها لحضرات الكرام الذين تشرفنا بمعرفة أسمائهم من الذين دارسوكم فصول الكرامات، ونقدم لهم واجبات الاحترام، أدامهم الله مثالاً للفضل وعنوانًا للكمال ونسلم على حضرات أخينا الفاضل إبراهيم أفندي اللقاني وإبراهيم أفندي جاد ونجلكم الكريم وجميع من بمعيتكم حفظهم الله.

أحوالنا العمومية أنتم أعلم بها منا فلا حاجة إلى بيانها نرجو تفصيل أحوالكم وما تشتغلون به من قراءة وتأليف إذا حسن لديكم ذلك

كُتب سامي لم تُشْهَر إلى الآن في المراد ولا زلت مراقبًا لإشهاره

حضرة البك صاحب الكتاب توجه قبل ورود كتابكم إلى البلد ولم يحضر إلى الآن وعند العلم بحضوره أتوجه إليه وأرفع لحضرته مزيد تشكراتكم، دامت

معاليكم أقدم ٨ ج سنة ١٣٠٠ صنيعكم ـ سعد زغلول

أرجو عدم انقطاع المراسلات، وأتمنى أن لا أحرم كل أسبوع من كتاب تطميناً للخاطر وترويحاً للفؤاد ولمولاي في إجابة هذا الرجاء النظر العالي (سعد)»

● أما هذه الرسالة الثالثة ـ والتي أجاب بها سعد زغلول على رسائل للأستاذ الإمام، أرسلها في شهر واحد، وفي أسبوعين متواليين ـ فإنها ذات دلالة خاصة في موضوعنا تأثير الدراسة الأزهرية الشرعية على الشيخ سعد زغلول ـ فعلاوة على شهادة هذه الرسالة على قيام سعد زغلول بواجبات الابن البار من والده ـ من مثل إرسال «الفرش» واللوازم المنزلية من القاهرة إلى بيروت ـ عبر ميناء الإسكندرية ـ وحديثها عن اشتغاله بالمحاماة، وتحسن حالته المالية ـ فإن فيها سطوراً كثيرة يتحدث فيها سعد زغلول عن عقائد إسلامية يدور حولها الجدل في علم الكلام، وتصدر حولها الكتب، ويناقشها أهل السنة والجماعة ـ من مثل عقيدة «خلق القدرة» ولعلها عقيدة المعتزلة في خلق الإنسان لقدرته واستطاعته وأفعاله الاختيارية ـ وسعد زغلول يحكي ـ في هذه الرسالة ـ ما دار بمصر يومئذ من جدل حول هذه العقيدة، ويطلب من أستاذه محمد عبده أن يكتب في هذا الموضوع شرحاً كالذي سبق وكتبه على «شرح الدواني للعقائد العضدية»

وفي هذه الرسالة يتكلم سعد زغلول بأسلوب البلغاء من الفلاسفة والمتكلمين.. كما أن فيها حديثاً عن مقالات نشرها جمال الدين الأفغاني عن حال مصر والأمة وواجبات المرحلة المواجهة هذا الذي حدث لمصر بعد الاحتلال، وفي الرسالة إشارة إلى تفرغ محمد عبده ـ في منفاه ـ لمناجزة الأعداء.. ودعاء حزبه له بالفوز والنصر عليهم ونص هذه الرسالة هو

«حضرة الأستاذ الفاضل والمولى الكامل.

وبعد تقبيل اليد الكريمة، فقد ورد علينا كتابكم المؤرخ ١١ ج والمؤرخ ١٨ ج ، وسررت غاية السرور بما أحسنتم علينا به من إهداء الصورة التي حفظناها في العيون وجعلنا بروازها من القوة الحافظة لتكون على الدوام نصب الخاطر، ولا بدع فهي مثال الكمال، ومرآة الجلال، وزامور الوقار، وعنوان الاعتبار

ذكرت أنك تفرغت لمناجزة الأعداء، فدعونا الله تعالى لجنابك بالفوز العظيم،

والنصر المبين وسألنا منه عناية تلزم أعمالك، ورعاية ترافق آمالك.

اطّلعنا على مقالة السيد[6] في جريدة النصير[7]، فعلمنا أنها لم تصدر إلا عنه[7]، وقد كان لها الوقع الجميل في نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم. وقد رأينا له مقالة أخرى هذه المرة في تلك الجريدة عنوانها (مضار الشقاق ومنافع الوفاق) نسجها على منواله المعهود، وبين فيها أسباب سقوط الأمم وموجبات ارتفاعها، ووعد في آخرها بنشر رسالة تتضمن إيضاح ما يوجب رفعة الأمة بعد سقوطها، ومن الغريب أن آراءه فيما يختص ببلادنا تصادف منازل الاستحسان عند أولياء الإنكليز الأقدمين، ويصوبونها في كل محفل حضروه، مع كونها سهاماً مفوّقة إليهم، ولكنهم لا يعقلون.

[خلق القدرة] مرت أيام على القائلين به رأوا فيها من الأحوال ما زلزل اعتقادهم، وألحق بوجوههم غبرة ترهقها قترة، وأولى عقولهم سباتاً تليه حيرة، وصيرهم يوالون من كانوا عنهم يولّون، خصوصاً في الأوقات التي قدم فيها من كانا غائبين، ففيها كثرت قالة الناس في هذه العقيدة، وسقطت درجة اعتبارها عند من كانوا يعظمون شأنها ويتباهون بكونهم في متابعتها من المخلصين، بل جاهر الكثير منهم بتسوئتها وتزييفها، ولو كانت هذه العقيدة ذات عقل أو إحساس لما رضيت بالإقامة في مركزها من قلوب بعض معزلاً[8] الذين لا يقدرونها حق قدرها، ولكنها تقوّت من بضعة أيام وتهافت الناس على أبواب كنهها، ولا يصل إلى إدراكها إلا القليل، وربما أُلهم الوصول إليها وإدراكها من بين (النظار) إليها المتشوفين إلى التيمن باعتقادها من لا يحسب له الناظر حساباً، وزادها مهانةً وقبولاً عند الأفهام اطلاعهم على كتاب من الكتب المؤلفة حديثاً في عقائد أهل السنة والجماعة يسمى النظام، فإن ظواهر عباراته وأنبيائه[9] وإطلاقه وتقييداته كشفت للعقول أن لهذه العقيدة نفوذاً مبسوطاً في مملكة الحق، وأن مكانها من الثبوت رفيعاً.

وأظن حضرتكم اطلعت أو تطلع على هذا الكتاب، ولا تتأخرون عن تعليق شرح عليه يكشف نقاب معانيه، ويحل رموز مبانيه، فلحضرتكم شغف شديد بشرح كتب التوحيد وتوضيح مبهماتها، ونود أن يكون على أسلوب الحاشية التي

علقتموها على العقائد العصدية في ( نجاد أقرب الطرق) إلى حل الرموز وتوضيح المقصود.

أطن الفرش وصل حضرتكم، فقد وردت إفادة إرساله منذ أسبوع

طلبتم أن نوضح لحضرتكم كل ما يتعلق على ما تطلبونه من المصاريف ليكون لكم الحرية التامة في الطلب، وإني مع شرح خاطري من هذا التعليل أقول إن الكسب لم يتعلق عليها إلا أربعة وعشرون قرشاً، والفرش لا أعرف ما أتعلق عليه، فإن الشيخ أحمد الليثي عائد، وهو الذي تولى إرساله من محطة مصر إلى إسكندرية، والذي أرسله منها إلى بيروت هو قريب حضرة الوالد حسين أفندي وفي هذه المتعلقات ما له أرجو من مكارم حضرتكم أن تعاونونا من هذا البيان، وكل ما ترغبون إرساله مرون به ونحن نقوم بإرساله، ومتعلقاته نقيدها في دفتر مخصوص، وفي أي وقت نحاسبكم على مقتضاه، والحمد لله عندنا فلوس كثيرة لا نحتاج إلى أن ترسلوا لنا شيئاً منها الآن، فقد شرعنا نتوكل في بعض القضايا ولا يخفى على حضرتكم، وذلك بمعونة ومشاركة مع الصفا، وعلى الله نجاح المأمول

تكلم حضرة الوالد مع الصفا مع قربه في شأن إرسال مصطفى بالطريقة التي أشرتم إليها فوعد بأنه عند توجهه إلى إسكندرية يتكلم مع الحاج سعد الله خلاله في ذلك ويفيد حضرة حسن أفندي، وقد توجه من يومين وينتظر حضوره غداً أو بعد غد، وهنالك ننظر ما يكون

ضمن هذا مكتوب من حضرة الشيخ محمد المزين

يسلم على حضرتكم جميع من تعرفون أسماءهم في رسائلنا، وحضرة محمد أفندي الألفي والشيخ العيدروس شاه سندر نحر الرقازيق وحضرة مع الصفا والشيخ حسن أخوه والسيد أمين وثابت أفندي وفتحي أفندي

ونحن نسلم على حضرة عارف أفندي [٣]، وقد سرنا كل السرور بزاحته من علته، زاده الله صحة فوق صحته وبارك في عافيته وعلى حضرة إبراهيم أفندي علي، وما نختار إلا ما تختاره لنا، وعلى حضرة إبراهيم أفندي جاد، وعلى حضرة

(أستاذنا) محمد أفندي الصدر، وحضرة حسن أفندي يسلم على جميعهم، أمتع الله عيون البلاد بعودتكم جميعًا إليها والسلام.

٢٧ ج (٢) كاتبه ولدكم

سعد زغلول

* * *

تلك هي الرسالة الثالثة، التي تحدث فيها سعد زغلول حديث الباحث في علم الكلام، المنقب عن آراء العلماء (النظار) في مذاهب المتكلمين من أهل السنة والجماعة، والطالب من أستاذه الفاضل ووالده الكامل شرح ما أغلق عليه من مباحث هذا الفن من فنون الاعتقادات.

وهكذا توالت المراسلات بين الأستاذ الإمام وبين الشيخ سعد زغلول، مفصحة عن المكانة الممتازة والمتميزة لسعد في طليعة مدرسة الأستاذ الإمام وحزبه.. وهي مراسلات جديرة بدراسة خاصة، تحلل مضامينها، وتستخلص دلالاتها، وتكشف إضافاتها إلى تاريخ تلك الحقبة وما شهد من أحداث جسام.

● كذلك، أرسل الأستاذ الإمام سنة ١٣٠٥هـ سنة ١٨٨٨م من بيروت مقالة عن الوحدة الوطنية في مصر، أرسلها إلى سعد زغلول؛ لتعيد نشرها في الصحف المصرية.

● ومنذ عودة محمد عبده من المنفى إلى أرض الوطن - أواخر سنة ١٨٨٨م سنة ١٣٠٦هـ - كان سعد زغلول في طليعة المواطنين على حضور ندوته بمنزله في ضاحية «عين شمس»، كما كان محمد عبده هو صاحب اقتراح تعيينه نائب قاضٍ في محكمة الاستئناف سنة ١٨٩٢م. وكانت مؤهلات سعد زغلول حتى ذلك الحين هي مؤهلات «الشيخ سعد» دراسته الشرعية الأزهرية، وخبرته العملية في المحاماة، والتي تأسست هي الأخرى على دراسته الشرعية الأزهرية. ذلك أنه لم يكن قد درس بعد الحقوق ولا حصل على «الليسانس» فيها، فلقد بدأ تعلم الفرنسية في صيف سنة ١٨٩٢م، والتحق بجامعة باريس أوائل سنة ١٨٩٦م، وحصل على ليسانس الحقوق منها في يوليو سنة ١٨٩٧م. فالأزهر - وثقافته

الشرعية ـ هو الذي جعله من كبار المحامين، وهو الذي أهله للعمل بالقضاء!

● وكما تحدث جمال الدين الأفغاني عن محمد عبده، باعتباره أنجب تلاميذه، وأقربهم إلى عقله وقلبه ... ورغم الدور الريادي والقيادي الذي نهض به الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م] في حمل رسالة هذه المدرسة الإصلاحية إلى العالم الإسلامي ـ من خلال مجلة «المنار» ـ وهو الدور الذي جعل الشيخ رشيد أبرز أركان «التوجه الديني» لمدرسة الأستاذ الإمام ... فإن سعد زغلول ـ بشهادة الشيخ رشيد رضا نفسه ـ كان يتحلى بمدرسة الأفغاني ومحمد عبده، ورائد «الجناح المدني» في هذه المدرسة الإصلاحية ... وبعبارة الشيخ رشيد: «فلقد ظهرت روح الشيخين ـ (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده) في أعمال تلاميذهما ... ومن أشهرهم سعد زغلول ... الذي أصبح عميد الحزب المدني للأستاذ الإمام وأقوى أركانه..»[٣٣].

● وكما كانت الدراسة الأزهرية ـ الشرعية الفقهية ... والعربية والأدبية ـ هي المكون والمؤهل لسعد زغلول ـ المؤلف في فقه المذهب الشافعي ... والداعية لإصلاح الأزهر ... والكاتب عن الحرية والشورى ... وداعية «الجهاد الديني» ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر ... والمحامي المبرز ... ونائب قاضي محكمة الاستئناف ـ كذلك كانت هذه الدراسة الأزهرية وثقافتها الشرعية، هي التي علمت سعد زغلول «الاستقلال الفكري»، الذي طبع شخصيته وكل مواقفه وقراراته وأفكاره في كل ميادين الحياة التي عاشها وجاهد فيها، على تنوع وتعدد هذه الميادين.

ولقد تحدث هو ـ في مقام الاعتراف بفضل الدراسة الأزهرية عليه ـ عن هذه الخصيصة من خصائص الدراسة الأزهرية التي كانت تتيح للطالب حرية اختيار الأستاذ والشيخ الذي يتتلمذ عليه، واختيار العلوم التي يتفقه في دراستها ... وكذلك أثر صعوبة أساليب الكتب التي كانت تدرّس، وعمق القضايا الأصولية التي تحتويها هذه الكتب ... أثر كل ذلك في تدريب الطلاب على امتلاك مواهب ومؤهلات «الغوص» وراء المعارف والحقائق والأفكار في صبر ومثابرة وجهد وأناة.

تحدث سعد زغلول باشا، حديث المعترف بفضل هذه الدراسة الأزهرية على «استقلاله الفكري» فقال ـ وهو زعيم الأمة ـ بعد عودته من أوروبا سنة ١٩٢١م ـ

عندما ذهب إلى الجامع الأزهر، معترفاً بفضل الأزهر عليه، وفضله الكبير في ثورة سنة ١٩١٩م فخطب بالجامع الأزهر - حيث درس - فقال:

«جئت اليوم لأؤدي في هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة، وأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه، وكان له فضل كبير في النهضة الحاضرة، تلقيت فيه مبادئ الاستقلال، لأن طريقته في التعليم تربي ملكة الاستقلال في النفوس، فالتلميذ يختار شيخه، والأستاذ يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه ومتأهل له، يوجه إليه كل منهم الأسئلة التي يراها، فإن أجاب الأستاذ وخرج ناجحاً من هذا الامتحان كان أهلاً لأن يجلس مجلس التدريس.

وهذه الطريقة في الاستقلال جعلتني أتحول من مالكي إلى شافعي، حيث وجدت علماء الشافعية في ذلك الوقت أكفأ من غيرهم»[٢٣]

وجدير بالملاحظة أن هذا الاستقلال الفكري، الذي جعل سعد زغلول الطالب الأزهري - يفضل المذهب الشافعي على المذهب المالكي - الذي هو الغالب على مسقط رأسه ومحيطها الجغرافي - بسبب تفضيله علماء المذهب الشافعي، لم يؤثر عليه أن مذهب أستاذه وشيخه ومربيه محمد عبده كان المذهب الحنفي، فالاستقلال الفكري كان ثمرة من أنضج وأعظم طرق التدريس الأزهرية في ذلك الحين.

● وعندما أصبح «الشيخ سعد» «سعد باشا»، وتولى «نظارة المعارف العمومية» تحققت على يديه إصلاحات جذرية، كانت بنوداً في برنامج المدرسة الإصلاحية التي تبلورت من حول جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده.

فلقد أنشأ «مدرسة القضاء الشرعي» سنة ١٩٠٧م، لتكون - مع «مدرسة دار العلوم» - ديوان الإصلاح الديني والتجديد والاجتهاد في علوم الشريعة الإسلامية وفي علوم العربية. هذه المدرسة التي سبق ودعا إلى إنشائها سنة ١٨٨٧م منشئ «دار العلوم» في سنة ١٨٧١م علي باشا مبارك (١٢٣٩ - ١٣١١هـ - ١٨٢٤ - ١٨٩٣م) لتكون أداة لتجديد وتقنين الفقه الإسلامي، حتى تقاوم الأمة - بهذا التجديد والتقنين - تعريب القانون وعلمنته. وهو نفس المقصد الذي سعى إليه

الإمام محمد عبده، عندما أراد إنشاء «قسم القضائي» في الأزهر الشريف. فلما تعذر إنشاء هذا «القسم القضائي» بالأزهر - لغلبة حذر الكبار المحافظين من شيوخ الأزهر من أي تجديد، خوفًا من أن يخدم «التجديد» «التغريب» - أنشأ سعد زغلول هذه المدرسة، «مدرسة القضاء الشرعي»، لتحقيق هذه المقاصد القومية وجعلها تحت نظر الشيخ حسونة النواوي (١٢٥٥ - ١٣٤٣هـ/ ١٨٤٠ - ١٩٢٥م) إبان مشيخته الثانية للجامع الأزهر، تحقيقًا للصلة بينها وبين مؤسسة الأزهر للعلم الإسلامي. وجعل الدراسة بهذه المدرسة فيها على المذاهب الإسلامية المختلفة، وليس فقط للمذهب الحنفي - كما كان يريد الخديوي عباس حلمي الثاني (١٢٩١ - ١٣٦٣هـ/ ١٨٧٤ - ١٩٤٤م) - فحقق سعد زغلول بذلك مذهب أستاذه محمد عبده، الذي دعا إليه في تقريره الشهير عن إصلاح القضاء الشرعي.

● كذلك، أراد سعد زغلول - «أبو المعارف العمومية» - بعض عدوان سلطة الإنجليزية على اللغة والقرآن الكريم في مدارس الأميرية. وكتب في هذا الشأن - بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٠٩م - يقول: «يجب أن تكون غايتي جعل التعليم أهليًا، أي باللغة العربية في المدارس المختلفة».

وكذلك، أكثر من إنشاء الكتاتيب في القرى والنجوع، وخصص الأوقاف لهذه المخصصة لها.

* * *

● وإذا كان الأزهر قد قاد - بواسطة علمائه وطلابه - معارك الدفاع عن الإسلام، وقد كانت المعارك الفكرية التي قادها علماء الأزهر وطلابه ضد كتاب (الإسلام وأصول الحكم) - الذي كتبه الشيخ علي عبد الرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ/ ١٨٨٧ - ١٩٦٦م) سنة ١٩٢٥م - وضد كتاب (في الشعر الجاهلي) الذي كتبه الدكتور طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م) سنة ١٩٢٦م - إذا كانت هذه المعارك قد غدت من أخطر وأشهر المعارك الفكرية للقرن العشرين، بل لقد ظلت محور أغلب معاركنا الفكرية حتى هذه اللحظات فقد كان سعد زغلول - زعيم الأمة ورئيس مجلس النواب - في وقت موقع الفكرة الأخيرة، عندما قد محاولات على عبد الرازق «عصمة الإسلام» وضد طموح طه حسين

للتشكيك في بعض ما ورد بالقرآن الكريم، أي ضد أخطر التحديات التعريبية التي تواجه العرب والمسلمين. وإذا كان العديد من علماء الأزهر الشريف قد كتبوا الكتب والدراسات والمقالات، وألفوا الخطب والمحاضرات في تفنيد دعاوى صاحب (الإسلام وأصول الحكم) فإن رأي سعد زغلول في هذا الكتاب كان أقسى من رأي كثير من هؤلاء الشيوخ العلماء. ولقد أشار في ثنايا نقده لهذا الكتاب إلى الأزهر الشريف، وإلى ثمرات العلم الذي تعلمه فيه، واستغرب جهل علي عبد الرازق الأزهري - بهذا العلم الشرعي الذي قدمه الأزهر بطلابه عن شمول الإسلام للدين والدنيا، وللمرجعية الشرعية والمدنية جميعًا.

وجدير بالتنبيه أن سلطان العلم الشرعي على سعد زغلول كان أقوى من «اللعبة السياسية» و«المصالح الحزبية» التي رافقت ظهور كتاب علي عبد الرازق. فالملك فؤاد الأول (١٢٨٤ - ١٣٥٥هـ ١٨٦٩ - ١٩٣٦م) خصم سعد زغلول و«حزب الوفد» كان مع الأزهر ضد كتاب (الإسلام وأصول الحكم) وبعض صحافة «الوفد»، مثل مجلة «كوكب الشرق»، كانت - بهذه الأسباب السياسية والحزبية - مع علي عبد الرازق. بل إن السكرتير الخاص لسعد زغلول - «الشيخ محمد إبراهيم الجزيري» - خريج مدرسة القضاء الشرعي، ورئيس تحرير «مجلة القضاء الشرعي» كان هو ومجلته في صف كتاب (الإسلام وأصول الحكم). ومع كل ذلك، وبالرغم من جميع ذلك، وقف سعد زغلول الموقف الشرعي، واتخذ موقع الانحياز إلى علماء الأزهر وطلابه في الرفض والنقد لما جاء بهذا الكتاب.

وتحكي هذه الصفحة المشرقة من آثار وتأثيرات الأزهر الشريف على سعد زغلول سكرتيره الخاص «الشيخ محمد إبراهيم الجزيري»، فيقول:

«أنقل للتاريخ هذا الفصل من مذكراتي، كما كتبته في حينه. لا أستطيع تبديل حرف فيه. وقد يكون الحديث مريرًا لا يحمل بي أن أكون أداة نشره، ولكن الأمانة توجب أن أنشره ما دمت بصدد إعلان ذكرياتي عن سعد، ففي هذا الحديث على وجهه الآخر عصبية إسلامية شديدة، ورأي جميل في الإسلام وأحكامه ومدنيته.

مساء الخميس ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٥م:

دخلت إلى مكتب الرئيس[٢٥] (سعد زغلول) بعد فراغ «دولته» من مقابلة زواره

لأقدم له مجلد السنة الثالثة من مجلتي (مجلة القضاء الشرعي) والعدد الأول من سنتها الثالثة، فتقبلها بقبول حسن، وشجعني على الاستمرار في إصدارها، ووعدني أن يدلي برأيه فيها بعد أن يتصفح موضوعاتها. ثم استرعى نظره عنوان المقال الافتتاحي في العدد الجديد، وهو (الإمامة الكبرى أو الخلافة) لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف، فقال:

ـ أوَ تكتبون أيضًا عن الخلافة؟

ـ (ونحن الآن بعد مرور أيام على صدور حكم هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ علي عبد الرازق من زمرة علماء الأزهر الشريف لإصداره كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ـ

فأجبتُ «دولته»:

ـ نعم، والمجلة تعالج موضوع الخلافة منذ إلغاء الأتراك لها

ـ فقال: وما رأي محرر المجلة؟

ـ قلت: إنه يلتقي مع الشيخ علي عبد الرازق في بعض النقط، ويظهر أن ذلك كان سببًا في أن كثيرًا من رجال السراي استدعى إليه الأستاذ الشيخ خلاف ونصحه أن يكف عن الكتابة في هذا الموضوع، وأفضى فضيلته إليّ بذلك طالبًا استرداد موضوعه التالي من المطبعة ففعلت

ثم سألت «دولته»:

ـ وما رأيكم في كتاب (الإسلام وأصول الحكم)؟

فاستعد «دولته» كما يستعد المحاضر لإلقاء محاضرة، أو الخطيب لإلقاء خطبة. ثم قال: «لقد قرأته بإمعان لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ أو الصواب، فعجبتُ أولاً كيف يكتب عالم ديني بهذا الأسلوب في مثل هذا الموضوع؟

وقد قرأت كثيرًا للمستشرقين ونسواهم فما وجدت ممن طعن منهم في الإسلام حدة كهذه الحدة في التعبير، على نحو ما كتب الشيخ علي عبد الرازق. لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا فكيف يدعي أن الإسلام ليس مدنيًا ولا هو نظام يصلح للحكم؟ فأية ناحية مدنية من نواحي الحياة لم ينص عليها

الإسلام؟ هل البيع أو الإجارة أو الهبة أو أي نوع آخر من المعاملات؟ ألم يدرس شيئًا من هذا في الأزهر؟ أو لم يقرأ أن أممًا كثيرة حُكمت بقواعد الإسلام فقط عهودًا طويلة كانت أبصر العصور؟ وأن أممًا لا تزال تُحكم بهذه القواعد وهي آمنة مطمئنة؟ فكيف لا يكون الإسلام مدنيًا ودين حكم؟

وأعجب من هذا ما ذكره في كتابه عن الزكاة؟ فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية؟ إني لا أفهم معنى للحملة المتحيرة التي تثيرها جريدة السياسة حول هذا الموضوع. وما قرار هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ علي من زمرتهم إلا قرار صحيح لا عيب فيه؛ لأن لهم حقًا صريحًا - بمقتضى القانون أو مقتضى المنطق والعقل - أن يخرجوا من يخرج على أنظمتهم من حظيرتهم. فذلك أمر لا علاقة له مطلقًا بحرية الرأي التي تنعيها السياسة».

وهنا قلت - [أي الحريري] -

- لعل ما تغلط السياسة هو أن العلماء لم يندفعوا من تلقاء أنفسهم إلى هذه المحاكمة، وإنما كانوا مسوقين - على رأيها - بجهة يهمها تأييد مركز الخلافة، فاستعانت بنفوذ العلماء.

فقال:

- «أعرف ذلك، ولكن مهما كان الباعث فإن العلماء فعلوا ما هو واجب وحق. وما لا يجوز أن توجه إليهم أدنى ملامة فيه.

والذي يؤلمني حقًا أن كثيرًا من الشبان الذين لم تقو مداركهم في العلم القومي، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد، سيتحيرون بمثل هذه الأفكار، خطأ كانت أو صوابًا، دون تمحيص ولا درس، ويجدون تشجيعًا على هذا التحير فيما تكتبه جريدة السياسة وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ علي عبد الرازق، ومن تسميتها له بالعالم المدقق والمصلح الإسلامي والأستاذ الكبير إلخ.

وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأي وبين القواعد الإسلامية الراسخة التي تصدى كتابه لهدمها»

وهنا جاء موعد العشاء، فختم «دولته» القول برجاء الله أن يصلح الأحوال ويوفق الجميع إلى السداد[٢٦].

تلك واحدة من أبرز الصفحات المشرقة في كتاب فكر وعلم الشيخ سعد زغلول باشا، ابن الأزهر الشريف، وثقافته الشرعية.. وهي الصفحة التي يتجاهلها العلمانيون، الذين يريدون «سرقة» سعد زغلول، و«اختطاف» الثورة التي قادها سنة ١٩١٩م إلى حظيرة العلمانية، وتجريد الإسلام وشريعته من حاكميته في تدبير الحياة والاجتماع والدولة والسياسة والاقتصاد.

وهي صفحة يجهلها ـ مع الأسف الشديد ـ كثير من الإسلاميين ـ فيساعدون بهذا الجهل العلمانيين على «السرقة.. والاختطاف»!

* * *

● أما موقف سعد زغلول من كتاب الدكتور طه حسين (في الشعر الجاهلي) والذي شكك فيه بعدد من العقائد التي وردت في القرآن الكريم ـ من مثل علاقة الإسلام بملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ الحنيفية وفي الرحلة الحجازية لإبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وفي إقامتهما ورفعهما قواعد البيت الحرام ـ فيشير إليه سكرتيره محمد إبراهيم الجريري ـ أيضاً عندما يكتب فيقول عن سعد زغلول:

«وكان رحمه الله يرقب باهتمام ما ينشر من الكتب الحديثة بمصر، فيكلفني شراءها، ويقرأ منها ما تسمح به الفرصة

وقرأت له كتاب الإسلام وأصول الحكم) للأستاذ علي عبد الرازق «ثم الأوقاف فيما بعد»، وأدلى إلى برأي فيه سجلته عندي، وسأورده في هذه المذكرات»[٢٧].

وكذلك قرأت له كتاب المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في (إعجاز القرآن)، وكتاب الدكتور طه حسين (في الشعر الجاهلي)، ورد المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدي عليه، ومحاضرات المرحوم الشيخ محمد الخضري بك في نقده.

وأذكر أنه، رحمه الله، أعجب كل الإعجاب بكتاب الأستاذ محمد فريد

وجدي هذا، وكان قد وضعه في نقد كتاب (في الشعر الجاهلي)، وأهدى إلى ابن نسخة منه، فلما قرأه كتب إلي الأستاذ وجدي هذا الكتاب يتبع التالي

«حضرة الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدي.

وصلني كتابك الذي وضعته في نقد كتاب (في الشعر الجاهلي) وتصفحت بدايته إليّ وقرأته في عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرك الذكر، فرأيته قول شارح للحق، ومنطق يتدرع بالحجة في أدب رائع، وتحقيق دقيق في أسلوب شائق، وإخلاص كامل للدين في علم واسع، وانتصاف للحقيقة في احترام فائق ومجموع من هذه الخصال اسميت منه قلبًا فياضا بالإيمان، وعقلا متقدًا بالمعرفة، ونفسًا محلاة بالأدب فقررت عيانا بوجود مثلك بيننا، ورجوت الله أن يكثر من أمثالك فينا، وأن يجزيكم على ما تصنعون تشويق الباحثين والمتأدبين لاقتداء مثلكم في دقة البحث، وأدب المناظرة، وإبكار الذات، والانتصار للحق، وتوفيق الناس لاستماع أقوالكم واتباع أحسنها، والسلام على المهتدين

١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٦م. سعد زغلول»[٢٨]

* * *

فقد قرأ سعد زغلول رد الأستاذ محمد فريد وجدي على كتاب طه حسين «في عزلة تجمع فكر، وسكون يحرك ذكر»، وأعجب كل الإعجاب بهذا الكتاب شكلاً ومضمونًا، أسلوبًا ومنطقًا، أدبًا في التعبير وحجة في الدفاع خصوصًا، كما أعجبه فيه «فيض الإيمان» الذي جعله يدافع عن الإسلام، بتعبير مثقف بالمعارف» بدلاً من «الفرية وجدي» كما وصفه سعد زغلول» يحتدم المتطرفون والمتحمسون بسعد زغلول لانتصاره على طه حسين في موقفه الأول

وقد كان قد رأى «فيء الحق» عند سعد زغلول في نقده لكتاب منصور على عبد الرازق، عندما اتهمه بالجهل بالشريعة الإسلامية وعلوم الشريعة الإسلامية، وبالسعي لهدم قواعد الدين الإسلامي. فقد كتب «فيء الحق» هذه صحيفة بيضاء في موقف سعد زغلول من احترامه حسين على سوء تفكيره في كتاب (في الشعر الجاهلي) فعندما حملت مصطفى صادق الرافعي على هذا الكتاب وهاجمه،

إلى (بيت الأمة)، خطب زعيم الأمة في هذه المناسبة، مشكراً من جاء في هذا الكتاب.. وبدعت به الإدانة و(الاستنكار) إلى الحد الذي تمثل فيه - وهو يصف صاحب (في الشعر الجاهلي) - بشطر البيت الذي يقول:

* وهدد عليك إذا لم يفهم الفقرا! *

هكذا تجلت ثمرات الأزهر الشريف في فكر وحياة وموقف سعد زغلول

وهكذا كان الشيخ سعد زغلول ابناً من أبناء الأزهر الشريف عليه رحمة الله

* * *

**• الهوامش**

(١) محمد عبد الحكيم الجريدي: (سعد زغلول: ذكريات تاريخية) ص٨٤ طبعة (الكتاب الذهبي) بالقاهرة

(٢) محمد عبد المنعم خفاجي: (الأزهر في ألف عام) جـ٢ ص٨٠٩ طبعة القاهرة سنة ١٣٧٤هـ

(٣) الشيخ محمد رشيد رضا: (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ٢ ص٢٨٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٣١م

(٤) مارس سنة ١٨٨٣م

(٥) الإشارة إلى كتاب (تاريخ العرب وآدابهم) تأليف [illegible] الذي صدر عنه الأجزاء

(٦) الإشارة إلى محمود سامي البارودي باشا الذي يعده الأجيال - هو الآخر - من مفجري الثورات وزعماء الثورة العرابية

(٧) فتح الله.. هو فتحي زغلول

(٨) ١٧ مارس سنة ١٨٨٣م

(٩) في الأصل: ربيع

(١٠) الحديث عن الشيخ عبد الكريم سلمان، الذي سعد به في الأزهر وفي [illegible] الأستاذ الإمام، وتأثر به في [illegible] العربية وصحافة الأزهر، وشاركه في أحداثها

(١١) من تلاميذ الأستاذ الإمام، وقد سعد بعلمه، وتحدث عن مواقفه من [illegible] العرابية بعد هزيمتها، وللكتاب الذي أرسله إلى الحكومة عن موقفه من أحداث الثورة

(١٢) الإشارة إلى سعد زغلول نفسه

(١٣) لقد حققت نسبة التعليقات على شرح الدردير في العقائد للعصمية إلى حسن العطار، وهو الذي أملاها، وكان محمد عبده هو المسئول عنها لأنه كان قد تخرج بعد من الأزهر، انظر تقديمنا للأعمال الكاملة للجبرتي (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) طبعة بولاق سنة ١٩٩٥ جـ٥ ص١٦٦

(١٤) جمادى الأولى سنة ١٣٠٠هـ الموافق ٢٠، ٢٧ مارس سنة ١٨٨٣م

(١٥) هو [illegible] الأفغاني [illegible] المصحح عن نسخة لأل [illegible] هو [illegible] على الإطلاق

(١٦) صدرت في لندن سنة ١٨٨١م [illegible] تحريرها خليل غانم

(١٧) كان الأفغاني لا يوقع مقالاته في الصحف باسمه، وإنما باسم مستعار

(١٨) هكذا بالأصل

(١٩) هكذا بالأصل

(٢٠) [illegible] الأفغاني [illegible] محمد [illegible] على الدهريين - للأفغاني - من الفارسية إلى العربية

(٢١) ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠هـ الموافق ٥ إبريل سنة ١٨٨٣م. وانظر هذه الرسائل الثلاث في (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ١ ص٢٧٥ - ٢٨٠، ١٨٠ - ١٨٢

(٢٢) (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ١ ص١٣٦، ١٣٧

(٢٣) (مذكرات سعد زغلول) جـ١ ص٥٤. تحقيق وتقديم [illegible] عبد العظيم [illegible] سنة ١٩٨٧م

(٢٤) (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ١ ص٥٥٧

(٢٥) أي رئيس مجلس النواب

(٢٦) (سعد زغلول: ذكريات تاريخية) ص٩١ - ٩٣.

(٢٧) هو الرأي الذي [illegible] عن حريري في هذه الدراسة

(٢٨) (سعد زغلول، ذكريات تاريخية) ص٣٧

* * *

# الدكتور محمد حسين هيكل باشا..
# من الاستنارة بالغرب إلى الاستنارة بالإسلام

المراجعات الفكرية في مسيرة العلماء والفلاسفة والمفكرين، آية من آيات الحيوية والنظر والتجدد والاجتهاد. فالذين لا يراجعون أفكارهم هم العجزة، الذين يستوون مع الموتى والجمادات!

وإذا كانت «الأشعرية» هي مذهب جمهور المسلمين، فلقد كان إمامها أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤هـ ٨٧٤ - ٩٣٦م) معتزلياً، بل ومن أئمة المعتزلة. ثم راجع فكره، وانتقد مسيرته، فأصبح إماماً لهذا المذهب الوسطي الجديد، الذي استقطب جمهور المسلمين.

وكان للإمام الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤هـ ٧٦٧ - ٨٢٠م) في العراق، مذهب فلما جاء إلى مصر أبدع فيها فقهاً جديداً ومذهباً جديداً.

وقاضي السلطة عبد الجبار بن أحمد الهمداني (٤٠٥هـ - ٢٤٠م) الذي قاد صحوة المذهب الاعتزالي، لم يكن في بداياته الفكرية معتزلياً.

وكذلك حال عصرنا الحديث، مع المراجعات الفكرية للعلماء والمفكرين.

فمنصور فهمي باشا (١٣٠٣ - ١٣٧٨هـ ٨٨٦ - ١٩٥٩م) الذي كانت رسالته للدكتوراه طعناً في نساء النبي ﷺ وبنت النبوة، انتهى به المطاف الفكري عضواً في «جمعية الشبان المسلمين» ومدافعاً عن الإسلام، ومقدماً «للمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم».

والشيخ علي عبد الرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ ٨٨٧ - ١٩٦٦م) الذي بدأ حياته الفكرية بدعوى أن الإسلام مجرد رسالة روحية ودعوة دينية، خالصة

بعيين، لا علاقة لها بسياسة ولا بدولة ولا بحكم. وأن رسول الإسلام ﷺ لم يقم دولة، ولم يؤسس حكومة، ولم يرأس مجتمعاً، فكتب في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» تحت عنوان «رسالته لا حكم، ودين لا دولة» يقول: «محمد ﷺ ما كان إلا رسولاً، كيوحنا الحبيس مع أنه رسول، رسولاً لدعوة دينية خالصة للضمير، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة. ولم يقم بتأسيس مملكة، بمعنى ما تفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها. ما كان ملكاً، ولا مؤسس دولة، ولا داعياً إلى ملك» حتى لقد امتدح - على عبد الرازق - «دين الضمير بقيصر وما لله لله»، رافعاً شعار: «يا بعد ما بين السياسة والدين»[1]!

على عبد الرازق هذا، انتهى به المطاف بفكرتي إلى الحديث عن أن «الإسلام دين تشريعي، وأنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده، وأن الله حاسبهم جميعاً بذلك. وأنه إذا رأت جماعة المسلمين أن مصلحة المسلمين في أن تكون حكومة خلافة، فالخلافة تكون حينئذ حكومة شرعية»[2].

بل لقد تحدث عن ما سبق به لسانه من أن الإسلام هو مجرد رسالة دينية بأنها «كلمة ألقاها الشيطان على لسانه وبشيطان كلمات يلقيها على ألسنة الناس»[3]. فسار على درب علماء وفكرين سبقوه ممن جعلوا من دينهم وقرآنهم من اجتهادات وأفكار، عندما رأوها مجانبة للصواب.

* * *

وإذا كانت هذه مراجعات لفكرة، فقد عدنا في حياة فكرية، سمتها محمودة، وشهادة على خصوبة وتجدد واجتهاد وإبداع. فمن مسيرة فكرية لدكتور محمد حسين هيكل باشا (١٣٠٥ - ١٣٧٥هـ/١٨٨٨ - ١٩٥٦م) على درب مراجعات فكرية قد سعت الدروة، في عمق التحولات، والإعلان عن المراجعات، وشجاعة النقد للذات!.

عاش الدكتور هيكل - كعدد كبير من أبناء جيله - مبهور الحضارة الغربية، ساعياً إلى أن تنهضنا من حيث انتهى الغربيون، وجد في الفكر الغربي المعلمي منه والإنساني - العقلي فيه والروحي - إلى لغة العربية؛ مجدد ومروج في النهضة والتقدم والتجديد. ولذلك كان تبشيره وكانت دعوته إلى

١ ـ الفكرة القومية، تصاصيف ... حاولت في تعريب ... سبيلاً لمكافحة «الجامعة الإسلامية» القائمة على رباط العقيدة الإسلامية، وليس رباط العرق واللغة

٢ ـ والنزعة العلمانية، التي تفصل الدين عن الدولة وتحصر الشريعة الإلهية عن تدبير المجتمع البشري والعمران الإنساني، وتجعل الإنسان مكتفياً بذاته، يدبر عالمه بالعقل والتجربة، دون تدخل من الغيب والوحي

٣ ـ والنزعة الفرعونية المصرية، كما عند قومي المصريين، بدلاً من رابطة العروبة وجامعة الإسلام

بدأ الدكتور هيكل هذه المذاهب «المتغربة»، ومضى في الدعوة إليها نحو ثلاثة عقود لأكثر من عشرين عاماً. ثم حدثت له التحولات الفكرية، التي قادته إلى الإبداع الجديد، انطلاقاً من المرجعية الحضارية الشرقية، وخصوصاً العقيدة الإسلامية.. فكانت أعماله الفكرية الكبرى وسيرته الذاتية شاهدة على الإسلامية على مستوى الإبداع الفكري والأدبي الفني

● نقد القومية

● نقد بدأ الرحلة حياته الفكرية متغرباً، وكان موقفه من أحمد لطفي السيد باشا (١٢٨٨ ـ ١٣٨٢هـ ١٨٧٠ ـ ١٩٦٣م) هو موقع التلميذ من الأستاذ. وقد مارس النشاط الفكري الهيكلي كاتباً في «الجريدة» التي أسسها، ثم أدارها لطفي السيد ـ وهي الدور الذي كان يشير بالوطنية وبقوميه، بمفهومها الغربي، فيرى ضرورة «استقلال» مصر عن محيطها العربي والإسلامي، منفصلاً سياسياً وحضارياً، على النحو الذي يحررها من الاستعمار الإنجليزي، ويجعلها في ذات الوقت تحتضن العربية ـ لأن الرابطة بين العربية والإسلامية كانت مساوية، عند هذا التيار، للاستعمار الأوروبي سواء بسواء!

بدأ هيكل في هذه المدرسة الفكرية ـ فيما حدث له بعد ذلك من تحول فكري ـ وهو في العقد الخامس من عمره، ينقض فكره القومية، بمعناها ومضمونها الغربي، ومعها كل ما يتضمنه مفهوم الأمة ـ الدولة، المؤسس على

عقيدة التوحيد الإسلامية، التي هي جوهر دين الإسلام. كتب يقول «إن الفكرة الإسلامية، لمسة على التوحيد، تحالف من يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات، وتصوير الأمم وحدات متنافسة، يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه، وتقد تأثر، معشر أمم الشرق، بهذه الفكرة القومية، واندفعنا ننتح فيها روح القوة، بحسب أنا نستطيع أن نقف بها في وجه الغرب الذي صعق عقبه وأذلنا وحيل بيننا وبين سعد حسنا، أنا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد أمتنا، وأن نسترد ما غصب العرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية

ولقد أسأنا بريق حضارة الغرب ما تنطوي عليه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتاكة بالحضارة التي تقوم على أساسها وحدها، وربما خيّم علينا من سجف الجهل إمعانا في هذا النسيان.

على أن التوحيد الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصور خطر فيما يدعو الغرب إليه. وبدت، لنا، لمحة من البصر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية، لنخرج من جمودنا الحالي، ولنتقي الخطر الذي دفعت الفكرة القومية الغرب إليه، فأدمنت فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التي جعلها الغرب إلهه»[٢]!

فالدكتور هيكل، هنا، يحدد أن تبنيه ـ هو وأمثاله ـ للنموذج الغربي في القومية، إنما كان اجتهاداً خاطئاً، طلباً أنه السبيل إلى «أن نعيد مجد آبائنا، ونسترد ما غصب العرب من حريتنا وما أهدر من كرامتنا الإنسانية». وهو يعلن أن السبيل الصحيح الوحيد، هو «الفطرة» و«السلامة» التي تتمثل في «التوحيد» الذي يكون «الإسلام». ثم أضاف عليه تلك «الفطرة» التي رشّحها «التوحيد الإسلامي في روح الإسلام» وأن التمسك بمشروع إنهاض الأمة، انطلاقاً من حضارتها وعقيدتها، إنما هو السبيل إلى الخروج من «الجمود المدمّر» الذي عليه تيار التقليد والجمود ـ واتقاء «الخطر الغربي» الذي يكرسه المغربون ـ!

## • نقد العلمانية

• وبالنسبة للعلمانية، التي تفصل الدين عن السياسة والدولة وتحصر المجتمع ونظم الحكم، والتي بشر بها العلمانيون - لأنها قسمة أصيلة في مشروع النهضة الغربية - كان الدكتور هيكل في سنة ١٩٢٥م، رئيس تحرير صحيفة (السياسة)

- لسان حال «حزب الأحرار الدستوريين» - ومن موقعه هذا قاد حملة الدفاع عن كتاب الشيخ علي عبد الرازق - (الإسلام وأصول الحكم) - ذلك الكتاب الذي دعى فيه علمانية الإسلام - وخلوه من أية علاقة بالدولة والحكم والسياسة والتنظيم - فهو عنده «رسالة دينية» وأن محمداً بين السياسة والدين، وبين الإسلام، ﷺ مجرد مبلِّغ، لا علاقة له بالتنظيم!»

كان الدكتور هيكل، في سنة ١٩٢٥ م، قائد حملة الدفاع عن هذه العلمانية فيما حدث به المفكرون المصريون وفي سنة ١٩٣٥ م كتب (حياة محمد) ينقض فيه مقررات العلمانية من الأساس، ويوضح تميز الإسلام عن المسيحية، وخلاف (أخلاق محمد) في السياسة والدولة عن عيسى عليه السلام، وغيره من الرسل الذين، وصف رؤيته لشخصية محمد ﷺ بأنها خطوة للإسلام في هذا الموضوع «موضوع العلاقة بين الدين والدولة» فكتب هيكل يقول «لقد أقام محمد دين الحق، ووضع أساس حضارة هي وحدها بكفيلة بسعادة العالم فبعد الهجرة في المدينة، بدأ ظهور محمد من أطوار حياة محمد، بدأ الطور السياسي، الذي لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والمرسلين فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقومون عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس من طريق الجدل ومن طريق المحجة، ثم يتركون من بعدهم من السياسة وذوي السلطان أن يشرعوا هذه الدعوة، فأما محمد، فقد أراد الله أن يتم بشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والفاتح والمدين والحضارة بلغهما محمد بأساس يوحى من ربه يتر وحان، حتى لا انفصال بينهما وقد حلا تاريخ الإسلام من الصراع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية فأخذه ذلك عن ترك هذا الصراع في تفكير المغرب وفي تجاه تاريخه»

فهو هنا يجعل الحضارة الإسلامية والدين الإسلامي ملاذاً يهرب إليه المسلمون ويؤكد أن الإسلام لبي، كما أقدم الدين، فلقد وضع أساس الحضارة، وأنهما لا تنفصلان. فهو كما يبدو على تمام يتابع الإسلامي عن تاريخ العرب في العلاقة بين الدين والدولة. الأمر الذي يجعل من السذاجة بمكان تصوره متعارضاً مع عربي هو العلمانية. المشكلة لم يعرفها الشرق وهي الكهنوت والسلطة المتمثلة بالدولة والسلطة الزمنية.

* * *

**• غمز الأصدقاء!**

وعلى أثر هذا التحول الفكري للدكتور هيكل ردود فعل حتى عند أقرب أصدقائه بالذات. فكتب الدكتور طه حسين (٦ ١٣ ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ ـ ٩٧٣ م) عن كتاب هيكل (حياة محمد) معتبراً إياه تحولاً فكرياً يخدم «السلفية التقليدية»، ومحاولة غير علمية لبرهنة تعصبه على عقائد دينه، التي لا تخضع للعلم وتتصف بها الدكتور هيكل ـ لمنهج الإمام محمد عبده (١٢٦٥ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ـ ١٩٠٥ م) الذي عاش عمره وأصبح رمزاً للتوفيق بين العلم والدين، والعصر والتراث!! كتب طه حسين يقول عن كتاب صديقه هيكل «لقد أراد حسين هيكل أن يُخضع تاريخ تلك الفترة البطولية (حياة محمد) للدراسة وفق المنهج العلمي الدقيق، فتناول كل شيء بالنقاش والتحليل ولكن مؤدى ذلك كله خروج السيرة التقليدية طاهرة على الدوام. فقد نسي حسين هيكل أن بعض الوقائع لا تخضع ولا يمكن أن تخضع لصوت العلم. ومثال ذلك البرهنة على أن إسماعيل، وليس إسحاق، هو الذي وجه محنة الفداء والدليل بطريقة علمية على إمكان الرحلة التي قام بها النبي ﷺ، حيث أسري من مكة الى بيت المقدس وعاد في غضون ليلة واحدة، وهلم جرا». وقد وفق حسين هيكل في كتابه منهج جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في التوفيق بين العقيدة الإسلامية وبين العلم والحضارة المعاصرة. وهو منهج لم يعد مواكباً للعصر. فلقد ضرب كل أفكار محمد عبده بشأن العلم والدين بدلية. وقيل هم المسلمون الذين يهتمون بالتوفيق بين إيمانهم و المعارف التي حصّلوها وهم يدفعون بمنهج نحو الحضارة

لغربية ويتحذوها مثلاً أعلى. وصار المسكون وراء محمد عنده يعدون محافظين، بل ويُدرجون أحياناً بين المتخلفين»[1].

هكذا كتب طه حسين عن تحول تفكير هيكل - في (حياة محمد) عن المرجعية الغربية إلى المرجعية الإسلامية - فرآه تحولاً عن «التقدمية» إلى «الرجعية» وعن «التجديد» إلى «التقليد» لا يجد «إلا سلفية التقليد بأقبح صورة»[2].

وبدلاً من أن يعتصب هيكل من هذا الذي وصف به طه حسين تحول تفكيره، ذهب فصدر بعد عامين من صدور (حياة محمد) في كتابه (في منزل الوحي) صفحة من أعمق صفحات النقد الموضوعي للغرب، تحدث فيها عن أسباب ومنعطفات هذه التحولات الفكرية عن المرجعية الغربية إلى مرجعية الإسلام. كتب هيكل يقول: «وأقف هنا لأدفع زعماً حسب الذين زعموا أنه مُعمِّر «عمروني» به بعد تأليف كتابي (حياة محمد) حسب هؤلاء أني تقلت بكتابة السيرة رجعيًا. وكنت عندهم قبله في طليعة المجددين. لكني أسأل أصدقائي، أحرار الرأي، عن عيب جميعًا حين ينتج؟ أليس يستعي التقدم خطوة جديدة في سبيل الكمال؟ ولقد طالما سمعت في شرقنا أدب يهوض يعضنا يقف إلى جانب الإنسانية المهيبة، لا يكبس احترام رءوس. ولا يحز في نفوس ذلك الشعور المُمض بأنا دون الغرب مكانة.

ولقد خُيِّل إليّ زمناً، كما لا يزال يخيل إلى أصحابي، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيل إلى هذا المهوض. وما زال أشرك أصحابي في أن ما نراه في حياة بني الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله

ولكني أصبحت أحسبهم في أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ينقله. فتاريخه الروحي غير تاريخ الغرب. وثقافته الروحية غير ثقافته. فصنع الغرب يفكر يكسى على ما تواريه «المسيحية» منذ عهد الأول، وبقي للشرق نزيفًا من خضوع بهذا التفكير، بل حوربت مذاهب الإسلامية التي أرادت أن تقيم في العالم الإسلامي نضالاً كذلك الذي خاضه الغرب، ثم تقم لها فيه قائمة أبدًا. لذلك بقي الشرق مطهرًا من الأسباب التي أدت إلى اضطراب الغرب الروحي وإلى ثورته السياسية التي نشأت عن هذا الاضطراب،

وهي مسيحيون مضطهدون في الشرق في جو مشمس في طمأنينة لا يضمون من ثيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصلاه إخوانهم في الغرب.

كان الخروج على الكنيسة مسيحية في الغرب إعلان ثورة على السلطة وكانت الثقافة الروحية لذلك في قصة رجل لم يكن يرضون عن أمورهم يثورون على الكنيسة، ويتمردون ما يشاءون بقصة الدين والإسلام لا يعرف الكنيسة، وأمور ليس فيه شيء تشبهها، ولا قصص فيه يعرفها على عكسها لا يتمردون، فقد كانت الثقافة الروحية في الشرق جزءاً من نفسه لا حياة فيه حين جفت ينابيعها وفترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب، لم تعرف عصور الازدهار الإسلامي قيداً خطيراً يفكر ما كان صاحبه يرى أن يقصد بسعي مريء سبيل الخير ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله.

كيف يستطيع أن ينقل ثقافة الغرب الروحية لمنهض بهذا الشرق؟ وبينا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟ لا مفر، إذاً، من أن نتمسك في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أضواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحيي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا.

إن التوحيد، الذي أضاء سورة أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصور أخطر فيما يدعو الغرب إليه، وهي أن أمة لا تتصل حاضرها بماضيها حقيقة أن تتصل استقبل، وهي أن الأمة التي لا ماضي لها لا مستقبل لها، ومن ثم كانت الهوة التي زادت عمقاً بين سواد الأمم في الشرق والدعوة إلى إغفال ماضيه والتوجه وجهة الغرب بكل وجودنا، وكان التغرير من جانب سواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية، مع حرصه على نيل علومه وصناعاته وحياة معنوية هي قوام الوجود الإنساني للأفراد والشعوب ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية. ثم ألست حين تثبت هذا الأمر أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعته التماس لرضاه كما يزعم الذين يغمزون؟[11] "

هكذا رد الدكتور هيكل على المتعرضين الذين كان وجه منهم ووضح به

م كان قد حمى عليه، ولا يزال حتى عهده من منطلق ليقينه بشرف لأن وأن يعتمد مرجعية الإسلامة، باعتباره «قوام الوجود الإنساني للأفراد والشعوب» مع لأحد عن العرب «علومه وصناعته»؛ لأننا سنا عربًا في قوام الوجود - الحياة الروحية - على مر التاريخ!.

وقصيته ليست خولا عن مسلمة في مرجعية، ومن تحمله في سلسلة التقليد - كما توهم الدكتور طه حسين والذين غمزوا الدكتور هيكل عندما كتب (حياة محمد) - وإن هو تحول «جديد و بعيد و بحرية وهذا ما دكتور هيكل «فلقد حاولت أن أنقل لأبناء لعتي ثقافة العرب المعنوية و بروحية، لتحدد جميعًا هدى وسراجًا ونكسي أدركت. بعد لأي، أنني أضع البذر في غير مسته، فيد الأرض تهضمه ثم لا تتمحص عنه، ولا تبعث الحياة هذا كلام واضح بيّن ومن عجب أن يحمي على أصحابي، فلا يرونه، وأن يكون خفوه سبب تثريبهم عليّ! ولكن، لا عجب، فقد حمى هذا الكلام على سبوت، كما لا يزال حميًا عن كثيرين منهم!!»

وإذا كانت هذه لعبارات «وثيقة» قد مثلت صفحة مثالقة في شجاعة لرأي عندما تعبر صاحبه عن تحولات مسيرته الفكرية، وفرحت صعوده على سلم لاجتهاد فإنها لا تزال تحوب بعموضي لتساؤلات حيرى تدين أصحابها لإحباط من فشل مشاريع لتحديث بعربية في بلاد غير قريبين من تراث من لتبرير ية إلى لهوية، بمعنى بعربي إلى ماركسية و شيوعية - تأثرت فيها بعقيدة سببه، وعلوية، وحضارية، وتنموية وبناء على لأمة لا يحقق لا بالإسلام وبرثه وبريحه وحضريه وبناء عليه فكل شعوب لشرق لإسلامي لا تصلح إلا على دعوة لإسلام وبناء عليه لا تبني لا لمن يؤمن - من دخل سورها الحضاري - ببناء لإسلام!

ونحن، مع لدكتور هيكل، أمام حقيقة حضارية، مع ترجح لعروة في لإخلاص الفكري عندما عبر عنها هذا لتعبير لشجاع ولعميق

* * *

## ● نقد الفرعونية

● وغير دور قد تعرض في «العودة» و«العصفور» كان الدكتور هيكل قد ذهب، في مرحلة من حياته الفكرية، يلتمس نموذج نهضة ومرجعيتها في «الفرعونية المصرية القديمة». وكان ذلك بعد أن بقي سجين نهضة شرقية بوجه خاص للعربية، فذهب يبحث في «أصالة» عن طور فرعوني قديم ويومئذ طن أن «نموذج الفرعوني» القديم - وهو تراث مصري أصيل - قد يكون صالحًا للبعث، كمشروع للنهضة المصرية المنشودة.

وكان لهذا المشروع، في مصر، فريق في «العصفورية» يشجعه وفي «الأشورية والبابلية» في العراق - فأخذ الرجل يبشر مع جرين «بالفرعونية» كدعوة للبحوث والتقدم. ثم اكتشف أنها، هي الأخرى، وهم من الأوهام، فقد عدت تاريخًا بدرسه المتخصصون تاريخًا يعبر به ويتجه، لكل عصر لأمة وعقلها ووجدانها قد تطبعت بطابع جديد، وصنعت صيغة جديدة، قومها ومقوماتها الإسلام - الذي استوعب حضارته كل العناصر الحية في التراث القديم.

أدرك الدكتور هيكل ذلك، فكتب عن هذا التحول من منعرجات رحلته الفكرية يقول: «ولقد انقلبت (أي بعد مرحلة الانبهار بالغرب) أتلمس في تاريخنا البعيد، في عهد الفراعين، موئلا لوحي هذا العصر، ينشأ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرًا لنهضة جديدة.

ورويدًا - (أي بطرتُ) - فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي يبست ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وترمو، ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين»[٢].

هكذا طوى الرجل، غير بعيد نصف قرن من حياة فكرية خصبة، بحثًا عن مصدر نور يصلح لإنارة طريق الأمة، يأتي منه نفس تزكي في صفوفها معالم النهوض والتقدم والانعتاق من براثن التخلف والجمود والقشور وذلك لاستعادة قيم يجد ضياع ولا أسف ولا تجمع ولا أهدى من نور الإسلام وكانت هذه الشجاعة التي جعلته يكتب هذا الذي كتبه عن تحولات مسيرته

الفكرية ومع هذه الشخصية، كانت لديه العبقرية التي جعلته يبدع جديده في موقعه الجديد!

* * *

ويقدم الدكتور هيكل كل ذلك، دون أن يتخلى عن منهج الاستمرار في البحث والنظر وكده الدائب، وهو يرد على الذين قسموا مراحل "العبقرية" إلى «تقليدية وتجديد»، ومرحلة «إسلاميته» إلى «السلفية والرجعية والتبعية» فقال: «إنني لم أتقيد في تفكيري وتأملي أمام شيء مما رأيت بغير منطقي وعقيدتي الذاتية، الذين كونتهما لطريقة العلمية الحديثة فأنا لا أسلم بعقيدة الموروثة إذا لم يكن لها أساس غير ما وجدنا عليه آباءنا، ما لم أمتحنها وأمحصها وما لم أصل من أمرها إلى الإيمان بأنها هي الحقيقة كما يسيغها عقلي ويطمئن إليها ضميري وأنا لا أحسب الذين يدينون بعقيدة ما بغير شيء إلا أنهم وجدوا عليها آباءهم مؤمنين حقًا»[1].

فأنا أدلل على أن تحوله إلى مرجعه «إسلامية» في استقاء وتوجيه، هي ثمرة للاستمرار بمنهج تعلمي في البحث والنظر، وليس على حساب هذا المنهج، كما توهم الذين يغمزون ويلمزون!

* * *

**■ الهوامش**

(١) (الإسلام وأصول الحكم) ص٤٩، ٦٤، ٦٥، ٦٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م

(٢) صحيفة (السياسة) عدد ١ سبتمبر سنة ١٩٢٥م

(٣) مجلة (رسالة الإسلام) عدد مايو سنة ١٩٥١م

(٤) (في مترل الوحي) ص٢٢ - ٣٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

(٥) (حياة محمد) ص٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٥١٦، ٥١٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٨١م

(٦) د. طه حسين (من الشاطئ الآخر) طه حسين في حديثه الذي لم ينشر سابقًا) ص٦٥، ٦٦، ٣٧، ٦٢، وهذه الكلمات بنصوص فرنسية لطه حسين، جمعها وترجمها ونشرها عبد الرشيد الصادق محمودي طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م

(٧) (في مترل الوحي) ص٢٢ - ٣٦

(٨) المرجع السابق ص١٢

# فهرس الموضوعات


| الموضـــــــوع | الصفحة |
|---|---|
| تمهيد | ٥ |
| فى فقه الاستعمار الاستيطانى | ١٨ |
| انتفاضة أرض الإسراء والمعراج | ٢٨ |
| والحق ما شهدت به الأعداء | ٣٣ |
| العنصرية اليهودية.. ودعوى شعب الله المختار | ٣٨ |
| القدس بين اليهودية والإسلام | ٤٣ |
| القدس فى الإسلام | ٤٨ |
| إسلامية القدس.. ماذا تعنى؟ | ٥٤ |
| لقد كتبوا علينا صدام الحضارات | ٦٠ |
| قارعة سبتمبر.. هل قسمت العالم إلى قسطاطين؟! | ٧٤ |
| امريكا.. هل هى شعب الله المختار؟ | ٨٠ |
| الحرب الثقافية على الإسلام | ٨٦ |
| الهجمة الأمريكية على الإسلام | ٩١ |
| الطيب والخبيث فى الدعوة إلى تغيير مناهجنا الدينية.. وخطابنا الدينى | ١١٤ |
| قرن أمريكا؟.. أم قرن الإسلام؟ | ١٢٨ |
| صورة الإسلام فى التراث الغربى | ١٣٦ |
| منهجية التنوير الغربى وتجديد العلوم الإسلامية | ١٤٤ |
| حوار الأديان: هل هو حوار طرشان؟! | ١٥٦ |
| الإنسان والمجتمع: بين الرؤية الإسلامية.. والعولمة الغربية | ١٦٨ |
| فلسفة المشروع الحضارى | ١٩٣ |
| الشيخ سعد زغلول باشا: ابن الأزهر الشريف | ٢٠٠ |
| الدكتور محمد حسين هيكل باشا.. من الاستنارة بالغرب إلى الاستنارة بالإسلام | ٢٢٥ |

رقم الإيداع ٢٨٨٧ /٢٠٠٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0914 -9

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
ت : ٥٧٨٧٩١٨ - ٥٧٩٩٩٤٢
الرقم البريدي : ١١٢٣١

# هذا الكتاب

• إن طمع الغرب فى الشرق له تاريخ قديم!

. فمن الإسكندر الأكبر.. وحتى الفتوحات الإسلامية، عشرة قرون من القهر الإغريقى والرومانى للشرق!

• وهناك قرنان من الحروب الصليبية.. ثم خمسة قرون من الغزو الغربى الحديث للشرق الإسلامى، بدأت بسقوط الأندلس، ولا تزال ممتدة حتى الآن!

• وللانتصار على هذه التحديات.. الطامعة فى احتلال الأرض.. وتغريب العقل.. ونهب الثروات.. وتنصير المسلمين!.. لابد من فقه القوانين الحاكمة لهذا الصراع الذى فرضه الغرب الاستعمارى على الإسلام..

وذلك حتى لا نقع فى «التهويل».. فننسى أن هذا الشرق قد كان دائما وأبدا مقبرة الغزاة!.. وحتى لا نقع فى «التهوين».. فنظن أن تحديات اليوم - الأمريكية الصهيونية - ليس لها تاريخ!.

• وللوعى بدقة تحديات هذه المواجهة، يصدر هذا الكتاب.